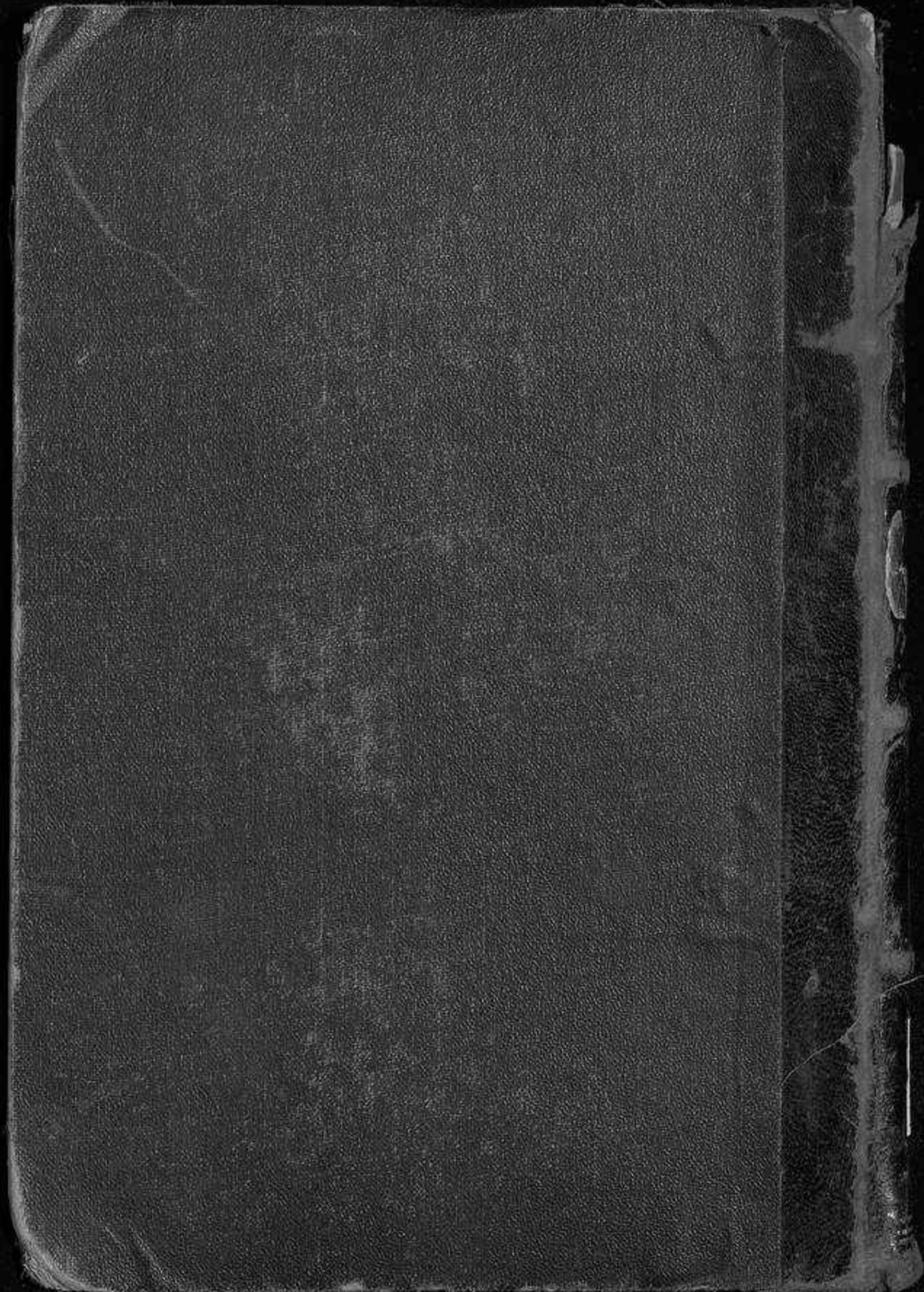




CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



GIFT OF
Binghamton
Public Library



OLIN
PQ
2315
S7
1923

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 059 914 725

DISCARD



مَلَجِكُ فُلَيْنِ

أو

تحت ظلال الزيزفون

تأليف

الكاتب الفرنسي الشهير

ألفونس كار

ملخصة بقلم

مصطفى الطفي النفاطي

« حقوق الطبع محفوظة »

الطبعة الرابعة

أول نوفمبر سنة ١٩٢٣

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية

بالحر نقش بمصر رقم ٣٥



8927

Csp 1

FIRST WARD BRANCH

من ماجدولين الى سوزان

سواءً لدى أقرأت كتابي هذا أم مزقته فهو خلو من كل
 شيء يهملك العلم به أو النظر اليه
 كل ما يمكنني أن أطرفك به من الاخبار أن أقول لك إن
 أشجار الربيع قد بدأت تبتسم عن أزهارها ، وأن النسيم العليل
 يحمل إلي في غرفتي في هذه الساعة التي أكتب اليك فيها شذى
 أول زهرة من زهرات البنفسج وأول عود من أعواد الزنبق
 ويمكنني أن اخبرك أيضا وان كنت لا أعرف لمثل هذه
 الاخبار معنى أن الغرفة التي كانت خالية في الدور الأعلى من منزلنا
 قد سكنها اليوم فتى اسمه « استيفن » غريب الأطوار في وحشته
 ونفوره واتقباضه عن الناس حتى يكاد يظن الناظر اليه أنه
 بائس أو منكوب ، فهو ينزل في صبيحة كل يوم إلى الحديقة ويديه
 كتاب واحد لا يغيره ، فإذا جلس للقراءة فيه علق نظره بأول
 سطر يمر به ثم لا ينتقل عنه بعد ذلك ، فهو في الحقيقة مطرق
 إلى الأرض من حيث يظن الرائي انه يقرأ في كتاب ، فإذا

رَأَى مَارَّةً أَمَامَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى وَحْيَانِي نَحْيَةً مُوجِزَةً ثُمَّ انْقَلَبَ
مِنْ مَكَانِهِ وَانْسَابَ بَيْنَ الْأَشْجَارِ أَوْ صَعَدَ إِلَى غُرْفَتِهِ ، لِذَلِكَ لَمْ
تَتَّصِلْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَعْرِفَةٌ حَتَّى الْيَوْمِ ، وَرَبَّمَا لَا يَقَعُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا
بَعْدَ ، لِأَنِّي لَا أَتَمَسَّ السَّبِيلَ إِلَى التَّعَرُّفِ بِهِ وَلَا أَحْسِبُ أَنَّهُ يَلْتَمِسُهُ ،
فَإِنْ كُنْتُ لَا أَبْدُ سَائِلَةً عَمَّا يَتَسَاءَلُ عَنْهُ النِّسَاءُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ
فَأَقُولُ لَكَ إِنَّ الْفَتَى لَيْسَ بِجَمِيلٍ وَلَا جَذَّابٍ ، بَلْ إِنَّ فِي مَنْظَرِهِ
مِنْ الْخَشُونَةِ وَالْجُمُودِ مَا يَنْفِرُ نَظَرَ النَّاضِرِ إِلَيْهِ ، وَأَحْسَنُ مَا فِيهِ أَنِّي
سَمِعْتُهُ لَيْلَةً وَكَانَتْ نَافِذَةُ غُرْفَتِي مُفْتُوحَةً يَغْنَى غِنَاءً شَجِيحًا مَوْثِرًا
وَإِنْ كَانَ لَا يَجْرِي فِيهِ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ النِّغَمِ ، فَهُوَ يُطْرِبُ
الْبُؤْسَاءَ وَالْمَحْزُونِينَ ، وَلَا يَعْجِبُ الْمَوْسِيقِيَّينَ الْمُتَفَنِّينَ ، وَلَقَدْ
تَمَكَّنَ أَبِي مِنْ مَجَالَسَتِهِ هَنِيئَةً فَخَدَّثَنِي عَنْهُ أَنَّهُ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ
الْأَذْكِيَاءِ ، وَبَعْدُ فَأَحْسَبُ أَنِّي قَدْ أَمْلَيْتُكَ بِأَسْوَازِ بَحْدِيثٍ يَتَعَلَّقُ
أَكْثَرُهُ بِأَنْسَانٍ لَا شَأْنَ لِي وَلِلْكَ مَعَهُ ، فَلَا تَعْتَبِنِي عَلَى ، فَهَذَا كُلُّ
مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْلَأَ بِهِ صَفَحَاتِ كِتَابِهَا فَتَاءً تَعِيشُ فِي قَرِينِهَا
الصَّغِيرَةِ عَيْشًا مُتَشَابِهَ الصُّورِ وَالْأَلْوَانِ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ،
وَصَبِيحِهِ وَمَسَائِلِهِ ، لَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ فِيهِ عَلَى مَرَأَى جَدِيدٍ ، وَلَا
تَغْرُبُ عَنْ مَنْظَرٍ غَرِيبٍ

من ماجدولين الى سوزان

الجوُّ رائق ، والسماءُ مُصمّية ، وقرص الشمس يلتهب التهاجا ،
والارض تهتز فتنبت نباتا حسنا ، والاشجار تنتفض عن أوراقها
اللامعة الخضراء ، والهواء الفاتر يترقرق فينبعث الى الاجسام فيترك
فيها أثرا هادئا لذيذا ، وكل ذلك لا قيمة له عندي ، ولا أثر له
في نفسي ، فاني أشعر أن الحياة مظلمة قائمة ، وأن هذا الفضاء على
سمعه وانفراج ما بين أطرافه أضيق في عيني من كفة الحابل ، وأن
منظر العالم قد استحال الى شيء غريب لا أعرفه ولا عهد لي بمثله ،
فأظل أنتقل من مكان الى مكان ، وأفر من الحديقة الى المنزل ، ومن
المنزل الى الحديقة ، كأنني أفتش عن شيء ، وما أفتش إلا عن
نفسى التي فقدتها ولا أزال أنشدها ، فاذا نال منى التعب أويت
الى أشجار الزيزفون في الحديقة لأستريح في ظلالها قليلا ، فلا
يكاد يعلق نظري بأول زهرة يروقني منظرها من بين أزهارها
حتى أشعر كأنني أنتقل من هذا العالم شيئا فشيئا الى عالم جميل
من عوالم الخيال فأتلغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق في غمار

السحب ، وتمرّ بي على ذلك ساعات طوال لأعود من بعدها الى
نفسى إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فاذا استفتتُ
وجدتني لأزال فى مكافئ ، ولا يزال نظرى عالقاً بتلك الزهرة
الجميلة التى وقف عليها

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف
تضطرم فيه اضطراماً فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقرب القلوب
من القلوب ، وتمتلئ الحقائق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق
زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ،
أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجمل الساعات عندي تلك
الساعة التى أخلو فيها بنفسى فأناجيهها بهمومى وأحزاني ، وأذرف
من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التى تملج فى صدرى

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسى أننى أبكى على غير شئ ،
وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبى من الهموم والأشجان
ملا أعرف سبيله ولا مآتاه ، حتى يخيل الى أحياناً أن عارضاً
من عوارض الجنون قد خالط عقلى فيشتد خوفاً واضطراباً
إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء ،
لأنهم يعيشون بالامل ويحيون بالرجاء ، أما أنا فشقية لانى
لأعرف لى دواء فأعالجه ، ولا يوم شفاء فأرجوه

كل أسباب العيش حاضرة لدىّ ، وأبى لا يعرف له سعادة
في الحياة غير سعادتى ، ولا هناء غير هنائى ، ولا يعجبه منظر من
مناظر الجمال في العالم سوى أن يرانى باسمه ، ويرى أزهار حديقته
ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحياناً حتى تذبل أوراقها
وتموت زهراتها في سبيل قضاء مرافقى وحاجاتى ، فأنا إن شكوت
فإنما أشكو بطراً وأشراً وكفراناً بأنعم الله التى يُسبغها علىّ ،
ويُسديها إلىّ ، فغفرانك اللهمّ ورحمتك ، فانى ما اعترفت بحميلك ،
ولا أحسنت القيام بشكر أياديك

إنى لا أذكر ياسوزان تلك الايام التى قضيناها معاً ، وتلك
السعادة كنا نهرص أغصانها ، ونجنى ثمارها ، ونطير فى سماءها
بأجنحة من الآمال والاحلام ، فأنديها وأبكى عليها ، وأحن إليها
حينئذ الليل الى مطلع الفجر ، والجذب الى ديمة القطر

٣

من ادوار الى استيفن

الآن عرفت أنك لا تثق بى ولا تعتمد علىّ ، وأنتك لا تزال
تنظر إلىّ بالعين التى تنظر بها إلى أولئك الذين آثرت مغاضبتهم
والتبرم بهم من أفراد أسرتك ، فقد كتمت عنى ما كنت أرجو أن

تقضى به إلى من ذات نفسك فيما اعترمت عليه من رحلتك
 لأعرف ماذا تريد وأين تريد ولكننى لم أؤثر أن أنزل بك في الود
 الى المنزل الى نزلت بى اليها فلم أر بدءاً من أن أكتب اليك
 إننا نبتنا معاً يا استيفن في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة ،
 يغذونا ماء واحد ، وجو واحد ، ومازلنا كذلك حتى شبينا فاختلفنا
 كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منبتهما ثمرة وشكلا ، لذلك
 أنت تفر منى الفرار كله وتنقبض عني ، ولا ترانى أسلك فجاً من
 فجاج الارض إلا سلكت فجاً غيره ، لانك أصبحت تسعد بحياة
 غير التى أسعد بها ، وتمنأ بعيش غير الذى أهنا به ، وتطرب لنعمة
 غير التى تسمعها منى ، ولا تستطيع أن ترى فى وجهى تلك المرأة
 التى تحب أن ترى فيها صورتك واضحة جليلة لاغموض فيها
 ولا إبهام

إنك لا تبغضنى يا استيفن ، ولكنك لا تحب أن ترانى ،
 لانك تعلم أن لى فى الحياة رأياً غير رايك ، وطريقاً غير طريقك ،
 فأنت تخاف أن تسمع منى ما يفجئك فى تصوراتك وأحلامك ،
 ويكدر عليك لذائك التى تجدها فى العيش فى ذلك العالم الخيالى
 المظلم وتقنع بها فيه قناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح
 خيالاتهم السوداء

كن كما تشاء ، وعش كما تريد ، فستنقضى أيام شبابك ،
وستنقضى بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهناك تنزل من
سمائك التي تطير فيها إلى أرضي التي أسكنها ، فنتعاف بعد
التناكر ، ونتواصل بعد التقاطع ، ونلتقي كما كنا

لأبد أن نفرق اليوم لانتا غير متفقين ، ولا بد أن نجتمع
بعد اليوم لانتا ستنتفيق ، فلا بأس أن تكتب إليّ وأكتب إليك ،
وأن نتواصل على البعد إبقاءً على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظاً
بها ، ورعاية لها ، حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلو فيه عن نفسها ،
وتبرز من مكمنها

إن أهلك يعجبون لامرك كثيراً ، وبرون أنك قد مكرت
بهم ، وأضللتهم عن مقاصدك وأغراضك ، فسافرت خفية من حيث
لا يعلمون بأمرك ولا بنييتك التي اتويناها ، ويقولون إنك ماسافرت
على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك في الزواج من تلك
الفتاة التي أعدتها لك ، وعندي أنهم أصابوا فيما يقولون ، وأنك
مخطئ فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال
أكثر مما يتسع لأيام حياته ، ولقد كان لك في هذا الزواج من تلك
الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وهناك لولا أنك
شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعاً

أخوك يحبك كثيراً ، ولا يزال يحدثني عنك كما أحدثه ،
فأذكرنا كما نذكرك ، واكتب إلينا بكل شيء

٤

خواطر استيفن

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق إلا أن تنفرج لمة الظلام عن
جبين الفجر ، ولا أزال ساهراً قلق المضجع ، أطلب الراحة فلا
أجدها ، وأهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه

إن إدوار يسخر مني في كتابه ويهزأني ، وينذرني بيوم أرى
فيه أوهاماً كاذبة وأحلاماً باطلة ما كنت أحسبه أمانى وآمالاً ،
ويرى أن جميع ما أقدره لنفسى من سعادة في الحياة وهناء أشبه
شيء بالخيالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا
يسعدون بوجودها ، فلئن كان حقاً ما يقول فما أمر طعم العيش ،
وما أظلم وجه الحياة

لألا ، إن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا يعجز
عن أن يتممها باطفه وعنايته حتى تخرج ثمارها ، وتتلاًلاً
أزهارها ، وإن الذي أنبت في جناحي هذه القوادم والخوافي
لا يرضى أن يهيمضني ويتركني في مكاني كسيراً لا أنهض ولا أطيّر ،

وان الذى سلبنى كل ما يؤمل الآملون فى هذه الحياة من سرور
وغبطة ، ولم يُبق لى منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن
يقسوا على القسوة كلها فيسلبنى تلك الثمالة الباقية التى هى ملاك
عيشى ، وقوام حياتى

على أننى ما ذهبت بعيداً ، ولا طلبت مستحيلاً ، فكل ما أطمع
فيه من جمال هذا العالم وزخرفته رفيق أنس بقربه وجواره ، وأجد
لذة العيش فى الكون معه ، والسكون إليه ، وما الرجال كما يقولون
إلا أنصاف ماثلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع النساء ،
فلا يزال الرجل يشعر فى نفسه بذلك النقص الذى كان يشعر به
آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يعثر بالمرأة التى
خلقت له فيقرر قراره ، ويلقى عصاه

وبعد فأى مقدور من المقدورات تضيق به قوة الله وحيلته ،
وأى عقل من العقول الانسانية يستطيع أن يبدع فى تصوراتهِ
وتخيلاته الذهنية فوق ما تبداع يد القدرة فى مصنوعاتِها وآثارها ،
وهل الصور والخيالات التى تمتلئ بها أذهاننا وتموج بها
عقولنا إلا رسوماً ضئيلة لحقائق هذا الكون وبدائعه ، ولو أن
سامعاً سمع وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند
نزوله ، أو جمال غابة من الغابات ، أو شموخ جبل من الاجبال ، ثم

رأى بعد ذلك عياناً ، ما كان يراه تصوراً وخيالاً ، لعلم أن جمال الكائنات ، فوق جمال التصورات ، وحقائق الموجودات ، فوق هوائف الخيالات ، لذلك أعتقد أنى ما تخيلت هذه السعادة التى أقدرها لنفسى إلا لأنها كائن من الكائنات الموجودة ، وأنها آتية لا ريب فيها

إن اليوم الذى أشعر فيه بخيبة مالى ، وانقطاع حبل رجلى ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتى ، فلا خير فى حياة يحياها المرء بغير قلب ، ولا خير فى قلب يحقق بغير حب

٥

الحب

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى «مولر» والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول متكئاً على فأسه فلم يردأ من أن يحياه فحياه بتحية حياً بأحسن منها ، ثم أراد أن يستمر أدراجة فرآه ينظر إليه نظرة المستوقف ، ورأى كأن كلاماً بتحير فى شذقيه فاستحيا أن يمضى لسبيله فوقف ، فقال له مولر : ما أجل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم يرد شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن

يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل أرابه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل الرجل عن حال ابنته شيئاً غريباً ، أو أمراً مريباً ، ثم استمر مولر في حديثه يقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدره على إلا تلك الرعدة التي أشعر أنها تتمشى في أعضائي ، فما أمر مذاق الشيخوخة وما أثقل مؤونتها . وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت لا أحفل بنكباء ولا رمضاء ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل يوم تبكير الغراب إلى قمم الجبال وشواطئ الانهار عادي الرأس حافي القدم أمرح وألعب وأتأثر طرائد الصيد في مسارحها وملاعبها ، فأصبحت ولم يبق لي من تلك الذكريات الا وقوفي في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها البيضاء كساء ألقى به هذه الرعدة ، وأمتع نظري برؤية الفتيات الصغيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة الثلجية ، وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال ان ماجدولين لم تنزل اليوم كعادتها فلعلها بخير ، قال نعم هي بخير ولكن ضيفاً من أقربائنا نزل بنا أمس فلم أرَ بداً من أن أكل إليها أمره والعناية به فتركتهما وذهبت لشأني ، وان كنت أعلم أن ماجدولين ليس في استطاعتها

الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها من الشمس تلك الخيوط
 البيضاء التي تنحدر إليها من نافذة غرفتها ، ثم ذهب في الحديث بعد
 ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما لكذلك إذ فتح باب المنزل ، وإذا
 ماجدولين واشميد مقبلان يحدثها فتتهلل ، وتحده فيبتسم ، وكأن
 منظرهما منظر عاشقين يتغازلان ، لأقربين يتسامران ، خفيل
 لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده غير مستحسن ولا
 مستعذب ، ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلوه بالنظر إلى بعض
 الزهرات ، وودّ لو وجد السبيل إلى الهرب منهما لولا أنهما اعترضتا
 طريقه فساما عليه فردّ ردّاً قاتراً ، ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى
 خيلة من الحمائل ، فما خطا فيها بعض خطوات حتى سمع الفتي
 يغرب في الضحك ، فاشك أنهما في شأنه ، وأنه قد أصبح موضوع
 هزئهما وسخريتهما ، وإنهما ما ضحكا إلا للعبث به والزراية عليه ،
 فأحس في قلبه بديب البغض لذلك الفتي ، وودّ يجمع الأثف لو وجد
 السبيل إلى منازلته في ميدان خصام يضربه فيه ضربة تهشم أنفه ،
 وتخضب الذي فيه عيناه ليُقنعه أنه ليس سخرية الساخر ، ولا
 أضحوكة الضاحك ، ثم عاد إلى نفسه يسألها عن السبب
 في انقباضه ووحشته ، وعن تلك الحال الغريبة التي ألمّت بفؤاده
 منذ الساعة ويقول : مالي ولهذا الفتي ، وبأى حق أحمل له بين

جنبي ما أحمل من الضغينة والموعدة ، فما أنا بعاشق للفتاة فأغار
منه عليها ، ولا هو بمزاحم لي على هوى فأبغضه فيه ، ولم يزل يسائل
نفسه أمثال هذه الاسئلة فلا تجيبه ، ويراجع عقله فلا يهديه ، حتى
عرف أنه لا يسمع خارج الخيمة صوتاً فبرز من مكانه فلم يرَ
أمامه أحداً ، فخرج من الخديقة هائماً على وجهه بين الغابات
والاحراش حتى أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته ،
وإنه ليرى أمام باب غرفة ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر
ما كان قد نسيه ، وعلم أنها تسمّر مع قريبها أرشميد ، وأنه لابد
أن يكون سعيداً بهذا الحديث وهذه الخلوة ، فنفس عليه ذلك ،
ولا ينفس الانسان على صاحبه شيئاً يكون في نظره حقيراً ، فترثت
في مشيته قليلاً حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لا يشعران
بموقفه ، فدنا منها وأنشأ يتسمع حديثهما فلم يفهم كلمة مما يقولان ،
ثم انقطعاً عن الحديث وأنشأت ماجدولين تغني غناءً شجياً قد
كان يكون عذباً لذيداً في نفس استيفن لولا أن أذنًا أخرى
غير أذنه تراجعه على سماعه ، ثم انقطع الغناء أيضاً فسمع خفق
نعال تتقدم نحو الباب فابتعد عن مكانه حتى خرج الفتى وخرجت
ماجدولين وراءه تشيعه في غلالة رقيقة بيضاء لا تلبسها الفتاة إلا
بين يدي عشيقها أو من لا تحتشمه من ذوى قرباها ، فرأى

في وجهها صورة جديدة غير التي كان يراها من قبل، وأحس في نفسه
 بشيء غير الذي كان يحس به عند رؤيتها، ثم عادت إلى الغرفة
 وأغلقت الباب وراءها، فعاد إلى موقفه الأول، وما زال راكعاً أمام
 بابها حتى مشت جذوة النهار في خمة الليل، فصعد إلى غرفته وقد
 علم أن الذي قام بنفسه منذ اليوم ليس الهذيان ولا الجنون، ولا
 الوسواس ولا حرارة الحمى، كما كان يظن، وإنما هو الحب

٦

الدعوة

دخل مولر على ابنته ذات يوم فقال يا بنية اني دعوت اليوم
 جارنا الذي يسكن في الغرفة العليا من منزلنا الى العشاء عندنا
 في الساعة السابعة فأعدتى له الطعام واعلمى أنك ستغنيننا
 في هذه الليلة فقد وعدته بذلك، ولقد لقيت من كرم هذا الفتي
 وعلو همته وشدة عارضته وكثرة ذكائه وسعة علمه بالثبات
 وطبائعه ما حبيبه إلى، وأثر له من نفسى المنزلة العليا، ولا بد أن
 آتخذه صديقاً، وأن تكون تلك الدعوة فاتحة تلك الصداقة، ثم
 تركها وخرج الى الحديقة وظلّ مشغولاً بشأنه فيها حتى ماتت
 الشمس الى مغربها فعاد إلى المنزل وجلس الى نافذة غرفته المطلّة

على الحديقة ينتظر ضيفه ، وإنه لكذلك إذ رآه خارجاً من باب الحديقة يعدو عدواً شديداً وفي يده رسالة مفضوضة فهتف بابنته يقول يا ماجدولين ما أحسب إلا أن جارتنا قد حيل بينه وبين الوفاء بوعده فقد رأيته الساعة خارجاً يعدو من باب الحديقة ثم رأيته قد سلك تلك الطريق التي لا ينتهي فيها السائر إلى غرض إلا بعد سفر عشرة أميال ، فقالت لا بد أن يكون قد عرض له شأن ما كان يقدره في نفسه ، فلا بد أن تنتظره حتى يعود ، ثم جلسا صامتين ، هذا يدخن لفافته ، وتلك تخطط ثوبها ، حتى علما أنه لن يعود ، فقاما إلى العشاء ثم إلى المنام

٧

الزيارة

جلس مولر إلى ابنته فنظر نظرة في النجوم وقال : ما أحسب إلا أن السماء ستمطرنا في هذه الليلة مطراً غزيراً يبلل هذه التربة الظامئة ، ويملا هذه البقاع الجرداء ، فما أجمل الربيع وما أجمل غيوته المنهلة ، وما أجمل أرضه بعد أن يكسوها الغمام من نسج يده تلك الغلائل الخضراء ، فقالت ماجدولين لا تنس يا أبت أن كثيراً من ضعفاء السابلة وطرائد الليل يعانون في مثل هذه الليلة

(٣ — ماجدولين)

الماطرة من تدفق الغيوت فوق رؤوسهم واعتراض الوحول
 في طريقهم وبعْد الشُّقة عليهم مالا طاقة لهم باحتماله ، فوارحتاه لهم
 إن الشقاء كامن لهم في كل شيء حتى في الشؤون التي يسعد بها
 غيرهم ، فاكْتأب مولر وقال نعم يا ماجدولين إنهم أشقياء بؤساء
 ولا بد أن يكون استيفن واحداً منهم ، فقد مرّ الهزيع الأول
 من الليل ولم يعد إلى المنزل حتى الساعة بعد ماقضى ليلة أمس
 خارجه ، فأخذت هذه الكلمة مكانها من نفس ماجدولين ،
 فأطرقت برأسها تقلب صحائف كتابها ولا تقرأ منه شيئاً ،
 وإنهما لكذلك إذا طارق يخفق الباب خفقا ضعيفا ، فاضطربت
 ماجدولين ودهش مولر وقامت جنيفاف إلى الباب ففتحتة فإذا
 استيفن مائل بعقبته ، فاستأذن ودخل وهو يقول عفواً ياسيدي
 إن كنت ترى أنني لم أف لك بوعدي فقد أرسل إلى أخي
 كتاباً يدعوني فيه إلى مقابلاته على الحدود لتوديعه قبل سفره إلى
 الحرب ، فأعجلني كتابه عن كل شيء حتى عن الاعتذار إليك
 فشيت إليه عشرة أميال لا أريته ولا أتد حتى بلغته ، فودعته
 وداعاً جمع بين السرور له والحزن عليه ، أما السرور فلا تني
 رأيته فرحاً مغتبطاً برحلته يغني أنشودة الحرب مرة ، ويلاعب
 جواده أخرى ، ويمشي مشية الخيلاء بين ريش قبعته ومائل سيفه ،

وأما الحزن فلأني أخاف أن يسبقني القدر إليه فيحول بيني وبينه ،
فأصبح في هذه الحياة غريباً منفرداً ، لا أجد بين هذه القلوب
الخافقة حولي قلباً يحزن حزني ، ولا بين هذه العيون الناضرة إلى
عيننا تبكي لبكائي ، وهنا ذرقت من عينه دموع كادت تبكي لها
ماجدولين ، ولكنها لم تفعل حياءً وخجلاً ، وألقت عليه نظرة
عطف ورحمة من حيث لا يشعر ، حتى إذا التفت إليها استردت
نظرها وألقتها على صفحة كتابها ، فقال له مولر لا تجزع يا بني
فإن الله أرحم بك من أخيك وأرحم بأخيك من نفسه ، ثم أخذ
بيده إلى مائدة الشاي وجلسا يشربان معاً وأنشأ مولر يحدث
صاحبه عن الشاي ومغرسه ومنبته وأعواده وأوراقه وأنواعه
وألوانه وطريقة طبخه وأصل كلمته ومصدر اشتقاقها وآراء علماء
النبات في ذلك وردود بعضهم على بعض وردوده هو عليهم جميعاً ،
وما زال يثر في ذلك ويسهب ظاناً أن استيفن حاضر معه واستيفن
عنه في شغل بما يختلس من نظرات ماجدولين وما تختلس من
نظراته حتى فرغا من شأنهما ، فاقترح مولر على ابنته أن تغني لهما
صوتاً فأنشأت تغنيه بنغمة تخالطها رعدة الخائف أو رنة
الحزون ، فما أنت عليه حتى طرب له استيفن طرباً ملك عليه
قلبه وأحاط بعواطفه ومشاعره ، وشعر كأن الفضاء يدور به ، وكأن

قد بُدلت الأرضُ غيرَ الأرض والسموات ، ثم خاف أن يتمد به شوطه إلى أبعد من ذلك فتناهض للقيام فشى معه مولر إلى الباب يشيعه ويقول زرنانيا استيفن كلما بدالك أن تفعل ، فما دون مزارك بابٌ موصد ، فانصرفَ بقلب غير قلبه ، وعقل غير عقله ، وحال بين جنبيه غريبة لا عهد له بمثله من قبل

٨

المرأة

قضت ماجدواين ليلتها راكعة في معبدها مستغرقة في صلاتها تدعو الله تعالى أن يعينها على أمرها ، وينير لها ظلمة هذه الحياة الجديدة التي بدأت تسير فيها ، وقد أَلَمَّتْ بنفسها في تلك الساعة عاطفة غريبة متنوعة الألوان ، مختلفة الأشكال ، كأنما هي مزيج من الحب والخوف ، والسرور والحزن والأمل الواسع ، والرجاء الخائب ، فكانت تبتسم مرة حتى تلمع ثنابها ، وتبكي أخرى حتى يبتل رداؤها ، ولا تعلم ما الذي أضحكها ، ولا ما الذي أبكها ، ولم تزل على حالها تلك حتى حلق طائر السكرى فوق أجفانها ، فاضطجعت في مُصلاها ، وأسامت نفسها إلى خالقها أما استيفن فقضى ليله جالساً إلى نافذة غرفته يقلب وجهه

في السماء كأنما هو يساهر كواكبها ونجومها ، ويُفَضِّي إليها بما أَلَمَ
 بنفسه في تلك الساعة من سرور وغبطة ، وما كان سروره إلا
 لأنه أصبح يشعر في نفسه ببرد الراحة من البحث عن ضالة غرام
 ظلَّ ينشدها ويتعلق بآثارها عهداً طويلاً حتى وجدها ، وأنَّ نفسه
 التي كانت حبيسة بين جنبيه قد أشرقت عليها شمسُ الحب
 فانتعشت ورفرفت بجناحيها في الفضاء ، فأنشأ يحدث نفسه
 ويقول . أحمذك اللهم فقد ظفرتُ بالحياة التي كنت أقدرها
 لنفسى ، ووجدت المرأة التي كنت أصورها في مخيلتى ، وما
 المرأة إلا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة على هذا
 الكون فتتبرقظ ظلمته ، والبريد الذي يحمل على يده نعمة الخالق إلى
 المخلوق ، والهواء المتردد الذي يهب الإنسان حياته وقوته ،
 والمعراج الذي تعرج عليه النفوس من المَلَأ الأدنى إلى المَلَأ
 الأعلى ، والرسول الإلهي الذي يطالع المؤمن في وجهه جمال الله
 وجلاله ، وفي وجهه هذه الفتاة التي عثرتُ بها اليومَ فقد عثرتُ بحياتي
 وسعادتي ، وبقيني وإيماني

وكان يخيل إليه وهو يحدث نفسه بهذا الحديث أن الحب
 الذي ملأ قلبه قد فاض عنه إلى جميع الكائنات التي يراها بين
 يديه ، فكأن يرى في صفحة السماء صورة الحب ، ويسمع في حفيف

الأشجار صوت الحب ، ويستروح في النسيم المترقق رائحة الحب ، ويرى في كل ذرة ثغراً باسماء ، وفي كل نائمة عوداً ناعماً ولم يزل يهتف بهذه التصورات حتى انحدر برقع الليل عن وجه الصباح فجمع في مرقده قليلاً ثم قام فنزل إلى الحديقة يترقب نزول ماجدولين إلى متنزّها فلم تنزل حتى أخذت الشمس مكانها من كبد السماء فراه من أمرها ماراً به فلم يربداً من زيارة مول فشى إلى المنزل بقدم مضطربة وقلب خفاق حتى بلغ الباب فقرعه ، ثم شعر أن شعبة من شعب قلبه قد سقطت بين أضلاعه ، وأن لسانه قد التوى عليه فأصبح لا ينطق ولا يبين ، فقدم على أن لم يكن قد سلك سبيلاً غير تلك السبيل ، وتمنى لو فترت الخادم قليلاً في خطواتها إليه حتى يستجمع رويته وأناة ، ويسترد إليه ماتفرق من شمله ، فكان له ماتناه ، ولم تفتح جنيف الباب إلا بعد فراغها من شأن كان لها ، فسألها أين مول ؟ فشت أمامه إلى قاعة الاضياف ثم تركته وذهبت لتخبر سيدها بمكانه ، وكان يقرأ في قاعة الكتب ، فلما خلا استيقظ بنفسه أخذ يدور بعينه في جوانب الغرفة فرأى على مقربة منه باباً مفتوحاً يلوح من ورائه سرير قائم ، فعلم أنه مخدع ماجدولين ، فتسمع فلم يربداً فهاجته الشوق إلى اقتحامه ففتحته ، وهو يعلم أنها المخاطرة بعينها ، ولكنه كان على حال لا ينتفع

فيها بما يعلم ، فدخل واقترب من السرير فوجد الفراش لا يزال مشعّثاً ، ومكان رأس ماجدولين من الوسادة لا يزال منخفضاً ، ورأى بين يدي السرير حوضاً مملوئاً ماء ، وإلى جانبه كرسي قد انتشر فوقه رداء مبتل ، ثم نظر إلى الأرض فرأى بللاً يمثّل أقداماً صغيرة ، فعلم إن في هذا السرير كانت ماجدولين نائمة ، وفي هذا الماء كانت تبرّد وبهذا الرداء كانت تلمسح ، وعلى هذه الأرض كانت تتنقل ، فجمد في مكانه جمود الصنم في هيكله ، وأخذ يقول في نفسه : لقد سعد السرير الذي لامسها ، والرداء الذي ضمنها ، والأرض التي لثمت أقدامها ، والماء الذي انحدر على جسمها ، ثم مشى إلى الرداء المنتشر فأخذ يلثمه كما يلثم العابد المتشدد ستائر معبده ، ونهافت على الأرض يقبل آثار تلك الأقدام ، ثم خيل إليه أنه يسمع من ورائه صوتاً فرجع إلى نفسه وعاد منفثلاً إلى مكانه الأول ، فابث إلا قليلاً حتى دخل عليه مولر فياه وقال له عفواً يا استيفن فقد شغلني عنك أنى كنت أفتش في قواميس اللغة عن أصول أعلام نباتية مازلت مَعْنياً بأمرها منذ اليوم ، فهل لك أن تكون عوناً لى عليها على شرط أن لا تفارق منزلي قبل الغداء ، فابتسم استيفن ابتسامة الرضا والقبول ، لأنه علم أنه سيقضى وقتاً طويلاً في منزل ماجدولين ، ثم ذهباً معاً إلى قاعة

الكتب فلما أخذنا مكانهما منها أنشأ مولر يسرد على صاحبه تلك الأعلام التي يقول إنها تشغله ويشرح له مدلولاتها وما رآه علماء النبات في مصادر اشتقاقها وما بدا له من المآخذ عليهم ، فإذا ورد في كلامه اسم كتاب قام إلى خزانة الكتب واستخرجه وتصفح أوراقه حتى يجد الكلمة التي يريد فَيَتْلُوها بنغمة الهازي الساخر ، ويقول : هكذا يرى الأستاذ فلان ، أما أنا فأرى غير ما يراه ، وماذا على إن بدالي غير ما بداله ، فالعلم ليس وقفاً على المؤلفين والمدونين وإنما هو قرع الحجة بالحجة ودفع الرأي بالرأي وما زال يهدير في حديثه هدير الجمل الخشوش واستيقظ لاهٍ عنه يردّ النظر إلى باب القاعة من حين إلى حين علّه يرى ماجدولين داخلة فقال له مولر أراك تنظر إلى الباب كثيراً كأنك تخاف أن يلج علينا الغرفة والج فيكدر علينا خلوتنا فاعلم أنه ما من أحد في هذا المنزل يستطيع أن يخالف أمرى ويقتحم على باب قاعتي من غير إذن ، وهنا صاحبت الخادم تدعوه إلى الغداء فلم يقطع حديثه فصاحت به مرة أخرى فنهض متثاقلاً ومشى متباطئاً لا يقطع حديثه حتى وصلا إلى غرفة الطعام فراع استيقظ أنه لم يرَ حول المائدة غير مقعدين ، فعلم أن أحدهما له : وأن الآخر لا يمكن أن يكون لأحد غير مولر ، فوجه

وجوم الحزين المكتئب، واستمرَّ يأكل صامتاً لا يتحدث ولا يصغى إلى حديث حتى فرغاً، فقال له مولر لقد أراد الله بى خيراً إذ أرسلك إلىّ فى هذا اليوم فقد كدت لا أجدلى فى هذه الوحدة مؤنساً، ولا على هذه المائدة رفيقاً، فإن ابنتى سافرت منذ الصباح لزيارة إحدى صواحبها ولا أحسبها راجعة قبل المساء، فهل لك أن تنزل الحديقة لترتاض فيها قليلاً؛ فنزلاً، فما أمعنا فيها إلا قليلاً حتى سمع مولر صوت الخادم تصيح به من النافذة أن قد عادت سيدتها، فدَّ يده إلى استيفن مودّعاً وتركه مكانه حائراً مشدوهاً وليس وراء ما به من الهم غاية

٩

الحيرة

كان من أمر استيفن بعد ذلك أنه كلما رأى ماجدولين فى الحديقة فرَّ من وجهها، وسلك طريقاً غير طريقه، ليخلو بنفسه لحظةً يصور فيها الموقف الذى يقفه بين يديها، والتحية التى يحمل به أن يحياها بها، فلا يصل إلى ما يريد من ذلك حتى يراها راجعة أدراجها إلى المنزل، فكان يحمل فى سبيل ذلك من الهم ما يقلق مضجعه، ويطيل سهره، ويحول بينه وبين قراره، فلا يرى بداً من (٤ — ماجدولين)

الفرار بنفسه إلى الغابات والأجاث ، والهيام على وجهه في قم
الجبال ، وعلى ضفاف الأنهار ، ليرّوح عن نفسه بعض ما ألمّ بها ،
واستمرّ على ذلك أياماً طويلاً لا يمشي في الحديقة ، ولا يرى
ماجدولين ، ولا يزور مولر ، حتى تَلَفَتْ نفسه ، وذهب به اليأس
كل مذهب فعاد يوماً من بعض مذاهبه مجوماً لا يكاد يماسك
ضعفاً واضطراباً فلزم غرفته أياماً يعالج من داء قلبه وداء جسمه
مالاً طاقة له باحتماله ، وكأن جنفياً قد أَلَمَّتْ بِجَمَلَةِ حاله
فكشفت بها سيدها فصعد إلى غرفته ليعوده فرآه مستيقظاً
بعض الاستفاقة فسأله عما به فأتجمل له عذراً فجلس إليه يحادثه
ساعة ، فلما أراد القيام مدّ استيفن يده إلى طاقة بنفسج كانت
في آنية إلى جانب وسادته وقال له إني جمعت هذه الطاقة لماجدولين
لأنني أعلم ولعها بالغريب المستطرف من الزهر ، فلعلك تنوب
عني في تقديمها إليها ، فأخذها مولر شاكراً وانصرف

ومرت بعد ذلك أيام كان فيها استيفن بين يأس الحياة
ورجائها ، حتى أدركته رحمة الله فأبل من مرضه ، فنزل إلى الحديقة
وقد استقر في نفسه العزم على ألا يفتر من وجه ماجدولين إذا
رآها وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها ، وينفض لها جملة حاله ،
ولم ينشب أن رآها مقبلة عليه وجهاً لوجه ، فلم ير سبيلاً للفرار من

بين يديها ، خياها خيته ، ثم أغضى فأغضت ، فلم يربداً من
المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المعيب ، فاستنصر قوته
وتجمع تجمع من يريد الوثوب فوق هوة عميقة ، وأراد أن يقول
شيئاً فسمعها تتكلم ، فاستفاق وحمد الله على أن كفاه تلك المؤونة ،
فقالت أراك ياسيدي شاحب اللون خائر النفس ، فملك عاجلت
من مرضك هذا غناء كبيراً ، قال نعم ، قالت أشكر لك ياسيدي
هديتك الثمينة التي بعثت بها إلي ، ولقد أعجبنى منها أن تلك الزهرة
هي أحب الزهور إلي ، فكأنما ألهمت ما في نفسي ، وإني أعجب
أشعرائنا في إغفالهم ذكر هذه الزهرة في أشعارهم كما ذكروا
غيرها مما لا يقوم مقامها ، ولا يكافئها في حسنها وروائها ، ولا
أذكر أنني قرأت لأحد منهم شعراً فيها إلا قطعة صغيرة لشاعرنا
جيتي ، وهنا وجد استيفن متسعاً في الحديث عن الشعر والشعراء ،
والنبات والزهر ، فاستمر يحادثها ساعة حتى حان وقت رجوعها
فودعته وانصرفت ، فصعد إلى غرفته وقد عزم أن يرأسها فيما
عجز عن مفاتها فيه

من سوزان الى ماجدولين

كننا على أن نزورك في قرينتك ياما جدولين أنا ووالدي
لحدث حادث حال بيننا وبين ذلك ، دعانا أحد الأصدقاء لزيارته
في بلدته وهي على بعد ثلاثة فراسخ من قرينتنا ولا تبعد عن قرينتك
إلا قليلاً ، فذهبنا إليه صبيحة يوم وقضينا في منزله عدة ساعات
حتى إذا زلقت الشمس عن كبد السماء خرج القوم إلى الخلاء للتبرز
في غاباته وأجانه ، وأنت تعلمين فيما تعلمين من أمرى أننى لا أجد
في نفسى تلك اللذة التى يجدها الشعراء المتخيلون في جمال الطبيعة
وحسنها ، وبهجتها وروائها ، ولا أغتبط بما يغتبطون به من منظر
الغابات والأحراش ، والجبال والآكام ، ولا أظرب لخريف الماء ،
ودوى الريح ، وهزيم الرعد ، وحرارة الشمس ، ووعث الطريق ،
وخشونة الأرض ، واقتحام الصخور ، والتعثر بين أغوار الفلاة
وأنجادها ، كما يطربون ، ولكننى لم أربداً من مصانعتهم
ومجاملتهم فشيت صامتة ومشوا يتحدثون بجمال الحياة القروية ،
ويتمددحون بعيش العزلة بين سكون الطبيعة وهدوءها ، وجمال
الكائنات وجلالها ، والله يعلم أنه ما من أحد منهم يعلم من نفسه

أنه صادق فيما يقول ، أو أنه يتمنى لنفسه ذلك الشقاء الذي يحسد
الأسقياء عليه ، فكان مثلهم في ذلك كمثل أولئك الكتاب
المرائين الذين يكتبون الفصول الطوال في مدح الفلاح ، والتنويه
بذكره ، والثناء على يده البيضاء في خدمة المجتمع الانساني ، حتى
إذا مر ذلك المسكين بأحدهم وأراد أن يمد يده لمصاحفته تراجع
وكف كف يده ضناً بها أن تلوثها بأقذارها تلك اليد السوداء

ومازلنا كذلك حتى بلغنا شاطئ النهر فراعنا أن نأرأينا هنالك
جمعاً عظيماً من الناس يتدفّع فوق الشاطئ الآخر تدفع الموج
المتراكب ، ويشير إلى الماء بأصابعه وينادى الغريق الغريق ؛
والنجدة النجدة ، فالتفتنا حيث أشاروا ، فإذا رجل بين معترك
الأمواج يصارع الموت والموت يصصرعه ، ويغالب القضاء
والقضاء يغلبه ، يطفو تارة فيمد يده إلى الناس فلا يجد يداً تمتد
إليه ، ويرسب أخرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فتحسبه من
الهالكين ، وما زال يتخبط ويتشبث ، ويظهر ثم يختفي ، ويتحرك ثم
يسكن ، حتى كل ساعده ، ووهت قوته ، وابيضت عيناه ، واستحال
أديمه ، ولم يبق أمام أعيننا منه إلا رأس يضطرب ، ويد تحتلج ، فبكى
الباكون ، وأعول المعولون ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض كأنما
يتساءلون عن رجل رحيم ، أو شهيم كريم ، وإنهم لسكذلك إذا

رجل عار يدفع الجمع بمنكيه ، وينزلق بين الناس انزلاق السهم
إلى الرمية ، حتى ألقى بنفسه في النهر وسبح حيث هبط الغريق
فهبط وراءه ، وماهى إلا نظرة والتفاتة أن انفرج الماء عنهما فاذا هما
صاعدان ، وقد أمسك الرجل بذراع الغريق ، فكبر الناس إعجاباً بهم
المخلص ، وفرحاً بنجاة المسكين ، ولسكنا ما كدنا نستفيق من هذا
المنظر المحزن حتى راعنا منظر آخر أجل منه وقمماً وأعظم هولاً
فقد رأينا الغريق كأنما جن جنونه ، فظن أن مخلصه يريد به شراً ،
وأنه ما أمسك بذراعه إلا وهو يريد أن يهوى به إلى قاع الماء
فيعيد سيرته الأولى ، فأفلت منه وضربه بجُمع يده في صدره
ضربة شديدة ، ثم أنشب أظافره في عنقه ولفه بساقيه لفةً خلنا أن
عظامه تن لها أينما ، فاستياأس الرجل وعلم أنه هالك ما من ذلك بُدُّ ،
فرفع يديه إلى السماء وهتف باسم أظنه اسمك يا ماجدواين ، فلم أفهم
ماذا يريد ، ولا من هى تلك التى يريد ، ثم ما لبث أن هوى الماء بهما ،
وجرى مجراه فوقهما ، تخفقت القلوب ، وجفت الصدور ، وخفت
الأصوات ، وامتدت الأعناق ، وتواثبت الأحشاء ، وتزايلت
الأعضاء ، ومشى اليأس في الرجاء ، مشى الظلال في الأضواء ،
ومرت على ذلك دقائق لا تضطرب فيها موجة ، ولا تهب نسمة ،
ففرغت إلى أبى ذاهلة حائرة وقلت أيتعذب الفرق كثيراً

في مصارعة الموت ؟ فبكى لبيكائي ، وقال نعم يا بنية ، ولقد يبلغ الأمر
ببعضهم أن يدور بيده في قاع الماء يفتش عن حجر يضرب به
رأسه ضربة قاضية يستريح بها من الآلام والأوجاع ، فركت
على كتيب من الرمل ورفعت إلى السماء يدي وقلت : اللهم انك
أعدل من أن تجازي بالإحسان سوءاً ، وبالخير شرراً ، فلقد أبلى هذا
الرجل في انقاذ هذا الغريق بلائاً حسناً ، وبذل في سبيل ذلك من
ذات نفسه ما ضنّ به الناس جميعاً ، فامدد يدك البيضاء التي
طالما مدتها لانقاذ البائسين ، واكشف عنه كربته التي يعالجها
انك أرحم الراحمين

ثم استغرقت في دعائي ، فلم أعد أشعر بشيء مما حولي ، حتى
سمعت ضجة على الشاطئ فاستفقت ، فإذا النهر يتثاءب عن الرجل ،
وإذا الرجل صاعد وحده حتى بلغ سطح الماء ، فهتف به الناس
أن أنج بنفسك فقد أبليت ، فأبى عليه كرمه ووفؤه أن يكون
قاسياً أو منتقماً ، فألقى بنفسه في الماء مرة أخرى ، وعاد بالغريق يحمله
على كتفه ، وما زال يسبح به حتى بلغ الشاطئ فسقطا جميعاً ،
فتولى القوم أمرهما ، ومازالوا بهما حتى أفقا ، فشى الغريق إلى مخلصه
بعد ما ألمّ بقصته معه يتوجع له ويمسحه ، ويشكر له يده عنده ،
ويعتذر له عن ذنبه إليه ، ثم انفض الجمع ، وبقى الرجل وحده فلبس

ثيابه ثم مشى يتحامل على نفسه إلى شجرات بنفسج كنّ على الشاطئ فأخذ يقتطف من زهراتها ويضعها في منطقتة ، كأنما يريد أن يتخذ منها طاقة يجعلها لتلك الحادثة تذكّاراً ، فتركناه على حاله ، وعدنا إلى المنزل صامتين محزونين ، وقد فاتنا ما كنا نؤمل من زيارتك في ذلك اليوم

لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا ، فقد أصبحت لا أذكر تلك الحادثة إلا وأجد لذكرها من الألم في نفسي ما يحثّل إلى أنها حاضرة بين يديّ ، وربما كتبت إليك فيما بعد ، والسلام

١١

المكاشفة

مال ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، ودب الظلام في الأضواء ، ديب البغضاء في الأحشاء ، وسكن كل صوت إلا صوت العصافير المزدهجة على أبواب أعشاشها ، وجلس استيفن في الحديقة تحت أشجار الزيزفون يترقب نزول ماجدولين ، وقد كتب لها كتاباً نطق فيه قلمه بما عجز عنه لسانه ، فنشره بين يديه وأنشأ يقلب نظره فيه ، نخيل إليه أنه غير مستعذب ولا سائغ ، وأن في كل جملة من جملة موضع ضعف ، فاستقر رأيه على أن يطويه

حتى يكتب لها خيراً منه ، ثم رآها مقبلة نحوه تحمل في يدها كتاباً ، فلما دنت منه ابتسمت له وقالت له أتذكر ياسيدي مكان الشجرات التي اقتطفت منها زهرات البنفسج التي أهديتها إليّ ، فاضطرب لسؤالها وقال نعم انها على ضفة نهر صغير يبعد عنا فرسخاً أو فرسخين ، قالت اقرأ هذا الكتاب فان لك فيه ذكراً ، فأخذ منها كتاب سوزان في حادثة الفرق وأمره نظره عليه إمراراً فعرف كل شيء ، فردّه اليها صامتاً وهو لا يدري ماذا يقول ، فقالت إنك تكتم عني نفسك يا استيفن ، فقد عرفتُك وعرفت يدك البيضاء في حادثة الفرق وبلاءك فيها وما عالجت من آلام الحمى على أثرها ، ثم مدت يدها اليه مصافحة ، فلم يكن بين تلامس كفيهما ، وخفوق قلبيهما ، إلا كما يكون بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها ، ولبثا بعد ذلك ساعة صامتتين لا ينطقان إلا أن في الجبين لغة لا تقرأها إلا العيون ، فقرأ استيفن في وجه ماجدولين لوحة الحب ، وألم الحزن ، واضطراب الجأش ، وحيرة النفس ، وقرأت في وجهه الحب والسعادة والدهشة والسرور المتلائي والدمع المترقق ، فهاجها هذا المنظر فأرسلت من محاجرها أول دمعة من دموع الحب فبكى لبكائها ، وحنأ عليها حنو المرضعات على الفطيم ، وشعر في نفسه وقد ضمها اليه بتلك

العاطفة اللذيذة التي يجدها الغريب النائي عن أهله وجيرانه إذا
 لاقى في مطارح غربته غريباً مثله يأوى إليه ، ويحنو عليه ، ثم أخذ
 ييدها فألصقها بكبده كما يفعل المريض بيد عائده ليدله على موضع
 ألمه ، وكأنما هو يقول لها إن لغة اللسان لا تكشف لك عما
 اشتملت عليه أضالعي من الوجد بك ، والحنين إليك ، فلمسى
 قلبي بيدك لتعرفي مكنونه ، وتكشفي غامض سريره ، ثم خرَّ
 راکعاً بين يديها وقال ، أتحيينني يا ماجدولين ؟ فلم تجب ، فأعاد
 كلمته فاستمرت في صمتها ، فمد يده إليها ضارعا وقال : رحماك
 يا ماجدولين ، إنني أخاف أن أكون في حلم ، وأن تكون هذه
 السعادة التي أراها بين يدي خيالا من الخيالات الكاذبة التي
 كانت تترأى لي في أحلامي الماضية فأغبط بها وأسكن إليها حتى
 إذا ما استفتقت وجدت يدي صفرًا منها ، فأسمعيني كلمة الحب
 لأعلم أنك حاضرة لدي ، وأنني لست واهما ولا حالما

ومرَّت بهما على ذلك ساعة لا يعرف مكانها من نفسها
 إلا من مرت به في يوم من أيام شبابه ساعة مثلها ، فقد كانا
 يشعران أنهما في معزل عن العالم ، وأن مكانهما من تلك الحديقة
 في انفرادهما وسكونهما ، وهنأتهما وغبطتهما ، مكان آدم وحواء
 من جنتهما ، قبل أن يأكلا من الشجرة ويهبطا إلى الأرض ،

وأن روحهما قد تجردت عن جسمهما فطارت ترفرف باجنحتها
 في فضاء الملاء الأعلى، فرأت مدارات الشمس في أفلاكها، وحركات
 الكواكب في منازلها، ومررت بين صفوف الملائكة، وسمعت
 زجلها وتسبيحها تحت قوائم العرش، ودخلت جنة الخلد فرأت
 حورها وولدانها، ولؤلؤها ومرجانها، وروحها وربحانها، فلم
 يستفيقا من غمرتهما حتى سمعت ماجدولين صوت جنفياف
 تناديهما، فدت اليه يدها مودعة وهي تقول: غداً في مثل هذه
 الساعة في هذا المكان، قد يده اليها ذاهلاً لا يعلم ماذا يراد به، ثم
 مضت ومضى بنظراته على آثارها حتى اختفت آخر طية من طيات
 رداءها الأبيض، فجمد في مكانه ساعة لا يتحرك ولا يلتفت كأنما
 يتخيل أنها لا تزال جالسة بين يديه، فلما سمع خفق بابها دار بعينه
 حول نفسه يميناً ويسرة فعلم أنه جالس وحده

خرج استيفن بعد ذهاب ماجدولين هائماً على وجهه يعدو
 في عرض الفضاء ينحدر إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى، كأنما يريد
 أن يشهد الأرض والسماء، والبحار والأنهار، والجبال السماء،
 والسهول الفيحاء، والحيوان الناطق، والجماد الصامت، على سروره

وغبطته ، وكان يشعر في نفسه أن السعادة التي نالها هي فوق ما يحتمل طوقه ، فكان كلما مر بأحد من الناس حدثته نفسه أن يفضي إليه بقصته ليحمل عنه جزءاً من سعادته ، ومر بأطفال يلعبون فجمعهم حوله وأخذ يقبلهم واحداً بعد واحد ، ثم نثر عليهم كل مامعه من المال ، وبوده لو ملك مفاتيح الارزاق فأسبغ على الناس جميعاً أنعمه وآلاءه فجاء بؤسهم وشقاءهم ، وما زال يتغلغل في أحشاء الظلام متيامناً متياسراً ، صاعداً منحدرأً ، حتى رأى باب الحديقة مفتوحاً بين يديه فافتحمة ومشى إلى مكانه الاول فجلس فيه وأخذ ينظر إلى شعاع النور المنبعث من بين ستائر غرفة ماجدولين ، تخيل إليه أنه يرى قيامها وقعودها ، وجيئتها وذُهورها ، ويسمع حفيف ثوبها ، وخشخشة أوراق كتابها ، حتى انطفأ المصباح ، فصعد إلى غرفته وجلس الى مكتبه يكتب اليها كتاباً طويلاً ، ثم نال منه التعب فقام إلى سريره ونام نوماً هادئاً لذيداً حلم فيه أحلاماً ما رأى مثلاً بعد ليالى طفولته الجميلة

من استيفن الى ماجدولين

لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال ذلك المقام الذى قتته بين
يديك أمس ، ولا أزال ألمس صدرى بيدى لأعلم أين مكان قلبى
من أضاالى مخافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التى هى
كل ما يتمنى الخير أن يكون ، والتى لا أعتقد أن أبناء الخلود
يقدرّون لأنفسهم فى دار نعيمهم خيراً منها ، ولو أن لا مرئى أن
يعبد من يسدى اليه أفضل النعم وأسبغها ، وأجمعها لكل خير
وبرّ ، لوجدتني يا ماجدولين ساجداً بين يديك فى كل مطلع شمس
سجود العبد الشاكر للآله المنعم

ان الله لم يهبني نعمة الجمال التى وهبك ، ولم يحملني بمثل ما حملك
به من رقة الحس ، وعذوبة النفس ، فان أنت أحببتني فقد أحببت
فى مجرداً من مزايا الفتيان لا يستطيع أن يمت اليك بمثل ما تمنين
به اليه ، ولا أن ينيلك من السعادة ما نلتها منها ، فان كنت ترين
أن الاخلاص فى الحب ، والوفاء بالعهد ، وربة النفس هبة خالصة
بلا ندم ولا أسف ، مزية أستحق لها محبتك ، فهائذا أقدمها
بين يديك ، فتقبلها منى وقولى انك سعيدة بي ، كما أنا سعيد بك

قدّم استيفن كتابه الى ماجدولين يدا بيد فدهشت حينما
 رآته وألقت عليه نظرة الحائر المتردد، فنظر اليها استيفن نظرة
 المتوسل المستعطف، فتناولته منه وخبأته في ثنايا صدرها،
 وقالت أصحح يا استيفن ما حدثتني به سوزان في كتابها أن
 اسمي كان آخر كلمة هتفت بها في الساعة التي كنت تحسب أنها
 آخر ساعاتك في الحياة؛ قال نعم، ولقد نلت ببركة هذا الاسم
 ما كنت أقدر لنفسي من النجاة عند ما هتفت به، فقد علمت
 أن الله ما منحك هذه المنحة من الجمال، ولا جعلك بما جعلك به
 من محاسن الخلال، إلا وأنت آثر بنات حواء عنده،
 وأكرمهن عليه، فهو أضن بك من أن يجرح قلباً يخفق بمحبك،
 أو يخرس لساناً يهتف بكرك، فعذت باسمك في شدتي كما
 يعود المؤمن في شدته باسم الله، فكان لي خير معاذ وملاذ،
 قالت إنك قد لقيت في شدتك هذه عناء كثيراً ولقد كنت فيما
 فعلت من القوم الحسنين، قال ما كنت محسناً قبل اليوم، ولكنه
 الحب يملأ القلب رحمة وحناناً، ويصغر في عينيه عظام الأمور

وجلائلها ، ويوحى اليه أفضل الاعمال وأشرفها ، أما ما لقيتُ في ذلك اليوم فقد كان فوق ما يحتمل المحتمل ، فقد خيل إلى أننى أهوى فى منحدر لا أعرف له قرارا ، وأن جسمى يتفتح عن روحى تفتحاً فتملئ منه أملاسه الفرخ من بيضته ، فلماذا كرتك استروحتُ من ذكراك ما استروح يعقوبُ من قيص يوسف ، فلما نجوتُ علمتُ أنك سبب نجاتى ، فإى بلغت الشاطىء حتى جمعت تلك الزهرات ، فأرسلتها اليك تذكراً لتلك النعمة السابغة التى أسديتها إلى ، فدت يدها إلى صدرها وأخرجت منه طافة زنبق وقالت إن أبى قد جمع لى هذه الازهار صباح هذا اليوم فأنا أقدمها إليك رداً لتحييتك التى حييتنى بها . فتناولها منها ونثرها بين يديه وأخذ يؤلف بين أشاتها وينظمها فى سلك مستدير حتى صارت اكليلاً جميلاً فوضعه على رأسها ، وقال إن من يرى هذا الاكليل الزاهر فوق هذا الجبين الساطع لا يرى إلا أنه اكليل عرس على رأس عروس ، فأخذت كلمته هذه مأخذها من نفسها فأطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها فاذا دمعة رقراقة ترجح فى محجرها ، فقال لا تبكى يا ماجدولين ، فما فى قوى هذا العالم كلها قوة تستطيع أن تحول بينى وبينك ، قالت إنما أبكى خوفاً من الحب ، وما أنا إلا فتاة مسكينة منقطعة أشعر بالحيرة التى تشعر بها كل فتاة

لأُم لها ترشدها ، ولا ناصر لها يعينها ، قال ألا تعتقدين أن قلبك
نقى طاهر ، قالت ذلك ما اعتقده وأشهد الله عليه ، قال إذن فالله
هو الذى ينصرُك ويعينك ، وهو الذى يأخذ بيدك في حيرتك ،
وينير لك السبيل في ظلمات هذه الحياة ، لا تخافى من الحب
ياما جدولين ، ولا تخافى من غضب الله فيه ، واعلمى أن الله الذى خلق
الشمس وأودعها النور ، والزهرة وأودعها العطر ، والجسم
وأودعها الروح ، والعين وأودعها النور ، قد خلق القلب وأودعها
الحب ، وما يبارك الله شيئاً كما يبارك القلبين الطاهرين المتحابين ،
لانهما ما تحابا إلا إذعاناً لإرادته ، ولا تعاقدتا إلا أخذاً بسنته
في عباده ، فامددى إلى يدك ، وأقسم بما أقسم به أن نعيش
معاً ، فان قدّر لنا أن نفرق كان ذلك الفراق آخر عهدنا بالحياة ،
فمدت إليه يدها فتقاسما وتعاهدا ، وكانت الشمس قد انحدرت
إلى مغربها فافترقا

من استيفن الى ماجدولين

كتبت اليك كثيراً ، فلم تكتبي إلى كثيراً ولا قليلاً ، لانك
تعتقدين ما يعتقده كثير من النساء من أن المرأة التى تكتب إلى

حييها كتاب حب آئمة أو غير شريفة ؛ أما أنا فأعتقد أنها
إن لم تفعل فهي مرائية مصانعة ، لان المرأة التي وهبت قلبها هبة
خالصة لا يخالطها شك ولا ريبة لا ترى مانعاً يمنعها من أن
تكتب لحبيبها في غيبته ، بمثل ما تحده به في حضرته

إن الحيلة في الحب رأى تراه لنفسها المرأة البغي التي تتخذ
لها كل يوم حبيباً تقسم بين يديه بكل محرّجة من الأيمان أنها
ما فتحت باب قلبها لزائر قبله ، فهي تخاف أن تسجل بيدها على
نفسها في يومها ، ما يفسد عليها أمرها في غدها ، أما المرأة الشريفة
فما أغناها عن ذلك كله ، لأنها تحب فتخلص فتقول فتكتب
ما تقول

اكتبي الى يا ماجدولين فان الذى يستطيع أن يكتم سرّ
حديثك ، لا يعجز عن أن يكتم سرّ كتابك ، واعلمى أن رجلاً
غيرى ذلك الذى يتخذ من رسائلك سيفاً يجرده فوق عنقك إن بدا
لك فى الفرار منه رأى ، وأن فتاة غيرك تلك التى ترضى لنفسها
أن تهب قلبها إلى رجل يتجر بأسرار النساء

البحيرة

مضت على استيفن وماجدولين بعد ذلك أيام كانا يلتقيان فيها
في المنزل أو في الحديقة أو في الغابة أو على ضفة النهر ، وكثيراً
ما كان يجلسان بجانب شجرات البنفسج ويذكران حادثة النهر ،
وطاقة الزهر ، وأحياناً كانا ينزلان في زورق صغير يسيران به في
البحيرة ساعة أو ساعتين ثم يعودان

فنزلا في الزورق يوماً وكانت الشمس قد لبست ثوبها الثالث
ثم ما لبثت أن هوت الى مستقرها على أن ترسل من خلفها
سليها القمر الى هذا الوجود ليقوم عنها بحراسته حتى تعود
اليه ، فأمعنا في البحيرة وكانت هادئة ساكنة كصفحة
المرآة ، وكان النسيم بارداً رطباً يترقرق فيلامس الوجوه بخفة كما
تلامس يد الحسناء وجه حبيبها ، وقد سكن كل شيء الا صوت
قطرات الماء المنحدرة من المجاذيف الى البحيرة وتقيق الضفادع
من حين الى حين ، ثم هتلك القمر ستر الظلام وأرسل أشعته
الزرقاء الى الزورق والبحيرة والشاطئ وما وراء ذلك ، فكانا يريان
على ضوءه بعض الاشجار كأنها اشباح متحركة ، ويتخيلا أن

عيون الحشرات السارية بين لفائف الاعشاب شرر ينقذح ، فلذ
لها هذا المنظر البديع ، وذلك السكون العميق ، وتلك الوحدة
التي لا يكدرها عليهما مكدر ، وتركها الزورق يمشى بهما حيث يشاء ،
وينحدر كما يريد ، وأنشأ يتحدثان ، فقال استيفن انى أوثر
ياما جدولين أن يكون البيت الذى نسكنه فى المستقبل على شاطئ
بحيرة كهذه البحيرة ، وأن يكون لنا زورق أوسع من هذا الزورق
وأجل منه شكلا تقضى فيه الليالى المقمرة بين الرياضة والصيد
والاستحمام ، ولا بد أن يكون للمنزل حديقة صغيرة لغرس
بها ما نشاء من الكروم والاعناب ، والازهار والانوار ، وسأتولى
بنفسى غرس شجرات البنفسج لك ، وسأنشر على جدران الحديقة
والمنزل غلاثل رقيقة من الخضرة الياضمة ، أما المنزل فأرى أن
يكون مشتملا على طبقتين ، طبقة عليا يكون فيها أربع غرف ،
غرفة للأضياف ، وأخرى للمكتبة ، وأخرى للملابس ، وصمت
لحظة ، ثم قال أما الرابعة فهي التى تكون لى ولك ، فاحمرت ماجدولين
خجلا ثم قالت : لقد فأنك أن تذكر غرفتين أخريين ، إحداها
لأخيك ، والثانية لآبى ، قال نعم لقد فأننى ذلك فلا بد إذن أن
تكون الطبقة العليا مشتملة على ست غرف ، أما الطبقة السفلى
فتشتمل على قاعة الطعام ومخزن المؤونة وبيت الخدم والحمام إلى

ما يلحق ذلك من مرافق البيت وحاجاته ، قالت لقد فاتك أيضا أن الحديقة لا يحمل منظرها إلا إذا كان في وسطها حوض صغير يتدفق ماء غميرا ، قال نعم وسنتخذة لتربية الاسماك الملونة ، ولا يفوتنا أن نحوطه بسيياج عال من الاغصان المشتبكة وقاية لاطفالنا الصغار

فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفس ماجدولين ، واصفر لها وجهها ، ثم أطرقت برأسها طويلا ، فحنا عليها استيفن وسألها عما بها ، فرفعت رأسها فإذا هي تبكي ، فقال مابك يا ماجدولين ، قالت ان الدهر يا استيفن أضنُّ بالسعادة من أن يهبها كلها لشخص واحد ، وأخاف أن نكون كاذبين في آمالنا ، أو مخطئين في تصور مستقبلنا ، فليت الدهر إن كان يعلم أنه سيحول بيننا وبين سعادتنا في المستقبل ويكدر علينا صفو عيشنا بفاجعة من فواجعه أو نازلة من نوازله أن يمدَّ الينا يده في هذه الساعة فيستل حياتنا من يدي أجلنا لتخف في أفواهنا مرارة الموت ، قال لا تخافي يا ماجدولين ، فان سلطان الدهر لا يمتد يده الى مواقف الحب إلا اذا أراد المحبون أنفسهم أن يكون له هذا السلطان عليهم ، فكوني معي آخذ من حبك عدة أنازل بها حوادث الدهر وأرزاءه ، وأفسد عليه حوله وقوته ، فصمتت واجمة ، ثم ألقت نظرها على

البحيرة ومجرى الزورق منها وقالت . لو أن لأمري أن يتمنى لنفسه
ما يشاء لتمنيت أن يكون هذا الطريق الذى نسير فيه طريق
الابدية ، وأن يظل هذا الزورق مطرداً بنا فى مسيره لا يقف فى
طريقه شىء حتى يلج بنا أبواب السماء

ثم تنفست الصعداء وقالت حسبنا يا استيفن فقد أوشك
القمر أن يغيب ، وأنا لأحب أن أرى مغيبه ، لانى أخاف أن
تغرب سعادتنا بغروبه ، فنظر اليها واجماً مكتئباً كأنما دار بنفسه
ما دار بنفسها من المخاوف والاهام ، ثم قام الى المجاذيف يحركها
واضطجعت تحت قدميه ، وما زال حتى بلغا الشاطئ ، ثم مشيا
حتى بلغا المنزل ، فلما أرادا أن يفرقا أدنى يدها من فمه يحاول
أن يقبلها ، فأبت ، فقبلها فى جبينها ، فارتعدت ، وألقت عليه نظرة
عتب أخذت من نفسه مأخذها وانصرفت

١٧

من ماجدولين الى استيفن

ماذا صنعت يا إستيفن ؟ إنك سلبت الليلة الماضية راحتي
وسكوني ، فانى كلما تذكرت تلك القيلة التى وصمت بها جيبني
شعرت كأن ناراً مشتعلة تتأجج بين أضالعي ، وأن صحيفتي التى

لم تزل يبضاء حتى ليللة أمس قد أصبحت تضطرب في بياضها
 الناصع نقطة سوداء ، فأحاول أن أطردها من أمانى فأكون
 كالأرمد الذى يحاول أن يطرد الغشاوة السوداء عن عينيه فلا
 يستطيع ، لقد سكبت عيناى كثيرا من العبرات ، وتوسلت كثيرا
 إلى الله تعالى أن يغفر لى ذنبى ، ولا أدرى ما هو صانع بى ، ولا كيف
 أستطيع أن أقف بين يديه يوم الحساب بهذا الجبين المسود من
 الائم ، وهذا الوجه المحمر من الخجل ، لا أكتمك ياسيدى اننى
 لولا أن عزيت نفسى عن هذه النكبة بأنتك أخذت منى تلك
 القبله أخذاء ، ولم أمنحها لك منحة ، لقتلت نفسى بىدى ، لاتعد
 الى مثلها يا استيفن إلا اذا أردت أن ترائى يوما من الايام بين
 يدبك جثة هامدة

١٨

من استيفن الى ماجدولين

ما كنت أعلم قبل اليوم أن الفتاة التى تحب ، وتعاهد من
 تحب ، وتقسم بين يدى حبيبها بين الاخلاص والوفاء على أن
 تكون له كما يكون لها ، وألا تجعل ليد غير يد الموت سبيلا الى
 التفريق بينهما ، تستكثر عليه قبله شريفة يأخذها من جبينها كما

ياخذها الاخ من جبين أخته ، والمتعبد من يد كاهنه
ما أحسب إلا أنك قد خدعت نفسك بنفسك يا ماجدولين
حين ظننت أنك عاشقة ، وما أنت من الحب في شيء لأن الفتاة
التي تحب لا ترى بأسا في أن تمنح القبله لحبيبها منحة ، ولا
تنتظر أن يأخذها منها أخذاً

الآن عرفت أن بكاءك بين يدي ، واضطراب يدك في يدي ،
وخفوق قلبك عند رؤيتي ، إنما كان أثرًا من آثار الخوف لا مظهرًا
من مظاهر الحب ، وأن عطفك علي ، وتحبيك إلي ولصوفك بي ،
لم يكن لأنك كنت تحبيني ، بل لأن فتاة مسكينة ضعيفة مثلك
لا بد لها أن تشعر بالميل إلى كل رجل قوى يجانبها

تقولين لي إنك قضيت ليلك أمس معذبة لايها لك
مضجع ، ولا يغمض لك جفن ، أما أنا فأقول لك إنني لم أقض
في حياتي ليلة أهنا من تلك الليلة ، لأنني بت أنخيل تلك القبله
التي تناولتها من جبينك كأنها ثغر منضد يتسم إلى أرق ابتسام
وأعذبه ، فأشعر بروح الحب تدب في أعضائي ديب الحمياقي وجه
شاربها ، أما اليوم فاني أصبحت أنخيلها تمثالا جامداً من الحجر
الصلد ماثلا بين يدي لا يتحرك ولا ينطق

عفوًا يا ماجدولين ، فاني ما تناولت تلك القبله من جبينك إلا

وأنا أعتقد أني أقبل زوجتي ، لأنني لأرى فرقا بين عهد الإخلاص الذي يؤخذ بين يدي الحب ، وعقد الزواج الذي يعقد بين يدي الكاهن ، وأشكر لك تلك الساعات القليلة التي سمعت فيها على يدك ، وإن كانت سعادة موهومة ، ويمكنني أن أقول لك إنني ما نقصت حتى الساعة ذلك العهد الذي عاهدتك عليه ، وإنني لأزال أحبك كما كنت ، لأنني ما كنت أحببتك لاجازيك على حبِّ مثله ، ولا لأنك جميلة أو عاقلة أو ذكية ، ولا لشيء مما يحب الرجال له النساء ، بل أحببتك للحب نفسه والسلام

١٩

من ماجدولين الى استيفن

عفواً يا استيفن فما كنت أحسب أن كلمتي بالغة منك ما بلغت ، أو أنها ذاهبة بك هذه المذاهب كلها ، فاعفر لي ذنبي ، فوالله ما احتفظت بعرضي إلا لك ، ولا منعته نفسي اليوم إلا لأبذلها لك غداً ، أنت اليوم حبيبي ، وغداً تكون زوجي ، وكل ما صنعتُه أني توصلت إلى حبيبي أن يزفني طاهرة نقية إلى زوجي ، أما الخداع الذي تذكره في كتابك فأنا أعتقد أنك تعلم من أمري غير ما تقول ، ولكنك غضبتَ فقلتَ غير ما علمت

من مولر الى استيفن

أكتب إليك كتابي هذا ويدي ترتعد خجلاً ، ونفسي
تسيل حزناً ، لأنني ما كنت أقدر في نفسي أن ستمر بي ساعة من
ساعات حياتي أرى نفسي فيها مضطراً أن أقول لصديقي الذي
أجله وأُعظمه وأنزله من نفسي خير منزلة إنني لا أستطيع أن
أستقبلك في منزلي بعد اليوم ، بل لا أستطيع أن أحتمل بقاءك
في المنزل الذي أسكنه وتسكنه ابنتي ، لأن لي شرفاً أبقى عليه
أكثر مما أبقى على صداقة الأصدقاء ، على أنني أرجو ألا تزال
تعدني صديقك المخلص إليك ، كما اني لا أزال أعدك كذلك ، وإن
فرقت بيننا الأيام

حديث

جلست ماجدولين في غرفتها تخطط ثوباً لها ربما كانت تعده
لليلة عرسها فندرت إبرتها من يدها فرفعت رأسها فاذا أبوها مائل
بباب الغرفة فدهشت لمراه وراعاها منظر سكونه وجوده ، ثم
مشى إليها بقدم مطمئنة حتى وضع يده على عاتقها وقال : أتعلمين
(٧ — ماجدولين)

ياما جدولين أنى أرسلت جنفيا ف الساعة بكتاب الى استيفن
 أمنعه فيه من دخول بيتى ، بل أمنعه من البقاء فى منزلى ، قالت
 لأعلم من ذلك شيئا ، ولا أعرف لصنيعك هذا سببا ، قال لاسبب
 له إلا أنه يحبك ، قالت انه لا يحبنى ، ولكنه يحب أن يتزوج بى ،
 قال ذلك مالا أريد أن يكون ، قالت ولماذا ، قال لأنه لا يصلح
 أن يكون زوجا لك ، قالت أنا أعلم انك اتخذته لنفسك صديقا ،
 وانك تعرف له مكانه من الفضل والنبل ، فكيف ترضى أن
 تتخذ لنفسك صديقا من لا ترى انه يصلح أن يكون لابنتك
 زوجا ، قال إني أصادقه لأنه شخص كريم ، ولأحب أن أصادقه
 لأنه بائس فقير ، فقد عثرت اليوم بكتاب سقط منه فقراته
 فعرفت أنه لا يملك ما يقوت به نفسه ، فأحرى ألا يملك ما يقوت
 به أهله ، قالت إنك حدثتني عنه أنه فنى ذكى متعلم ، ومن كان هذا
 شأنه لا يكون بينه وبين الغنى إلا بضع جولات يحولها فى
 ميدان هذا العالم فيعود من بعدها رجلا غنيا ، وزوجا صالحا ، قال
 إن فى أخلاقه من الانفة والترفع ما يحول بينه وبين النجاح ،
 قالت ان الحب يقوّم ما اعوجج من الأخلاق ، ويحيى ميت الأمل
 فى نفس المحب ، فلا تطفى جمره الحب التى تشتعل فى قلبه ، فانك
 إن فعلت قتلته وقتلت أمله وأتلفت عليه حياته ، قال يا بنية انى

أعلم من أخلاق الناس وشؤونهم ما لا تعلمين ، وقد رأيت أنى
أكون مخاطراً بك وبمستقبلك وبكل ما أرجو لك من سعادة
فى العيش وهناء إن أنا رضيت لك هذا الزواج الذى أعلم أن
شره أكثر من خيره ، بل أعلم أنه شر كله لا خير فيه ، فانظرى
يا بنية فى أمر نفسك بعين غير عين الحب ، فانها دائماً حواء ،
واذكرى أن أباك الذى يحبك وينزلك من نفسه منزلة لا
يغلبك عليها غالب لا يمكن أن يكون غاشاً لك أو خادعاً ،
فركت بين يديه ومدت يدها إليه ضارعة وأنشأت تسترحمه
بالبكاء مرة ، والدعاء أخرى ، فكانت كأنها تستنبت الماء من
الصخر ، أو تستنبت الربيع فى المهمة القفر ، حتى وهت قوتها ،
فسقطت تحت قدميه فتركها مكانها ومضى لسبيله وهو يقول :
انك اليوم تجهلين ، وغداً تعلمين

٢٢

الخبر

دخلت جنيفاف على استيفن فى غرفته وقد جلس الى مصباح
ضعيف يترأ فى كتاب فأعطته كتاب سيدها ورجعت أدراجها ،
وكان أول كتاب جاءه من مولر ، فرب بخاطره وهو يفض غلافه

كلُّ شأنٍ إلاَّ الشأنَ الذي كُتِبَ فيه ، فما أمرٌ نظرَه عليه حتى
فهم كلَّ شيءٍ

فلو أن رامياً سدد الى قلبه سهماً حديداً فنَفَذَه ما بَلَغَ منه
ما بَلَغَ هذا الكتابُ ، ولو أن نازلةً من نوازل القدر هوت عليه
فاختطفت نفسه من بين جنبيه لكان له في مصابها رأى غير
رأيه في هذا المصاب ، فقد سكن على أُنْزُلِكَ سكوناً لا تَطْرِفُ
فيه عين ، ولا يَنْبُضُ فيه عرق ، ولا يخفق قلب ، ولا يتحرك
خاطر ، حتى ليكاد يعتقد الناظر اليه في تلك الساعة أن هناك
منزلةً وسطى بين الحياة والموت ، تنبعث فيها الحواس في سبيلها ،
ولسكنها لا تعود الى الدماغ بشيء مما تحس به

واستمرَّ على ذلك ساعة ، ثم انتفض انتفاض الطائر المذبوح ،
ودار بعينه يَمَنَةً وَيَسْرَةً كأنما يفتش عن شيء أضاعه ، فوقع نظره
على الكتاب وهو ملق بجانبه فقرأه مرة أخرى ، ثم ضرب جبهته
بيده وأنشأ يقول بصوت خافت : لا أمل لي بعد اليوم ، هأنذا ،
وها هو ذا الكتاب بين يدي ، ما أنا بحالم ، ولا الكتاب بكاذب ،
نعم إن مولر طردني من بيته ، وقتل نفسي قتلاً ، وجعني في جميع
آمالي ، وحال بيني وبين ماجدولين ، أي إنه فرق بين روحي
وجسدي ، إنه فعل ذلك وهو لا يدري ماذا يفعل ، إنه اجترم هذه

الجرائم كلها ساكنًا هادئًا كأنما هو يعيث بفأسه في أرضه ، أو
يحول جدوله من طريق الى طريق ، لقد قسا على قسوة لم يقسها
أحد من قبله على أحد ، إنه علم أنى فقير لا أملك شيئًا ، ورأى
أن الفقر جريمة لا عقاب لها الا القتل ، فقتلنى

ثم كأنما جن جنونه فنار من مكانه ثورة الاسد الهائج وتمثل
له كأن مولر مائل بين يديه فشى اليه مهددًا وصار يهذى ويقول
مهلاً رويداً أيها الشيخ الأبله ، أظننت أنى بين يديك شاة
خرقاء أو دجاجة بلهاء تقدم نفسها لسكين الذابح حينما يريد ؟
لالا ، أنا إنسان عاقل ، ورجل شجاع ، لا بد أن يكون لى أمل
أحيابه ، وسعادة أنعم بها ، ولا بد أن أقاتل عن أسمى وسعادتى
حتى أبلغهما أو أقتل دونهما

كذبت أيها الرجل ، إنك أضعف من أن تمد يدك الى هذا
الرباط المقدس فتقطعه ، إنك أعجز من أن تتزع شعرة من شعور
رأسك البيضاء فأحرى أن تعجز عن أن تتزع روحاً من جسدها
إن الذى بينى وبين ماجدولين شىء لا تصل اليه يدك ، ولا
يتمد اليه سلطانك ، ولا يتعلق به أمرك ونهيك ، وعطاؤك ومنعك
إنك تستطيع أن تطردنى من بيتك لأنك تملكه ، وأن
تحبس ابنتك فى غرفتها لأنك أبوها ، ولكنك لا تستطيع أن

تمنع قلوبنا أن يتحابا ، ونفسينا أن تتصلا
إن الذى خلق الانسان وأسدى اليه نعمة الحياة والرزق لم
يسترقه بهذه النعم ، ولم يملك عليه قلبه ثمناً لها ، بل تركه حراً يحب
من يشاء ، ويبغض من يشاء ، وأنت تريد أيها الشيخ الضعيف
المسكين أن يكون لك على قلوب الناس سلطان فوق سلطان الله ،
وإرادة فوق إرادته

أى شأن لك عندنا ، وأى صلة لك بنا ، وقد ذهب عصرك
وذهبت بذهابه ، وأصبحنا لانعد وجودك وجوداً ، ولا حياتك
حياة ، فان نظرنا اليك فكما ننظر فى ساعة من ساعات فراغنا الى
صفحة من صفحات التاريخ الغابر

إن عقلك الذى بلى ورث وانتشرت فوقه طبقة سوداء من
القدم لا يصلح أن يكون مرآة صادقة نرى فيها وجوهنا ، ونتعالم
اليها فى سعادتنا وشقائنا

انك شره طماع ، رأيت أن ماء حياتك قد نضب ، وأن
أغربة الفناء السود تحلق فوق رأسك المشتعل شيباً ، فمز عليك
أن تموت ، فجئت الينا نحاول أن تقاسمنا حياتنا الجديدة الغضة ،
فكان مثلك كمثل ذلك الملك الظالم الذى كان يمتص دماء الأطفال
ظناً منه أن ما ينقص من حياتهم يزيد فى حياته

انى لم أكن أريد بك أيها الشيخ المأفون ولا بابتك شراً
ولا ضيراً ، بل كنت أعدلها عيشاً هنيئاً رغداً فى مستقبل حياتها ،
فأنا خير لها منك ، لأنك ما أردت بها فيما صنعت اليوم إلا
عذاباً دائماً ، وشقاء طويلاً

وأعجب من ذلك كله أنك تذكر فى كتابك الصداقة
والإخاء والاخلاص كأنك تظن أن البله قد بلغ منى مبلغه منك ،
وأنى أجهل أنك شيخ مداح مصانع ، تكتب الحكم بالاعدام
وكانك تكتب بطاقة دعوى الى ولية ، وتقدم قطعة الحلوى وقد
دستت فى باطنها نافع السم ، وترفع قبعتك احتراماً لمن يقطر
خنجرك من قلبه دماً

وهنا بلغ منه التعب مبلغه ، فسقط مُكباً على وجهه ، يبكى
بكاء الطفل الصغير ، وينشج نشيجاً محزناً ، ثم جثا على ركبتيه ورفع
وجهه الى السماء وأنشأ يقول

رحمتك اللهم وإحسانك ، فانك تعلم أنى رجل ضعيف لا ناصر
لى ولا معين ، فكن أنت ناصرى ومعينى ، اللهم إنى أعترف بأنى
أذنبت اليك فى اغترارى بنفسى ، واعتدادى بحولى وقوتى ، وأنى
أغفلت قضاءك وقدرك ، وما تجر به على عبادك من أحكام السعادة
والشقاء ، والسلب والعطاء ، فقدّرت لنفسى من سعادة المستقبل

وهناك ما لا أمل لك ولا سبيل لي إليه إلا بمعونتك وقوتك ،
فاغفر لي ذنبي ، وخذ يدي في نكبتى ، فقد أصبحت أعجز الناس
عن الصبر والاحتمال

ثم سكن بعد ذلك سكونا عميقا ، ولم يزل باسطا يديه رافعا
رأسه الى السماء ، كأنما كان ينتظر أن يسمع هاتفا مهتفا به من
الملا الأعلى ، فلم يلبث أن رأى من خلال دموعه الحائرة في عينيه
شبحا من نور يتلأأ أمامه ، وكان المصباح قد انطفأ وأضاءت
الغرفة بأشعة القمر فمسح دموعه يمينه ونظر فاذا هي ماجدولين

٢٣

الوداع

لبثت ماجدولين في غرفتها بعد أن فارقها أبوها ساعة تقلب
النظر في أمرها ، فلا ترى في ذلك الظلام الحالك نجما يتلأأ ، ولا
دبالة تضيء ، فبككت ماشاء الله أن تفعل حتى مضى الليل الأقله ،
فخذتها نفسها بأمر ما كانت تحدثها به لولا لوعة الحب ، وفجعة
البين ، وقامت تحتلس خطواتها اختلاسا وما على وجه الأرض
قلب أضعف من قلبها ، ولا لوعة أشد من لوعتها ، حتى وصلت
الى السلم ، فصعدت تسترق درجانه حتى انتهت الى أعلاه ، فوقفت

قليلاً تستغفر الله من ذنبها ، وتسأله إحسانه ورحمته ، ثم مشت إلى غرفة استيفن ودفعت الباب قليلاً ، فرأته جاثياً على ركبتيه يهتف بدعائه ، فآثر منظره في نفسها ، وأخذت تبكي لبكائه ، وتدعو بدعائه ، حتى التفت فرآها تخفق قلبه خفقاً متداركاً ، وتعلقت أنفاسه ، وجد نظره ، وتزايلت أوصاله ، حتى ما يكاد يتحرك من مكانه ، فد إليها يده كالمستغيث المتلهف ، فدنّت منه وقالت إني جئتكم لا ودعكم يا استيفن ولا أستطيع أن أبقى عندك طويلاً ، فهل تستطيع أن تعدني وعداً صادقاً ألا تترك نفسك في يد الهموم تعبت بها كيف تشاء وألا تجعل لليأس سبيلاً إلى قلبك حتى يجمع الله بيني وبينك ، قال ذلك أمره إليك ، فأنت التي تستطيعين أن تجعليني شجاعاً صبوراً محتملاً ، وأنت التي تملكين أن أحييا بالامل ، أو أموت باليأس ، قالت إني أقول لك اليوم يا استيفن كلمة كان يمنعني الحياء أن أقولها لك قبل اليوم ، وهي أنني أحببتك حباً ملاً فراخ قلبي ، فمايسع غيره ، ونزل منه منزلة الروح من الجسد ، فماينتقل عنه ، وقد عاهدتك على الزواج بين يدي الله ويدي ضميري ، وما أنا بخائنة ضميري ، ولا بكاذبة ربي ، فساقر يا استيفن ، وقتش عن سعادتنا في كل مكان ، وبكل سبيل ، حتى تجدها ، وعد إلى بعد ذلك فاني سأكون لك ماحييت

سافر حيث شئت ، وتقلب في البلاد كما أردت ، وعد إلى بعد
عام أو عامين أو عشرة أعوام أو أكثر من ذلك ، فانك ستجدني كما
تركنتي نقية طاهرة ، ووفية مخلصه ، واعلم أن الله ما ألهمني الصبر
عنك ، وألهمك مثل ذلك في مثل هذا الموقف الذي تطيش فيه
العقول ، وتطير رواجح الأحلام ، إلا وقد أراد بنا خيراً في جميع
شؤوننا ، وقدر لنا السعادة والهناء في مستقبل أيامنا ، سافر
يا ستيفن غدا ، واكتب إلى بكل ما تلاقى من خير أو شر
لأفاسمك سراءك وضراءك ، وسأكتب إليك كما تكتب إليّ
فسكن نأثره قليلا ، وقال إن سفرى سيكون طويلا
ياما جدولين ، فهل لك أن تزودني بقليل من الزاد أستعين به على
بعد الشقة وعناء المسير ، فدت يدها إلى شعرها وقصت منه
خصلة فأعطاها من شعره مثلها ، ثم تراجعت قليلا قليلا ، وهي
تنظر إليه بعين ملؤها الحب والجزع ، والصبابة والدموع ، فقام
إليها ليدركها فاختفت

استيقظ استيقظ صباح يوم الرحيل وأطل من نافذة غرفته
المشرفة على الحديقة فرأى الأفق يتفتح عن نفسه شيئاً فشيئاً، ورأى
الشمس قد هبت من مرقدها، ولا تزال في جفنها سنة الغمض، ثم
رآها وقد لبست ثوبها الأول وخطت بعض الخطوات إلى مطلعها،
فشئت أمامها حاشية من الأضواء تتقدمها كما تتقدم الملك حاشيته
في مطالعه من باب قصره، ثم نظر إلى السماء من ناحية المشرق
وقد انتشرت في أنحائها تفاريق السحب، ومشت في جلدتها حمرة
النور، خيل إليه أنه يرى هنالك برجاً عظيماً تضطرم فيه النار
اضطراماً وأن دخان تلك النار يترام فوقها مرة، وينفجر عنها أخرى
ثم رأى أشعة الشمس البيضاء تخالط حبات الطل، في أوراق الزهر
والطل لم يجر ذائبه، فكان كأنه يرى أحجاراً من الماس تضيء
فتنعكس عنها ألوان مختلفة بديعة تملك القلوب والأبصار، ولم
يكن يسمع في تلك الساعة من الأصوات غير طنين النحل وهو
مكب على أزهاره يرشف كؤوسها، ويتطاير من حولها، كما
تتطاير الاحلام اللذيذة حول أفواه الاطفال الصغار
فألقى على تلك المناظر كلها نظرة عامة لم يسترجعها إلا مبلة

بالدمع حينما ذكر أنه سيفارق عما قليل هذه الدار ، ويفارق بفراقها
سعادته وهنائه ، ويفارق ظلال الزيفون التي كان يجلس إليها مع
ماجدولين ، والجدول الذي كانا يمشيان بجانبه ، والزورق الذي كانا
يتنزهان فيه ، والمقعد الذي كانا يعتقده من الحديقة لينظر مجيئها ،
أو يرى خيالها من نافذة غرفتها ، والغرفة التي كان يشرف
من نافذتها لسمع نغمات صوتها العذب ، وطاقات الزهر التي
كانت تهديها إليه فيستروح منها نسيمها ، فلم يزل يبكي بكاء
الشيخ على عهود صباه ، حتى كادت تتلف نفسه ، ولولا أنه ذكر
حديثها معه ليلة أمس فعزى نفسه عن فراقها باخلاصها ووفائها ،
وما عقدت بينها وبينه من العهود لقضى في مكانه أسفا ، ثم قام
إلى حقيته فوضع فيها ملابسه ومرافقه ، ونزل إلى الحديقة
فودع أزهارها وأشجارها ، ومجالسها ومقاعد ها ، ولم يترك جذعا
لم يقبله ، ولا غصنا لم يلثمه ، ولا مقعدا لم يمرغ خده فوقه ، وببلله
بدموعه ، ونقش اسمه واسم ماجدولين على كثير من المقاعد
والجذوع ، واقتطف من كل شجرة زهرة ، وجمع تلك الأزهار
في طاقة واحدة وتركها على بعض المقاعد لماجدولين ، ثم ذهب
إلى البستاني واتفق معه على أن يحمله على فرسه إلى (كوبلانسن)
ثم فارق (ولفأخ) بين وجد يقتله ، وأمل يحياه

من ماجدولين الى استيفن

سافرت يا استيفن وأصبحت بعيداً عنى ، وما أحسب أنى
أراك فى عهد قريب ، فما أعظم بؤسى وشقائى ، وما أشد ظلمة
الوحشة المحيطة بى

لقد خدعتُ نفسى يوم أشرتُ عليك بالسفر ، فقد ظننت
أن بين جنبيّ ذخيرة من الصبر والاحتمال أقوى بها على تجرُّع
كأس فراقك المريرة ، فلما فقدتُ وجهك علمتُ أنى فتاة ضعيفة
بائسة ، لا تقوى على احتمال أكثر مما تطيق من الآلام والاحزان ،
وأنتى فيما أدليت به إليك من تلك النصيحة إنما كنت أحدث
عن خواطر عقلى ، لا عن شعور نفسى

لقد كنت أرجو أن يكون آخر عهدي بك يوم رحيلك
وقفة أقفها فى نافذة غرفتى أحبيك فيها تحية الوداع ، وألقى عليك
فيها آخر نظرة من نظرات الحب ، لولا أننى خفت عليك الجزع
أن ترانى باكية ، وعلى نفسى التلف أن أراك جازعا ، ففتديتُك
وافتديت نفسى بهذه اللوعة التى تتأجج اليوم فى صدرى ، فما
أصعب الوداع ، وما أصعب الفراق بلا وداع

نزلتُ بعد سفرك إلى الحديقة فلم أجذك، ووجدت على بعض
مقاعد طاقة الزهر التي تركتها لي قبل سفرك، فلقمتها ولثمت
شخصك فيها، ثم مشيت إلى ذلك المقعد الذي كنا نجلس عليه
معاً تحت شجرة الزيزفون جلست فيه وحدي، ونشرت بين يديّ
رسائلك الماضية، وأنشأت أقرؤها وأصغى إلى حديثك فيها، فخيّل
إليّ أنك جالس بجانبى تحدثنى فسا لقم، وأن ما يقع عليه نظرى
فى صفحات رسائلك إنما هى نبراتٌ تسمعها أذنى، لا خطوط
تبصرها عيني، فسكنتُ لذلك الخيال ساعةً سكونَ الطفل الباكي
لنشيد المهد حتى سمعتك تدعونى فى بعض أحاديثك «يا خطيبتى»
وهى تلك الكلمة الحلوة العذبة التى تهبط حلاوتها إلى أعماق قلبى
كلما سمعتها، فانتفضتُ وألقيت نظرى على مكانك الذى تخيلته بجانبى
فوجدته خالياً، فعلمتُ أن تلك الساعات الجميلة التى مرت بنا تحت
هذه السماء الصافية، وفوق تلك المقاعد الجميلة، وبين مشتبك
هذه الغصون والأوراق، قد ذهبت، ولم يبق لي منها غير ذكرها،
فبكيتُ ساعة طويلة لا أعلم لى بمداها، ثم استفتقت فصعدت إلى
غرفتى، وجلست إلى منضدنى أكتب إليك هذا الكتاب
فتى تعود يا استيفن، ومتى تعود لى بعودتك تلك الايام
الحسان؟

من ماجدولين الى استيفن

لقد كابدتُ بالامس ليلة ليلاء ، فلم ينحدر كوكب الشمس
إلى مغربه حتى سمعتُ صوت العاصفة يهدر في كل مكان ، ورأيتُ
آفاق السماء قد اربدت واقشعرت ، ثم ارفضت عن غيوثها
المنهلة ، فذكرت أنك لا تزال على الطريق ، وإنك تقاسي في تلك
الساعة من عثرات الطريق وعقباته ، وقفقة البرد ورعشته ، غناء
عظيما ، فالتحفت ردائي وأويت إلى بعض زوايا غرفتي وظللت أبكي
على فراقك مرة وعلى شقائك أخرى وأذود النوم عن عينيّ زياداً
لأنني أستطيع أن أكون راضية عن نفسي ولا هائلة في
مضجعي ان نمتُ في ساعةٍ لا تجد فيها أنت إلى الراحة سبيلاً ، حتى
مضى الليل إلى أقاله ، فشعرتُ ان النعاس الذي كان يغالب جفنيّ
قد غلبني عليهما ، فَنِمْتُ في مكاني نوماً مشرداً مذعوراً حتى استيقظت
مع الصباح فاذا الريح ساكنة ، والشمس ساطعة ، والجو باسم
طاق ، فحمدت الله على ذلك

إني أعددُ الساعات واللحظات يا استيفن ، وأنتظر بشوق
عظيم وصول أول كتاب منك يشرني ببلوغك مستقرك سالم
فتي يأتي كتابك إليّ ؟

من ماجدولين الى استيفن

لم تكف الاربعون ساعة التي مرت بي لتخفيف شيء من
 همومي وأحزاني ، فلقد قضيتها حائرة الذهن مشردة اللب أقلب
 عيني في كل مكان فلا أجد في بارقة من بوارق الحقيقة ولا ساحة من
 سوانح الخيال عزاء ولا سواي ، فصعدت إلى غرفتك المهجورة على
 أجد في مقامى بها ساعة علاج ما أكابده من هموم وأحزان ، فلما
 بلغتها ووضعت يدي على مفتاحها شعرت برعشة شديدة ملأت
 ما بين قمة رأسي إلى أخمص قدمي ، فلقد خيل إلى أنني إن فتحت هذا
 الباب وجدت وراءه واقفا تبسم إلى وتفتح ذراعيك لاستقبالي ،
 فلما فعلت لم أجد غير الوحشة السائدة ، والسكون المخيم ، وغير
 سريرك المشعث ، وأوراقك المبعثرة في كل مكان ، والغبار
 المنتشر في أرضها وسماها ، فهتدت ما تشعث ، وجمعت ما تبعثر ،
 ومسحت الغبار عن المقاعد والنوافذ ، وأعدت الغرفة إلى عهد
 الأول أيام كنت تسكنها وتزينها ، كأنما أبيت إلا أن تكون
 غرفتك المعدة لك ، المسماة باسمك ، حاضراً كنت أم غائبا

ووجدت على بعض المقاعد بضعة دراهم في كيس صغير
 فعلمت أنها أجرة الغرفة الذي يتقاضاها أبي قد تركتها له لياخذها

من حيث لا نراه ، فأخذتها لأحملها اليه ثم استوهبه إياها لا بتناع
بها حلية أو ذخيرة أتقلدها ، كأنها هدية مرسله منك إلى
سأحمل نفسي يا إستيفن على الصبر عنك ، حتى يطوى القدر
مسافة البعد بيني وبينك ، وستكون لعلتي التي أتلعل بها منذ
الساعة كلما هاج بي هائج الشوق اليك أنك ما بعدت غنى إلا
لتقترب مني ، ولا فارقتي إلا لأنك آثرت اجتماعاً آمناً طويلاً
على اجتماع مصرّ غير مأمون ، فامض في سبيلك أيها الصديق
المحبوب ، وذلّ بهمتك جميع العقبات التي تعترض سبيل سعادتنا
وهنا ، حتى نلتقي بعد ذلك لقاءً تنسينا حلاوته مرارة ذلك الماضي
الحزن الويل

٢٨

من استيفن الى ماجدولين

بالأمس كنا وكان يجمعنا بيت واحد لا يكدر صفاءنا فيه
مكدر ، واليوم نحن وبيننا وبينك خمسون فرسخاً لا تمس يدي
يدك ، ولا تعبت أنا ملي بشعرك ، ولا أستنشق عبير أنفاسك ،
ولا يرن صوتك العذب في جوانب قلبي ، ولا تضئ ابتساماتك
الجميلة ظلمات نفسي ، ولا تلتقي أنظارنا في مكان واحد ، ولا تترج
أنفاسنا في جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدي بها ، ولا الجو
(٩ — ماجدولين)

باسم^١ طلق كما أعرفه ، ولا الماء صاف عذب ، ولا الهواء رقيق^٢
عليل ، ولا الروض متفتح^٣ عن أزهاره ، ولا الزهر متنفس^٤ عن
عبيره ، كأنما كنت سر^٥ الجمال الكامن في الأشياء ، فلما خلت
منك أقفرت^٦ واقتشعرت^٧ ، ونبت^٨ عنها العيون والانظار

ولقد لقيت في « كوبلانس » أبي وأهلي وكثيراً من أبناء
وطني فلم يغني لقاءهم عن لقائك ، ولم أجد في وجوههم ذلك
الأنس الذي كنت أجده فيها قبل أن أعرفك ، فأصبحت أشعر
في مقامى بينهم بما يشعربه الغريب المنبت الذي يعيش في وطن
غير وطنه ، ودار وأهل غير داره وأهله ، فتي تنقضي أيام غربتي ،
ومتى أعود الى أهلي ووطني

قد أحزنني كثيراً ما تكبدينه من الآلام والأحزان من
أجلي ، ولو كشف لك من أمر نفسك ما كشف لي منها لعرفت
أنك أسعد مني حظاً ، وأروح بالاً ، لأنك تعيشين في المواطن
التي شهدت سعادتنا وهناءنا ، والتي نبتت في تربتها آمالنا وأحلامنا ،
فكل ما حولك يذكر بك بحبك ، وأيام شعادتك ، أما أنا فكل
ما حولي غريب عني ، أنكره ولا أكاد أعرفه ، كأنما هو مؤتمر^٩
بي أن ينتزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي قضيتها بجانبك ،
وهي كل ما أصبحت أملكه من بعدك

سأكون شجاعاً كما أمرت يا ماجدولين ، وسأبذل جهدي
في تذليل كل عقبة تقف في طريق سعادتي بك ، فاكُتبي إليّ
كثيراً ، وحدثيني عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، وما يعرض
لك من الشؤون ، صغيرها وكبيرها ، لاجد على البعد عنك ، لذة
القرب منك ، واجعلي حبك عوناً لي على مقاصدي وآمالى ، فحبك
هو الذى يحينى ، وهو الذى من أجله أعيش وأبقى

٢٩

حفلة رقص

أقام والداستيفن في بيته حفلة راقصة ، وأمر ولده أن يشهدها ،
ولم يكن قد شهد حفلة رقص قبل اليوم ، فأذعن على كره منه ،
فاما اجتمع الجمع وماجت قاعة الرقص بالراقصين والراقصات
وقف استيفن موقف الحيرة والحجل أمام هذه المناظر المدهشة
الغريبة ، لا يدري ماذا يفعل ، وأى سبيل يأخذ ، وخيل إليه
أن هناك قانوناً موضوعاً للحركات والسكنات ، والجيئات
والروحات ، وأن من أغفل حرفاً واحداً من حروف ذلك
القانون أخذتهُ العيونُ ، ودارت به الانظار ، ورنّت حوله
ضحكات الهزء والسخرية ، وكان لا بد له من أن يخرج من موقفه

هذا إلى أية حالة من الحالات كيفما كان شأنها ، فلمح على البعد
شمعة يتضاءل نورها بين الشموع المحيطة بها ، فخطر له أن يتلوى
بإصلاح ذبالتها ، فشى إليها يتخيل في ثيابه تخيلاً ، لأنها لم تكن
ثيابه ، بل ثياب بعض أقربائه أعاره إياها هذه الساعات من الليل
وصاحبها أطول منه قامة ، وأضخم جسماً ، فلما داناها رأى أن
ذبالتها قد التوت على نفسها فطالت واسودت وغرقت في الدهن
المحيط بها ، فبدا له أن يقرض أعلاها ليصفو أسفلها ثم يمسح
الدهن السائر حولها ، فما هو إلا أن مديده بالمقراض إليها حتى
انطفاأت وتطاير دُهنها إلى ثوبه فانتشر في انحاءها ، فحمد في مكانه
جود المقراض في يده ، واستحال إلى تمثال مضحك مائل بين أعمدة
الشموع لا يستطيع أن ينقل قدميه حياءً وخجلاً ، فوقع ما كان
يخافه ، وعقدت حوله الا نظار نطاقاً ، ومشت البسمات والغمزات
في الأفواه والعيون ، ومرّ به في موقفه هذا أحد الظرفاء المتأقين
وكان لا يعرفه فأسرّ في أذنه « أما تعلم ياسيدي أن إصلاح الشموع
في الحفلات عمل غير لائق » وسمع فتاة تقول لصاحبيتها وقد
وقفقابه « ما أجمل زركشة هذا الثوب » فأجابتها الأخرى « إنه
آخر طرز في الكرنفال » فلم يجد بداً من النجاة بنفسه ، ففرّ
من مكانه هارباً لا يلوى على شيء حتى دخل بعض القاعات

الخالية وجلس على مقعد فيها يمسخ بشفرة المقراض ما تنثر على ثوبه من الشمع ، فلحق به أبوه بعد قليل وقال له ما بقاؤك هنا وحدك يا استيفن ، إن أسرة البارون قد حضرت ولا بد لك من مقابلتها والبقاء معها حتى تنصرف ، فامتعض استيفن في نفسه وتناقل في مكانه لأنه عرف ما يراد منه ، فألح عليه أبوه فأذعن ، ومشى إلى مكان هؤلاء القوم فحياء وحيا تلك الفتاة التي يريدون خطبتها له تحية جامدة لا تشبه تحية الخطباء ولا المحبين ، بل لا تنقص عن تحية المتنافرين المتناكرين الا قليلا ، ثم لم يلبث أن وجد السبيل إلى الخلاص منها فانفتل من مكانه وخرج إلى فضاء الحديقة وجلس على بعض مقاعدها ينقم على المحافل والمراقص وما ضمت بين أطرافها من ردائل وشرور ويقول

ويل لهؤلاء القوم المرائين الكاذبين ، يفسقون ويزعمون أنهم يرقصون ، ويقترفون صنوف السيئات والآثام ويقولون أنهم يغنون أو يطربون ، ووالله ما اجتمعوا إلا ليختطف العاشق معشوقته من يد زوجها أو أخيها أو أبيها حين أعيته الوسائل إليها أو لتفتش الزوجة التي ملت زوجها وسئمته عن عشير جديد غير مملول ، أو ليلقى الأب بابنته العانس الشوهاء بين ذراعي فتى من الفتيان الأغرار يرجو أن يُعميه الشغف الحاضر بها عن النظر إلى

عيوبها فيقع في حبالتها ، ويصبح على الرغم منه زوجاً لها
إن كانوا يريدون الغناء فلم لا يغنون إلا راقصين ، أو الرقص
فلم لا يرقص الرجل إلا مع امرأة ، ولا ترقص المرأة إلا مع
رجل ، ثم لا يرقصون إلا متلاصقين متماسكين ، كأنهم بين
جدران مخادعهم ، أو وراء أستار نوافذهم وأبوابهم

من لهذا الزوج الغبي الذي يلقى بزوجه عارية الصدر والظهر
والذراعين والكتفين بين ذراعي فتى جميل ساحر يلاصقها ويختصرها
ويقبلها بين يدي شهواته ماشاء أن تعود إليه ساعة تعود بالعقل
الذي ذهبت به ، وبالقلب الذي كانت تحمله بين أضالعها ، ومن
لهذا الاب الأبله المافون الذي يتبرم بابنته ويستثقل مكانها منه
فيقذف بها بين مخالب هذه الوحوش المفترسة ألا تعود إليه بعد
قليل حاملة معهما الأول همين آخرين ، عاراً على رأسها ، وجنيناً
في أحشائها

إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويمزقون
أعراضهم بأيديهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

ولم يزل يهتف في نفسه بأمثال هذه التصورات الغريبة حتى
انصرف الناس فلم يحضر انصرافهم ، كما لم يحضر اجتماعهم ، وكان أبوه
قد أشار إلى جماعة من أهل بيته وخاصة أصدقائه أن يتخافوا ففعلوا ،

فلما خلا بهم المكان دعا استيفنَ أمامهم وقال له على مشهد منهم
قد كنت دعوتك إلى مصاهرة هذه الأسرة منذ عام ودلتك
على مكان الخير لك في هذه الصفقة الراجعة فأيت واستعصيت
وفررت منى راكباً رأست إلى حيث لأعلم لك مذهباً ، فلما
عدت في هذه المرة ظننت أنك قد أذعنت وأصحبت^(١) وفهمت
معنى الحياة كما يفهمها الناس جميعاً فجننت تطلبها من الطريق التي
يطلبونها منه فأقت هذه الحفلة الراقصة وأنفقت في سبيلها مالا
طاقة لي باحتماله لا أريد بها إلا أن تكون موضع الصلة بينك
وبين تلك الفتاة التي اخترتها لك والخطوة الأولى إلى خطبتها
فأيت إلا تمرداً وعناداً ، كأنما ظننت أنني باقي لك بقاء الدهر
أ كفلك وأقوتك أو أخيل إليك أن هذا العلم الذي تدل به
وتعز بمكانك منه منجم من مناجم الذهب يخرج لك ما يقوتك
اليوم ويقوت من وراءك من بنيك وأهل بيتك غداً ، فإن كان
هذا ما ذهبت إليه فاعلم أن ثروتي لا تتسع لأكثر من أيام
حياتي ، ولا تتسع في حياتي لأكثر من الإنفاق عليك طفلاً
وغلاماً وفقى ثم أنت وشأنك بعد ذلك ، وأن هذه الفنون
الأدبية التي هي كل ما تملك يدك في هذه الحياة ما صلحت أن

(١) أصحب البعير ذل وانقاد

تكون في زمن من الازمان وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبباً
 من أسباب العيش ، ولن تكون كذلك أبداً الدهر ، لان السعادة حقيقة
 من الحقائق لا يتوصل اليها من طريق الخيال ، فان أردت لنفسك
 الخير فدونك الرأي الذي رأيته لك ، وأنت أعلم به ، أولاً ، فدونك
 الارض الفضاء فامش في مناكبها ماشئت ، واطلب لنفسك
 الرزق من الوجه الذي تعرفه ، فقد أصبح وجودك في منزلي على
 حالتك هذه من البطالة والفراغ عاراً على وعلى أهلك جميعاً ، بل
 عاراً على نفسك إن كنت من الشعاعين

ثم التفت إلى القوم وقال لهم هاأنذا قد أشهدتكم عليه ، وبرئت
 اليه واليكم وإلى الله من ذنبي ، فلا معتبه عليّ بعد اليوم

فقال أحداً أقربائه « إني لم أَر في حياتي جنواً مثل هذا الجنون »
 وقال آخر « لعله سقط في هوة من هوى الغرام فلا مناص

له من الارتباط في قعرها حتى الموت »

وقالت زوج أبيه « لعله أحب عروس الشعر فغنى بها عن

كل عروس سواها »

وقال عمه وهو يزجر غضباً « قبيح بالفتى أن يكون في سن

ك هذه السن حاملاً فوق كاهله قوة كهذه القوة ثم يرضى لنفسه

أن يكون عالة على قومه وذويه »

فطار طائر الحلم من رأس استيفن واختفى من وجهه ذلك
 الفتى الحي الخجول الذى كان يذوب منذ ساعة خجلاً أمام
 النظرات والفتات ، وحل محله رجل هائل جبار لا يخشى أحداً
 ولا يبالي شيئاً ، فرفع رأسه ونظر الى الجمع نظرة شزراء ذرّعت
 لها أنظارهم ، وخفقت لها قلوبهم ، ثم التفت إلى أبيه وقال له :
 إننى لأعتب على واحد من هؤلاء ، لأنهم سمعوك تغنى فضربوا
 على نعمتك ، أما أنت فأنى أقول لك نعم أنك قد أحسنت
 إلىّ فيما مضى كما تقول ، ولكن لا يحمل بك أن تمنّ على
 باحسانك هذا ، ولا يحمل بى أن أشكره لك ، أو أثنى عليك
 به ، لأنك أب ، وللابوة ثمن لا بد لك من أدائه ، واحتمال المؤونة
 فيه ، على أنك لم تمنحنى فى يوم من أيامك الماضية عطفك ولا
 رحمتك ، ولو فعلت لكان ذلك خيراً لى من كل ما أسديت إلىّ من
 صنوف البر والمعروف ، بل كان شأنك معى فى كل آناء حياتك شأن
 رجل عابر سبيل وجد فى طريقه طفلاً ملففاً فى قماطه مطر حاتحت
 جدران بعض المنازل أو على باب إحدى الكنائس فالتقطه وكفله
 منةً واحساناً لارحمةً وحناناً ، فقد أبعدتنى عنك أنا وأخى مذ
 ماتت أمى ، وبنيت بزوجتك الحاضرة قبل أن أبلغ السابعة من
 عمرى ، ووضعتنى فى أحجار قوم لا تجمعنى بهم جامعة محبة ، ولا

(١٠) — ماجدولين

تَعطفهم على آصرة رحم ، ولم أجد فيهم من يُذكرني بك ، أو
يحبيبك إليّ ، أو يحدثني عنك حديثاً واحداً ، وكنت كلما عدت
إليك في أيام اجازتي من العام إلى العام استقبلتني بالوجه الذي
تستقبل به أبعد الناس عنك ، وأصغرهم شأنًا عندك ، فلا تختصني
بكلمة طيبة ، ولا تؤثرني بنظرة رحمة ، ولا تسهر على في مرض ،
ولا تتفقدني في شدة ، ولا تبسم للقاء ، ولا تحزن لفراق ، وكثيراً
ما سهرت الليالي ذوات العدد أندب حظي عندك ، وأضرع
إلى الله تعالى أن يدني قلبك من قلبي ، ويرزقني حبك وحنانك ،
فلم يستجب دعائي ، فاستوحشت نفسي من نفسي ، وغلبت على
طبعي هذه النفرة التي لا تزال ملازمة لي حتى اليوم ، ولولاك
لما كنت نفوراً ولا مستوحشاً ، وقسا قلبي القسوة كلها فاصبحتُ
لا أعطف على أحد ، ولا أحب أحداً ، لأنني لم أتعلم العطف
ولا الحب من أحد ، ولما لم أجد في الناس من أحبه وأصطفيه أحببت
نفسى وحريتي وأصطفيهما وآثرتهما على كل شيء في العالم ، فلا
أحتمل أن أرى من ينازعني فيهما ، أو يغالبني عليهما
إن حياتي لي ، وأنا صاحبها الذي أتولى شأنها ، فلا سلطان
لأحد غيري عليها ، ولا شأن لكائن من كان فيها سواي ، فلا
أسير في طريق غير الطريق التي ترسمها يدي ، ولا أبني مستقبل

حياتي على أساس غير الأساس الذي أضعه بنفسى ، ولا أحب
إلا الفتاة التى أحبها أنا ، لا التى يحبها الناس لى ، ولا أعاشر إلا
المرأة التى أقيس سعادتى معها بمقياس عقلى ، لا بمقياس عقول
الآباء والأعمام

فهاج القوم عليه هياجاً عظيماً ، وصرخ أبوه فى وجهه ، وثأوره
عمّه يريد الفتك به وتناولته بقية الألسن بالشتم والسب ، فلم
يأبه بذلك كله ، ولم يزلزل من موقفه ، واستمر فى حديثه يقول :
بأى حق تريدون أن تسلبونى حريتى وتملكوها على ، أبحق
العطف الذى بذلتموه لى فيما مضى ، وما عرفت بينكم محبالى ولا
راحماً ، أم بحق الكرامة والبقيا ، وقد كنتم جميعاً تضربونى صغيراً ،
وها أنتم أولاء اليوم تشتمونى كبيراً

إنى قائل لكم جميعاً كلمة لا أقول لكم غيرها بعد اليوم ، إنى
لا أحب إلا من يحببنى ، ولا أكرم إلا من يكرمنى ، ولا أذعن
إلا لرأى وإرادتى ، ولا أبيع حياتى وحريتى حتى خالقهما الذى
منحنى إياهما بشمن من الأثمان مهاغلا

إنى لا أطلب منكم مالاً ولا معونة ، ولا أشكو إليكم فقراً
ولا عُدماً ، وسأرسمُ لنفسى بنفسى خطة حياتى ، فان قُدِّر لى
النجاح فيها فذاك ، أو لا ، فحسبى من السعادة أننى قضيت أيام

حياتي حراً طليقاً ، لا سبيل لأحد على ، ولا شأن لكائن من الكائنات عندي ، حتى يوافيني أجلي ، وهذا فراق ما بيني وبينكم ثم انقتل من بين أيديهم وهرع إلى غرفته فبدل ثيابه وتناول عيية ملابسه وخرج هائماً على وجهه يحترق أحشاء الظلمات حتى خرج إلى ضاحية المدينة ، فتبعه فتي من أبناء أخواله كان قد ألمَّ ببعض قصته فقال له أين تريد يا استيفن ؟ قال إلى حيث أرسلني أهلي ، فبكى قريبه مرثاة له مما هو فيه وقال له وارحمته لك أيها البائس المسكين ، ثم دس له في جيبه بضع قطع من الذهب لم ينتبه لها استيفن إلا بعد ذهابه فشكرها له في نفسه ثم مضى لسبيله

٣٠

النفس العالية

لأن تخضع النفس العالية للحوادث ولا تذلل لها مهما كان شأنها ، ولا تلين صعدتها^(١) أمام المنكبات والارزاء مهما عظم خطبها ، وجل أمرها ؛ بل يزيد لها مر الحوادث وعض النوائب قوة ومِرَاساً ، وربما لذ لها هذا النضال الذي يقوم بينها وبين حوادث الدهر وأرزائه ، كأنما يأتي لها كبرياؤها وترفعها أن يوافيها

(١) الصعدة القناة المستوية

حظها من العيش سهلاً سائغاً لا مشقة فيه ولا عناء ، فهي تحارب
وتجالد في سبيله ، وتغالب الأيام عليه مغالبة حتى تناله من يدها
قوة واغتصاباً ، فتلها بين النفوس كمثل الليث بين السباع ،
لا تمتد عينه إلى فريسة غيره ، ولا يهنأ له طعام غير الذي تجمعه
أنياه ومخالبه

كذلك كانت نفس استيفن بعد نزول تلك النكبات به ، فإنه
لم يجزع ولم يتألم ، ولم يعيث اليأس بقلبه ، بل فارق كوبلانس كما
دخلها ، ساكن النفس ، مطمئن الضمير ، مملوء القلب ثقة وأملاً ،
فلم يزل سائراً بقية ليلته يطوى الأرض على قدميه طياً حتى مشى
في جلدة الظلام أشعة الفجر ، فالتفت فاذا بقية من شبج كوبلانس
لا تزال ماثلة ، فألقى عليها نظرة واجمة مكتئبة ثم قال

الوداع أيها القوم الذين طردوني من بيتهم ، ولم يزودوني لقمة
واحدة أتبلغ بها في طريقى ، ولا دابة أحمل عليها حقيرتى ، ولا
كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتى ، لقد نبذتُ حبيكم من قلبي
نبذ الفم النواة ونفضت يدي منكم نفخ المودع يده من تراب
الميت ، فأصبح قلبي وضميري وحيي وحناني ونفسي وحياتي وكلُّ
ماتلك يدي ملكاً خالصاً لذلك الانسان الذى أحببني وأحبيته ،
ووفى لى من دون الناس جميعاً ووفيت له ، لا ينازعه فى منازع ،

ولا ينزل معه في سويداء قلبي نازل ، وسيكون حبه مناري الذي
أهتدى به في ظلمات حياتي ، حتى أبلغ ذروة السعادة التي أطلبها
لنفسى ، وهنالك ترون أيها الجفاة القساة أن ذلك الفتى الخامل
المسكين الذي وقف بينكم بالأمس مهيناً ذليلاً لا يكاد يرفع
طرفه اليكم حياء وخجلاً ، قد أصبح رجلاً نابهاً عظيماً غنياً بماله
وجاهه عن مالكم وجاهكم ، وسعيداً بين أهله وأولاده سعادة
لا يحفل من بعدها بكم ولا برحمكم

ثم مشى في طريقه لعل نفسه بالآمال الحسان ، ويرسم
لمستقبل حياته ما شاء من الخطط والنظم ، وكان كلما ألغى
المسير دفع الى بعض أصحاب العجلات المارة في طريقه تحمل
الاثقال درهماً أو درهمين ليحملوه على عجلاتهم أو يأذنوا له بالجلوس
في مؤخرتها ساعة أو ساعتين ، ثم يعود إلى شأنه الأول ، حتى وصل
عند مجتبع الاصيل إلى « جوتنج » وهي البلدة التي تعلم في مدرستها
وقضى فيها أكثر أيام صباه

٣١

النفس الشعرية

ذهب استيفن ساعة هبط جوتنج إلى أستاذه القديم في الموسيقى
« هو مل » ليفضى إليه بشأنه ، ويستعين به على قضاء حاجته ،

وكان له بمثابة الاب الرحيم ، يحبه ويكرمه ويؤثره على تلاميذه جميعاً ، فلما وقف بين يديه عقل الحياء لسانه فلم يستطع أن يقول شيئاً ، وكذلك شأن أصحاب النفوس الشعرية ، يملأ الشعر نفوسهم عزة وخيلاء ، فتملأ العزة وجوههم حياء وخجلاً ، فلا يذلون ولا يضرعون ، ولا يجرون على شيء مما يجروا عليه الناس جميعاً ، كان تخليقهم الدائم في سماء الخيال وطيرانهم في تلك الاجواء العالية غادين رائحين قد مثل لنفوسهم أنهم يعيشون في ملائ أرفع من الملا الذي يعيش فيه الناس ، فان عرضت لهم حاجة من الحاج أبوا أن يسألوها أحداً من سكان الارض ، وربما أنفوا أن يسألوها ساكن السماء ، ذهاباً بأنفسهم عن مواطن الضعة والمهانة ، وضناً بأديم وجوههم أن يُخلقه السؤال ، وكذلك يعيشون فقراء ، ويموتون بؤساء

لذلك لم يستطع استيفن أن يفضى بحاجته الى أستاذه في المقابلة الاولى ، فزعم أنه إنما جاءه ليتلقى عنه دروساً في الموسيقى ، وظل يختلف اليه أياماً يسمع غناؤه ويحفظه عنه حتى جرى بينهما يوما من الايام ذكر الحياة والمستقبل ، فسأله أستاذه عما رسم لنفسه من الخطط في مستقبل حياته ، فقال لا أدري حتى الساعة ، فقال لا أعرف لك سبيلاً غير هذا الفن الذي تحبه وتستهم به ،

وأرى أن غرامك به سيجعلك غداً من أصحاب الشأن العظيم فيه ،
فنفض له استيفن إذ ذاك جملة حاله ، وصارحه برغبته التي يريدها ،
فوعده بمساعدته والاخذ بيده فالصرف مقتبطاً مسروراً

٣٢

من ماجدواين الى استيفن

لم أستطع أن أكتب لك منذ شهرين لاني كنت مريضة
وسأقص عليك قصة مرضي

خرجت ذات ليلة لالقي برسالة كنت كتبتها لك في
صندوق البريد في قرية « هال » فلما أبعدت عن ولفاخ وغاب
عني شبوحها وأصبحت في منتصف الطريق بينها وبين هال هبت
على ربح عاصفة شديدة دوت بها جوانب الافق ، وقععت لها
قبة السماء حتى حسبتها توشك أن تنقض ، وأخذت تجاذبي ثوبي
مجازبة شديدة كأنما تأبى إلا أن تنزعه مني أو تنزعني معه ،
فحدثني نفسي بالعودة من حيث أتيت ، ثم ذكرت ذكرك وذكرت
أنك تنتظر رسالي فاستمرت أدراجي ومشيت في طريق
أتيامن مع الريح مرة ، وأتيسر أخرى ، وأندفع متقدمة ،
وأكرر راجعة ، فمن رآني في تلك الساعة خيل إليه أنه يرى فتاة

بأَسْءَ مُرْزَأَةً قَدْ لَعِبَتِ النَّارَ بِأَثْوَابِهَا ، وَعَلِقَتْ بِأَطْرَافِهَا وَأَوْصَالِهَا ،
فَهِيَ نَهِيمٌ عَلَى وَجْهِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ تَطْلُبُ الْخُلَاصَ مِمَّا هِيَ فِيهِ
فَلَا تَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، فَلَمْ أَصِلْ إِلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ إِلَّا بَعْدَ سَاعَتَيْنِ ،
فَأَلْقَيْتُ الْكِتَابَ فِي الصُّنْدُوقِ ثُمَّ رَجَعْتُ ، وَكَانَتْ الْعَاصِفَةُ قَدْ
هَدَأَتْ قَلِيلًا ، وَلَكِنَّمَا مَا هَدَأَتْ إِلَّا لِتَفْتَحَ الطَّرِيقَ إِلَى الْغَيْثِ
الْمُهَاظِلِّ ، فَلَمْ تَهْدَأْ ثَوْرَتُهَا حَتَّى ثَارَ ثَائِرُهُ وَأَخَذَ يَتَسَاقَطُ سَقُوطًا
شَدِيدًا ، فَابْتُلَ رِدَائِي ، وَمَشَتْ الرِّعْدَةُ فِي جَمِيعِ أَعْضَائِي ، وَاشْتَدَّتْ
ظُلُمَةُ اللَّيْلِ فَأَاكَدَ أَهْتَدَى إِلَى طَرِيقِي ، وَلَقَدْ حَدَّثَنِي نَفْسِي
لَشِدَّةَ مَا نَأْنِي مِنَ التَّعَبِ وَالْإِعْيَاءِ ، وَمَا مَلَأَ قَلْبِي مِنَ الْخَوْفِ
وَالْوَحْشَةِ ، أَنْ أَسْلَمَ نَفْسِي إِلَى كُنْفٍ مِنْ أَكْنَافِ الْمَضَابِ ،
أَوْ سَفْحٍ مِنْ سَفُوحِ الْجِبَالِ ، أَنْتَظِرُ فِيهِ مَنِيَّتِي حَتَّى تُوَافِقَنِي ، فَجَالَ
بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ أَنِّي أَرِيدُ أَنْ أَحْيَا لَكَ ، وَأَتَوَلَّى شَأْنَ سَعَادَتِكَ
الَّتِي عَاهَدْتُكَ عَلَى أَنْ أَتَوَلَّاها لَكَ ، وَأَنِّي إِنْ قَتَلْتُ نَفْسِي قَتَلْتُكَ
مَعِي ، فَبَعَثَ ذِكْرُكَ فِي نَفْسِي قُوَّةً غَالِبَتْ بِهَا الطَّبِيعَةُ عَوَاصِفَهَا
وَأَتَوَجَّهْتُ ، وَبَرَوْقَهَا وَرَعُودَهَا ، حَتَّى بَلَغْتُ الْمَنْزَلَ بَعْدَ لَيْلٍ ،
فَسَقَطْتُ مَرِيضَةً مُخْمُومَةً

وَلَقَدْ كَابَدْتُ فِي مَرَضِي شِدَّةً عَظِيمًا لَمْ أَرَ مِثْلَهَا فِيمَا مَرَّ بِي
مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِي ، حَتَّى دَبَّ الْيَأْسُ فِي نَفْسِي دَيْبَ الْمَنِيَّةِ
(١١ - ماجدولين)

في الأجل ، وظننت أني لا بد هالكة ، وأني لا أراك بعد اليوم ، فلم
 يكن يحزنني في تلك الساعة شيء سوى أنك ستسمع بخبر موتي
 ولا تسمع معه أنك كنت الانسان الوحيد الذي كنت أفكر
 فيه في ساعتي الأخيرة ، فحاولت أن أكتب اليك كتاب وداع
 أثبتك فيه بعض شأني فلم أستطع ؛ ثم شعرت في فترة من فترات
 السكون التي تتخلل سكرات الحمى اني أستطيع النهوض من
 فراشي ، فكتبت اليك كتاباً أوصيتُ لك فيه بجميع ما تملك
 يدي ، وما تملك يدي الا كتي ومحفظة رسائلِك والخطام الذي
 نسجته من شعرك وذخيرة من الذهب ورثتها عن أمي وهي أعز
 الأشياء عندي وكيساً صغيراً يشتمل على بعض قطع فضية وذهبية
 مما كنت أستفضله من نقاتي ، ثم طويتُ الكتاب وأعطيته
 لجنيفاف لتوصله إليك بعد موتي ، ولكن الله كان أرحم بي وبك
 من أن يحرمني منك ويفجعك بي ، فددت الي يد معونته وإحسانه
 واستنقذني من مخالب الموت فحمدت له منته ونعمته ، ولقد
 بكيت كثيراً عند ما أعدت النظر في تلك الوصية المكتوبة لأنني
 تمثلتُ حزنك وتفجعك وخيبة آمالك لو قدّر لك أن تقرأها ،
 فرثيتُ لك مما بك وبكيت لبكائك
 رجائي عندك يا استيفن أن تكتب إلي عنوان أخيك

في الجيش لانى أريد أن أبعث اليه بهدية أخطب بها وده إكراماً
لك ، فقد أصبحت أحبه من أجلك حبا كثيراً ، وأتقرب بفرح
وسرور ذلك اليوم الذى يضمنا وإياه بيت واحد تحت سماء واحدة
لا يحزنك يا استيفن ما قصصت عليك ، فتلك حادثة ماضية
قد ذهبت وانقضت ، ولم يبق منها فى نفسى حتى آثارها ، فليذهب
الماضى بخيره وشره ، وليأت لنا المستقبل بما نريد

٣٣

من استيفن الى ماجدولين

عفا الله عنك يا ماجدولين ، أ كنت تظنين أنى أستطيع أن
أحيا من بعدك ساعة واحدة أتمتع فيها بالحياة وطبيها ، والدنيا
ونسيمها ، فأوصيت بما أوصيت به الى ؟
إنك لا تعلمين انك روحى التى أحيا بها فى هذا العالم ،
ودنياى التى أتنسم فيها رائحة السعادة والهناء ، وأن اليوم الذى
يخلو فيه مكانك من الدنيا هو آخر عهدي بالعالم وما فيه
متى أهدي الميت إلى الميت ! وأوصى القبر إلى القبر ! ومتى
عاش المحب بعد فقد حبيبته ساعة واحدة ! أو هينئت له لحظة
من لحظات عيشه إن قدر له أن يعيش من بعده ؟

إن لي في الحياة كما للناس أمانى كثيرة ، وبودى لو استطعت
أن أبيعها جميعها بأمنية واحدة ، وهى أن أموت يوم أموت بين
ذراعيك ، ملقياً رأسى على صدرك ؛ شاخصاً بعينى الى وجهك
المشرق الجميل ، وأن يكون صوتك آخر ما أسمع من الأصوات ،
وصورتك آخر ما أرى من الصور ، عالماً أن من يموت ميتة
كهنه تفتحت له أبواب السماء ، واتصلت سعادة دنياه بسعادة
آخره ، فلا يشعر بشقاء الموت ، ولا ما بعد الموت

هنيئاً لك إبلاؤك من مرضك ، وشكراً لله على صنيعته عندك
فى شقائك ، وصنيعته عندى فى حفظ حياتك لى ، وما أحسبُ
أن الله أراد بى أو بك سوءاً فيما كان ، ولكنه يتلينا اليوم
لنعرف مقدار ما يستقبلنا به من السعادة غداً

سأكتب لأخى « أوجين » بشأن الهدية التى أزمعت أن
ترسلها اليه ، وانى شاكر لك شكراً جزيلاً عطفك عليه وحبك إياه
أما عنوانه فهو « الفصيلة الثالثة من قسم الجياد الخفيفة فى
جيش الحدود »

٣٤

الخط

مر الشتاء واستيقظن يختلف إلى أستاذه «هُومِل»، وأستاذه
يسعى له يسعى المجد الملح فلا ينجح ، حتى أوشك أن ينفد ما كان معه
من المال ، ولم يبق في يده منه إلا بقية غير صالحة لا يعلم ما هو
صانعٌ بعدها ، فلم يجد له بداً من أن يأخذ نفسه بالتقتير ،
ويحمل عليها في العيش حملاً شديداً ، فأكل التافه من الطعام
ولبس الخلقان من الثياب ، وغنى بالأكلة عن الأكلتين ، وبالخبز
عن الأدم ، وكان يقول في نفسه كلما برحت به الفاقة ، واشتدت
به ضائقة العيش ، لقد قال لى عمى : إن من كان قتي قوياً مثلك
لا يحمل به أن يعيش حالة على أهله وذويه ، وهأنذا على فتوتى
وقوتى أكاد أموت جوعاً ، فأقصى قلوب قومي ، وما أبعدا الرحمة
عن أفئدتهم ، لقد كان في استطاعتهم أن يقبلوني عندهم ضيفاً عما أو
عامين حتى يفتح الله لى باباً من أبواب الرزق فأرحل عنهم ، أو
أن يهينوا لى قبل أن يطردوني من بينهم ملجأً أعتصم به فى
المكان الذى طردوني إليه حتى لا أموت ميتة الغرباء المشردين
وكان أكبر ما يحزنه من أمر فاقته أنه وعد ماجدولين
بالسعى الى الثروة والنجاح فيها ، وملا قلبها ثقة وأملها فى المستقبل ،

وان فشله إن قُدر له الفشل سيقتلها ، ويلقى بها في مهواة اليأس
والشقاء ، فرثى لها وأشفق عليها إشفاقاً عظيماً ، وودّ لو صالحت
حياته لأن تكون ثمناً لسعادتها فبذلها في سبيلها ثم رحل عن
الدنيا طيب النفس عنها ، وعن جميع آماله وأمانيه فيها

واقدمر به يوماً في بعض مواقفه بجانب بعض الجدران فرى
رذى الهيئة سيء الحال ومد إليه يده يسأله بعض المعونة فزوى
وجهه عنه حياءً وخجلاً ، فقال له الفقى اقسم لك بالله ياسيدى أنى
تركت زوجتى ورأى ما تطيق الوقوف من الطوى ، واقدمر بي
وبها يومان مانجد ما تنبئ به الا البكاء والدموع ، فانتفض استيفن
انتفاضة شديدة والتفت اليه وقال له : أنحب زوجتك كثيراً أيها
الفقى ؟ قال نعم ياسيدى كما أحب حياتى ، فأطرق برأسه هنيهة وظل
يقول في نفسه ، انه يستعدى^(١) عطف الناس ورحمتهم على جوع
زوجته وطواها ، والناس لا يعطفون ولا يرحمون ، ولوعقل لعلم
انه يسألهم حقاً من حقوقه المقدسة لا يعترضه من دونه معترض
إلا استحلّ دمه ، ومشى على جسده اليه ، فلا جريمة في الدنيا أكبر
من أن يرى الانسان المرأة التى يحبها تموت بين يديه جوعاً فلا
يفعل شيئاً أكثر من أن يغمض عينيه ويسجّتها بثوبها ، ثم

(١) استعدى فلان فلاناً على فلان طلب اليه أن يعديه عليه أى ينصفه منه

يجلس بجانب سريرها يبكيها ويندبها ، ومديده إلى جيبه فأخرج
كل ما كان معه من المال فأعطاه الفتى صامتا ، ومشى في طريقه
وهو يقول لقد أنقذتهما من مخالب الجوع بضعة أيام ، وأسأل الله
أن يقيض لهما من يتولى شأنهما بعد ذلك
وكذلك عاد استيفن إلى مأواه وهو لا يملك من متاع الدنيا
حتى قوت يومه

٣٥

من ماجدولين إلى استيفن

مرت بي اليوم صديقتي سوزان وهي عائدة من مصيفها إلى
كوبلانس فانتبخت بزيارتها اغتباطا عظيما وتمنيت أن لو كنت
حاضرا بيننا لتراها فترى أجمل الفتيات وجها ، وأرقهن شمائل ،
وأعذبهن حديثا ، وأجمعهن لأفضل الصفات وأكرمها ، فهي تنطق
بلغات كثيرة ، وتحسن الرسم والتصوير ، وتوقع على جميع أنواع
الأوتار ، وتغنى غناء ساحرا فتانا ، ولها لغز وضاء لا يفارقه الا بتسام
لحظة واحدة ، ولا يطربها في الحياة شيء مثل مناظر اللهو
واللعب ، ولا يعجبها حديث مثل حديث المحافل والمراقص ، وقد
أصبحت مفتتنة بها لا كأذا صبر عنها لحظة واحدة ، ورجأت إليك
يا استيفن أن تحبها كما أحبها ، وأن تتودد إليها كثيرا يوم تراها .

لم يبق في الصحيفة موضع أكتب اليك فيه شيئاً سوى
أن أقول لك « إني أحبك »

٣٦

من استيفن الى ماجدولين

سأحب صديقتك يا ماجدولين كما أمرت ، ولكن ليس
لأنها جميلة فأنه كما تقولين ، فقد ملاً جمالك فضاء قلبي فلم تبق فيه
بقية لسواك ، ولا لأنها ترقص أو تغنى ، فإن نفسى الحزينة لا يشفيها
من دائها إلا أحد الأمرين ، إما لقاءك ، أو الموت ، بل لأنها تؤنس
وحشتك ، وتخفف آلامك ، وتعينك على احتمال أعباء الحياة
وأثقالها ، فاشكريها عنى شكراً جزيلاً ، وبلغها تحيتى وسلامى
لا يزال الدهر عابساً فى وجهى ، ولكننى صابر محتمل ،
لا أياس ولا أستسلم ولا تفترلى همة حتى أنال بغيتى والسلام

٣٧

من أوجين الى استيفن

وصلت إلى هدية السيدة ماجدولين فشكرت لها صنيعها
شكراً جزيلاً ، ولقد أصبحت بفضل هديتها صاحب رداء جديد
كنت فى أشد الحاجة اليه ، وكانت يدي تقصر عنه ، فابتعته
وأصبحت نخوراً مختالاً به بين أترابي وعشرائى ، فبلغ صاحبة الهدية

شكرى ، وأرجو أن أراها في عهد قريب فأجزئها خيراً بما فعلت ،
فإن عجزتُ عن ذلك فلا أعجز عن أن أحدثها عن الوقائع الغريبة
التي شاهدتها أحاديث جميلة عذبة تملأ قلبها غبطة وسروراً
شاهدتُ بالأمس أول وقعة من وقائع الحرب فجزعتُ عند
الصدمة الأولى ، ولكنني ما لبثتُ أن سمعت صهيل الخيل وقرع
الطبول وأزيز الرصاص وأنغام الموسيقى الحربية حتى انتشيتُ
واندفعت بجوادي اندفاع السيل المنهمر لأشعر بشيء مما حولى ،
ولا أرى إلا بريق سيف في يدي ، ولقد امتلأت نفسي غبطة
وسروراً عند ما رأيت جيش العدو يتقهقر أمام جيشنا ، حتى خيل
إليّ أنني أنا الذي زحزحته وحدي عن مكانه وألجأته إلى الفرار ،
وقد عرف قائدي فضل ما أبلّيتُ في هذه المعركة فرقاني إلى
درجة « صف ضابط » ولى أمل أن أعود إليكم في عهد قريب
باسم « الضابط أوجين »

٣٨

من استيفن الى ماجدولين

قد ابتسم لي الدهر قليلاً يا ماجدولين ، فقد زارني أستاذي
بالأمس في الخان الذي أنزله بعد ما انقطعتُ عن زيارته بضعة
أسابيع لأمرماً وبشرني أنه وجد لي عملاً في بعض المدارس
(١٢ — ماجدولين)

الصغيرة بوظيفة شهرية قليلة ، وقال لى إن مدير المدرسة وعده أن
يضاعفها لى ضعفين بعد ثمانية شهور ، فحمدت الله على ذلك
لأصعب فى الحياة يا ماجدولين غير الخطوة الأولى ، فاذا
خطاها المرء هان عليه ما بعدها ، فلهنأ منذ اليوم باللقاء ، ولنغبط
بالسعادة التى طالما تمنيناها حتى بلغناها

٣٩

من ادوار الى استيفن

لا يزال النزاع قائماً بينى وبين عمى ، يأبى إلا أن أعيش
عيش المقلين ، وآبى إلا أن أتمتع بمالى الذى ورثته عن أبى كما أحب
وأشتهى ، ولا أدرى ما الذى يعينه من الحرص على مال يعلم أنه
ليس له ، وأن مصيره مهما طالت الأيام لصاحبه ، ولكنها خلة
البخل الأشرع ، لا يقع فى أيديهم شئ من مالهم أو من مال
غيرهم حتى تلتوى أصابعهم عليه التواء الحية على العصا ، ثم
لا يفلت منها بعد ذلك ، فتلهم كمثل الحبال التى تنطبق حافتها
على كل ما يدنو منها ، وإن لم تجن لنفسها من وراء ذلك شيئاً
على أنها أيام قلائل ستنقضى ، وسأبلغ سن الرشد بعد
بضعة شهور ، فلا يبقى له ولغيره على من سبيل
ألمت ببعض شأنك الحاضر ، وعلمت أن أهلك قد

تقموا منك مخالفتك إياهم ، وعصيانك أمرهم ، فوكلوك إلى نفسك ،
ونفضوا أيديهم منك ، فتركت لهم كوابل أنس وسافرت إلى جوتنج
تطلب لنفسك فيها الرزق من طريق العمل ، فلم يوافقك حتى
اليوم ما تريد ، فليت الذي كان يا صديق لم يكن ، وليت أنك أخذت
بذلك الرأي الذي رأيته لك من قبل وسلكت إلى الحياة طريقاً
غير هذا الطريق الخيالي الذي تسلكه اليوم ، فزوجت من الفتاة
التي اختاروها لك ، وظفرت بنعمة العيش في ظلالها ، فلا سعادة
في الدنيا يا صديق غير سعادة المال ، وكل ما في أدمغة البشر من
علم وعقل ، وما في أجسامهم من قوة وأيدٍ ، وما في نفوسهم من
فضائل ومزايا ، إنما سبيل للمال ، وذرائع إليه
أهديك تحيتي وسلامي ، وربما زرتك في جوتنج في عهد
قريب ، فقد ضقت ذرعاً بذلك الرجل وأصبحت لا أطيق البقاء
معها لحظة واحدة في بلد واحد

٤٠

من استيفن الى ادوار

لا تعيب علي يا صديق إن قلت لك إن لي في الحياة رأياً
غير رأيك وغير ما يراه الناس جميعاً
إنني لا أعرف سعادة في الحياة غير سعادة النفس ، ولا أفهم
من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة ، فإن تمت بدونه

فلا حاجة إليه ، وإن جاءت بقليله فلا حاجة إلى كثيره
ماذا ينفعني المال وماذا يغني عني يوم أُقَلَّبُ طرفي حولي فلا
أرى بجانبى ذلك الانسان الذى أحبه وأوثره ، وأرى فى مكانه
إنساناً آخر لا شأن لى معه ، ولا صلة لقلبي بقلبه ، فكأننى وأنا
خال به خال بنفسى منقطع عن العالم وما فيه

إن الرجل الذى يتزوج المرأة لما لها إنما هو لص خائن ، لأنه
إنما يأخذ ما يأخذ من مالها باسم الحب وهو لا يحبها ، وعاجز
أخرق ، لأنه قعد عن السعى بنفسه لنفسه فوكل أمره إلى امرأة
ضعيفة تقوته وتموته ، وساقط المروءة متبذل ، لأنه يأجر جسمه
للنساء ، كما تأجر البغى نفسها للرجال ، ليستفيد من وراء ذلك قوته
نعم ، إننى بأئس فقير كما تقول ، ولكننى أسعى لنفسى سعى
المجدِّ الدؤوب ، وقد بدأت أُنْجِجُ فى مسعى منذ الأَمْس ، فقد
حصلت على وظيفة صغيرة ستكون كبيرة فيما بعد ، واستأجرت
لى غرفة بسيطة فأصبحت ذا مسكن خاص ، وسينتهى يؤسى
وشقائى ، وأنال السعادة التى أَرْجُوها ، وسيكون أعظم ما أغتبط
به فى مستقبل حياتى أننى أنا الذى صغت إكليل سعادتى بيدي
أُحييك يا ادوار ، وأرجو ألا تعيب علىَّ فيما قلت لك ،
ولعلك تقي بوعدك لى فأراك فى جوتنج فى عهد قريب

غرفة استيفن

سكن استيفن بعد حصوله على وظيفته الجديدة في غرفة صغيرة طولها عشرة أقدام وعرضها سبع ، ووضع فيها سريراً من خشب ومنضدة عارية يكتب عليها ليلاً ، ويأكل عليها نهائياً ، وكرسيين مختلفي الحجم والشكل ، يجلس على أكبرهما وأصلحهما شأنًا ، ويضع حقيبة ملابسه على الآخر ، ومنصبًا للطبخ ، وجرة للماء ، وبعض آنية أخرى ، وكان لغرفته كوة تشرف على سطوح منازل قديمة مهجورة لا يسكنها أحد ، فلما أشرف منها ورأى ذلك المنظر الموحش اشمأزت نفسه قليلاً ، ثم قال لا بأس ، فذلك خيرٌ لي من أن يطلع على خلتي أحد ، ثم لمع على البعد دوحة عظيمة مورقة في بعض المنازل القاصية فقال : تلك هي الروضة التي أفتح عليها نظري كل صباح ، وهل يتمتع صاحبها الذي يملكها ويتعهد بها بأكثر من ذلك ، ثم رأى على مقربة منه كنيسة صغيرة فقال في نفسه : أرجو أن تساعدني دقات ساعتها على معرفة المواقيت ، ثم مالبت أن سمع رنينها فأخذ يعدّها فرحاً مبهجاً وهو يقول : لن أشتري ساعة بعد اليوم وكذلك اغتبط استيفن بمسكنه الجديد على صغره وحقارة

شأنه اغتباطاً عظيماً ، لأنه أول مسكن نزل فيه عند نفسه ،
وابتاع أثاثه وأدواته من ماله ، وظل يقول في نفسه : في المسكن
الخاص يستطيع المرء أن يكون حراً في قيامه وقعوده ، وجلوسه
واضطجاعه ، ونومه على الهيئة التي يريد ، لا يتكلف ولا يتعمل ،
ولا يجامل الناس ولا يرائيهم ، ولا يضع نفسه في القالب الذي
يصنعونه له ، فيرفع يده في الهواء بغتة دون أن يخاف وقوعها على
وجه أحد ، ويستعين بتقليب يديه وتحريك رأسه على النظر
والتفكير دون أن يسميه أحد مجنوناً أو مختبلاً ، ويمد قدميه
في الناحية التي يريد ، لا يخشى محاسباً يحاسبه على الأدب أو يلاحيه
في قواعده وأصوله ، أي أنه يكون فيه على الصورة التي خلقه
الله عليها ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً

وكان لابد له من أن يعيش عيش الإقلال والتقدير ، فلم
يلاق في ذلك عناء عظيماً ، لأنه كان قنوعاً مجتزئاً فقسّم دخله بين
نفقات طعامه وشرابه وملبسه وأجرة مسكنه ووفاء ما عليه من
دين الاثاث الذي ابتاعه ، وعاش عيشة هادئة ساكنة لا يكدرها
عليه مكدر ، لأنها كانت مملوءة أملاً ورجاء

جلس استيقن في غرفته غداة يوم من أيام الآحاد، وهي الأيام التي يشعر فيها بالراحة من عناء الدرس ونصبه، فسمع خفق نعل ثقيلة على السلم يختلف صوتها عن صوت نعل جارتها العجوز التي كانت تختلف إليه من حين إلى حين لئلا له جرة الماء من البئر، فدهش وتسمع فاذا القادم يصيح باسمه صياحاً عالياً، فخيل إليه أنه يعرف صاحب هذا الصوت، فابتدر الباب ففتحه فاذا صديقه « ادوار » فاتبهج بمرآه وعانقه عنفاً طويلاً، وقال له: لقد وفيت بوعدك أيها الصديق فلك الشكر على ذلك، ولقد كنت أقرب حضورك ترقب المقرور أشعة الشمس، والظامئ ديمة القطر، فقال له سأنزل عندك في غرفتك هذه الصغيرة ضيفاً شهرين أو ثلاثة، وهي المدة الباقية لي على بلوغ سن الرشد، ولقد اشتد النزاع بيني وبين عمي حتى أصبحت لا أطيعه ولا يطيقني، ففارقت منزله وأقسمت ألا أرى وجهه حتى تنتهي قضية الوصاية التي بيني وبينه، ثم دخل وهو يقول ما أجمل هذه الغرفة وأبدع شكلها، إنها أوسع مما كنت أظن، وأجمل مما كنت أقدر، وعمد إلى حقيبتة ففتحتها وأخرج منها زجاجة عطر ومشطاً وبضعة

مناديل من الحرير وقدمها هدية إلى استيفن ، فقبلها منه شاكرًا
ثم قام استيفن إلى شريحة لحم كان يُعدها لطعام الغد فاشتواها
ووضعها على المائدة ووضع بجانبها زجاجة من الخمر وقطعة من
الخبز ثم أخذًا ياك لان ويتحدثان ويتذكران أيام طفولتهما
الماضية ، وكذلك قضايا بقية يومها مسرورين مغتبطين حتى أتت
ساعة النوم ففرش استيفن لنفسه حشيشه في بعض جوانب الغرفة
وترك السرير لضييفه وناما

ولما أصبحا أعطى استيفن لادوار قبل ذهابه إلى المدرسة
جميع ما كان معه من المال وقال له إن وظيفتي في الشهر مائتافرنك
أنفق منها على الطعام والشراب ستين ، وأحفظ الباقي لأجرة الغرفة
وسداد دين الاثاث الذي ابتعته ، وقد أنفقت منها خمسين فرنكا
في الأيام العشرة الماضية ، وهاهو ذا الباقي فتول أنت إنفاقه ، فأنت
رب البيت منذ اليوم وصاحب الشأن فيه ، ثم تركه ومضى ، فلم
يلبث ادوار أن نزل إلى السوق فاشتري لحمًا وخبزًا وتوابل
وفاكهة وخمرًا ، وأنفق في سبيل ذلك اثني عشر فرنكا ، وجلس
يطبخ ويستوى حتى انتصف النهار وحضر استيفن فقال له :
ما هذا يا ادوار ؟ أوليمة هي ؟ قال نعم وليمة الاحتفال بقدمي ، فابتسم
استيفن وقال له لقد أحسنت فيما فعلت ، وذكريني بما كنت

عنه لاهيا، وجلس يؤا كله حتى فرغا من الطعام، فقال له ادوار
أرى أن الغرفة تنقصها بضعة أشياء لا بد لنا منها، فائذن لي
بمشتراها، وأعدك ألا أبتاع إلا ما لا بد لنا منه، وألا أنفق في
سبيل ذلك إلا ثمنًا قليلا، فقال له لك ما تريد، فخرج ثم عاد بعد
ساعة يقتاد كلبا أسود ضخما ووراءه حمال يحمل له مرآة كبيرة
ومشجبا للثياب وهو يقول: ما أقبح الغرفة التي لا مرآة فيها،
وما أشد وحشة البيت الذي لا ينبع فيه كلب، على أنى لم
أنفق في جميع ما ابتعته أكثر من عشرين فرنكا، وأظنك
ترى يا استيفن كما أرى أنها صفقة رابحة نادرة قلما يتفق مثلها
لأحد، فضحك استيفن وقال له ما أعذب جنونك يا ادوار! قال
وهل تطيب الحياة بغير جنون؟

وكذلك لم يأت اليوم العشرون من الشهر حتى صُفرت
أيديهما من النقود، ولم يجذ عليهما الكلب ولا المشجب ولا المرأة
شيئا؛ فقال استيفن ما العمل يا ادوار؟ قال الأمر أهون مما تظن،
وسأرى لك الرأي الذي ينفعنا، ثم تركه وخرج وعاد بعد قليل
يصحبه أحد الحمالين ورجل آخر من تجار الأثاث، فوقف على
عتبة الغرفة وقال للرجل خذ هذا السرير فانه يضابق الغرفة كثيرا،
ولا ظهر أثبت تحت جسد النائم من ظهر الأرض، وخذ هاتين

الوسادتين الزائدتين، فالوسادة الواحدة إذا تُنيت تكفي صاحبها،
ثم نظر إلى استيفن وقال له: أليس كذلك يا صديقي؟ فانتبه
استيفن وكان مُكباً على منضدته يكتب كتاباً إلى ماجدولين ففهم
كل شيء، وقال بلى يا ادوار، قال أظن ان زجاجاً رقيقاً كزجاج
هذه النافذة يبقى طويلاً على هذه الرياح العاصفة في هذا الشتاء
الشديد؟ قال لا، قال أليس من الحزم أن ننتفع بشئ منه بدلاً من
أن نتركه تُعبث في أيدي الرياح تعبت به ما تشاء؟ قال ذلك
هو الرأي، فشى إلى النافذة فانتزع ألواحها واحداً بعد آخر
وأعطاهما الجمال، ثم قال له: وهل ترى أننا في حاجة إلى مثل هذا
الغطاء الثقيل في مثل هذه الغرفة الضيقة؟ قال لا، فأمر الجمال
بحمله، ثم قال له: وهل تضع في هذه الخزانة شيئاً تخاف عليه أن
يسرق، فضحك استيفن وقال له لو كان عندي ما أخاف عليه لم نصر
إلى ماصرتنا إليه، قال إذن ما بقاء هذا القفل فيها، ثم مديده إليه
فانتزعه من مكانه، وظل يقلب نظره في الغرفة حتى وقع على المنضدة،
فدُعر استيفن وقال له انتظري يا ادوار لا تمسسيها حتى أتم رساتي،
فضحك وقال: إني أتركها لك إكراماً لماجدولين، وأخذ
يساوم الرجل في ذلك الأثاث حتى باعه منه بثلاثين فرنكاً، ثم
عاد إلى استيفن وقال له ماذا ترى فيما تم؟ قال أرى أن تُعطيني

هذا المال الذى معك لا تولى إنفاقه بدلا منك ، فانك لا تستطيع ان تكون حازما ، قال أظن أننا قد بدأنا نختلف يا صديق ، لأنك نُحِبُّ التقدير وهو لا يعجبني ، وأنا أحب السعة وهى لا ترضيك ، خير لى ولك ان نقسم راتبك بيننا قسمين ، وان يعيش كل منا وحده بالقسم الذى يصيبه ، وصمت هنيهة ثم قال : على ان افترقنا فى المعيشة لايتم الا إذا افترقنا فى السكن ، فليختص كل منا بجهة من الغرفة مستقلة عن جهة صاحبه ، وهأنذا أقسمها بيننا قسمة عادلة ، ثم عمد الى قطعة من الجص وخطبها وسط الغرفة خطا مستطيلا ، وقال هذا قسمي أنا وكلبي ومرآتي ومشجبي ، وهذا قسمك وحدك ، وهو خير من قسمي وأكثر منه مرافق ومنافع ، لان فيه المنصب الذى تطبخ عليه طعامك ، والمنضدة التى تكتب عليها رسائلك ، والنافذة التى تمد فى فضاءها ذراعاك كلما اردت ان تلبس قميصك أو معطفك ، فأغرب استيفن فى الضحك وخرج لشأنه وترك له الغرفة يفعل فيها ما يشاء وكذلك استمر ادوار ينقص على استيفن عيشه ، واستيفن لا يعضب ولا يشكو ، بل لا يشعر بألم ولا ضيق ، لأنه كان صديقه وكفى

خرج ادوار ذات يوم يرتاض في بعض أطراف القرية ،
وبقي استيفن وحده يدون في دفتره بعض لغات موسيقية لدروس
الغد ، وانه كذلك إذ سمع على السلم خفق نعال كثيرة وأصواتاً
مختلفة وصياحاً عالياً ؛ فدهش وقام إلى الباب ففتحه ، فاذا رجل
طويل القامة عريض الكتفين يلبس لباس عمال المناجم تشتعل
عيناه ناراً ويتدفق الزبد من شفتيه وقد أمسك بيده سيفين
عريضين ، فلما وقع نظره على استيفن قال له أنت المسمى ادوار ؟
فعلم استيفن أن الرجل يريد بصديقه شراً وأنه لا يعرف شخصه ،
فأشفق عليه منه وأراد أن يعرف ما تروته^(١) عنده فقال له نعم أنا هو
فاذا تريد مني ؟ فابتدره الرجل بلطمة على وجهه أظلمت لها عيناه
وقال له لعل شجاعتك التي دفعتك الى مغازلة زوجتي وانتهاك
حرمة بيتي والعبث بشرفي لا تفارقك في هذه الساعة حين
أدعوك إلى مبارزتي على ضفاف هذا النهر ، وهاعم أولاء شهد المبارزة
فليختر كل منا من يشاء منهم ، فأخذ استيفن منه السيف صامتاً
وقد فهم كل شيء ، وكان مُلمّاً ببعض الامام بقصة ادوار مع زوج

هذا الرجل ، وأشفق عليه أن يصيبه من تلك المبارزة ، لأنه
كان يعلم أنه لم يجرّد في حياته سيفاً قط ، فشى مع خصمه صامتاً
لا يقول له شيئاً حتى بلغا ضفة النهر وجردا سيفيهما للقتال ، وهنا
ذكر استيفن ماجدولين وود لو استطاع أن يكتب إليها كلمة
وداع فنظر إلى الشهود وقال : هل أجد مع أحد منكم بطاقة
صغيرة ؟ فأعطاه أحدهم ما أراد ، فكتب هذه الكلمة الموجزة « إني
أموت في مبارزة شريفة وأنت آخر من أفكر فيه فالوداع
يا ماجدولين » وكان أحد الملاحين واقفاً على مقدمة سفينته بجانب
الضفة فرأى استيفن وهو يكتب كلمته ثم رآه وهو يقلب نظره
حوله يفتش عن رسول يبعث بها معه ، فأثر منظره في نفسه
وتقدم نحوه وقال له ائذن لي ياسيدي أن أحمل رسالتك إلى من
تريد ، فشكر له استيفن صنيعه وأعطاه الرسالة بعد ما كتب
عنوانها على ظهرها ، ثم شرع في المبارزة فكانت يده فيها أعجز
من يد خصمه ، ففرح بعد بضع ضربات في ذراعه جرحاً بليغاً ،
فوقف الشهود المبارزة وتصافح الخصمان والملاح لا يزال واقفاً
في مكانه ، فقال له استيفن وهو ساقط على الأرض بصوت ضعيف :
مزق الرسالة التي معك فلا حاجة إليها الآن ، فزقها الرجل ودنا
منه فأخرج من جيبه منديلاً فمضب به ذراعه ، ثم أنهضه من مكانه

وأخذ بيده وظل سائراً معه حتى صعد به إلى غرفته ، فأضجعه
على فراشه وجلس بجانبه يضمه جرحه ويواسيه

٤٤

الصدقة

جلس ادوار إلى صديقه في الليلة التي عزم على السفر في غدها
وكان جرحه قد أشرف على البرء ، وقال له لقد سجلت لنفسك
بدمك يا استيفن في صفحة قلبي نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ،
كما لا أنسى لك أنك وأنت في أشد حالات بؤسك وضيقك قد
آوتني وواسيتني أياماً طوالاً ، واحتملت لي ما لا يحتمله أخ لا أخيه ،
ولا حميم لحيمه ، فلو أنني جمعت لك في يوم واحد جميع ما كفا
به الناس بعضهم بعضاً على الخير والمعروف مذُخلت الدنيا حتى
اليوم لما جازيتك بعض الجزاء على الخير الذي صنعت ، فقال له
استيفن إنني لم أسد اليك يداً تستحق مكافأة ، ولكنك صديقي ،
والصدقة آثار طبيعية تتبعها وتنبت وراءها جريان الماء
في منحدرة ، فإن كنت لا بد شاكراً فاشكر الصدقة التي ظلمتنا
بجناحيها مذ كنا طفلين صغيرين ، والبؤس الذي لف شمل بشمك ،
وخلط نفسي بنفسك ، وحوّل قلبينا القريحين الكسيرين إلى
قلب واحد ، وإن قدر لك يوماً من الأيام أن تمد يدك لمعونتي

فليكن ذلك منك اذعاناً لرحمة قلبك وحنانه ، لا مكافأة على خير ،
ولا مجازاة على معروف

إننى شقيٌّ مذولدت يا إدوار ، فأنا أحب الأُشقياء وأعطف
عليهم ، لأننى واحد منهم ، ولا صداقة فى الدنيا أمتن ولا أوثق من
صداقة الفقر والفاقة ، ولا رابطة تجمع القلبين المختلفين مثل رابطة
البؤس والشقاء ، فلو أننى خيرت بين صحبة رجلين ، أحدهما فقير
يضم فاقته إلى فاقى فيضاعفها ، وثانيهما غنى يمد يده لمعوتى
فيرفه عنى ما أنا فيه من شدة وبلاء ، لآثرت أولها على ثانيهما ،
لأن الفقير يتخذنى صديقاً ، والغنى يتخذنى عبداً ، وأنا إلى الحرية
أحوج منى إلى المال

يظن السعيد دائماً أن السعادة التى يمرح فى ظلها إنما هى
منحةٌ سمويةٌ قد آثره الله بها من دون عباده جميعاً لفضيلة
كامنة فى نفسه لا يشاركه فيها غيره ، ولا يعرفها الله لشخص فى العالم
سواه ، وليس فى استطاعته أن يتصور بحال من الاحوال أن
السعادة عارية من عوارى الدهر ، يأتى بها اليوم ، ويذهب بها
غداً ، ولعبة من الألعاب ، يختلف بها بين الناس أخذاً ورداً ،
ويداولها بينهم عطاءً وسلباً ، فتراه واثقاً بها ، مستتبها اليها ، ينطق
بذلك لسانه ، وتهتف به حركاته وسكناته ، وملامح وجهه ،

وابتسامات ثغره ، ومن كان هذا شأنه نظر إلى غيره من البائسين
 المحدودين ^(١) الذين لا يتمتعون في حياتهم بمثل متعته ، ولا
 يهنأون فيها بمثل نعمته ، نظر الشمس الساطعة إلى ذرات التراب
 المبعثرة على سطح الأرض ، فهو يمن عليهم باللفتة والنظرة ،
 ويحاسبهم على القعدة والقومة ، ويتقاضاهم إجلاله وإعظامه كأنما
 يتقاضاهم حقاً من حقوقه المقدسة التي لا ريب فيها ، فان أذن
 لأحدهم يوماً من الأيام أن يجلس في حضرته لايعجبه منه إلا
 خضوعه له ، واستخذاؤه بين يديه ، وتضاؤله أمام نظراته المترفعة
 تضاؤل الحمامة الساقطة تحت أجنحة النسر المخلّق ، ثم لا يجازيه
 على ذلك بأكثر من دعائه الى مائدته ، أو الانعام عليه بفضلة
 ماله ، أو خلقان ثيابه ، لايبعثه إلى ذلك باعث رحمة أو حنان ، بل
 ليريه فرق ما بينه وبينه في مظاهر الحياة وزخارفها ، وحظوظ
 الأيام وجدودها ، وليضيف إلى عنقه المثلّ بالآغلال الفقر غلاً
 جديداً من الذلة والاستعباد ، فاذا أراد المسكين أن يفضي
 اليه بهم من هموم قلبه وترويحاً عن نفسه ، وترفيهاً لآلامه ، أعرض
 عنه وبرّم به ، وخيل اليه أنه ما ذهب معه هذا المذهب في حديثه
 إلا وقد أضمر في نفسه أن يقاسمه ماله ، أو يساكنه في قصره ،

أو يشاظره نعمته وسعاده ، فلا يعزبه عن بأسائه بأكثر من أن يلومه على تبذيره وإسرافه ، أو على بلادته وغفلته ، ثم يختم حديثه معه بقوله : إن جميع ما يصيب المرء في حياته من بؤس وشقاء ليس الذنب فيه على القدر ، بل على قصور الانسان وجهله ، وعدم اضطلاعه بشؤون الحياة وتجاربيها ، وإن الله تعالى أعدل من أن يمنح نعمة جاهلها أو يسلبها مستحقها ، أى إنه يجمع عليه بين بليتين ، بلية الهم ، وبلية اليأس من انفراجه وانتقشاعه

لايستطيع الغنى أن يكون صديقاً للفقير ، لأنه يحتقره ويزدرجه ، فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها ، أو يصطنعه من أجلها ، ولأنه يشعر من نفسه باقتداره على احتمال أعباء الحياة وحده دون أن يعينه عليها معين من الفقراء أو الأغنياء ، أما صديق الفقير فهو الفقير الذى يصغى لشكاته إذا بثها إليه ، ويفهم معناها إذا سمعها منه ، ويعزبه عنها إذا فهمها عنه ، ويجعل له من صدره متكأً ليناً يلقى رأسه عليه وهو تعب مكدود فيجذفيه برد الراحة والسكون

لذلك أحبيتك يا ادوار واتخذتك صديقاً ، وكان الشقاء هو الوثيقة التى تعاقدنا فيها أن يكون كل منا عوناً لصاحبه على دهره ، ووجنة له من دون نكبات الأيام وأرزائها ، مهما تقلبت بهما
(١٤ — ماجدولين)

الأحوال ، أو فرقت بينهما الأيام
فأخذ ادوار بيد استيفن وأقسم له بكل مُخرِجة من الإيمان
ألا يهدأ له في حياته رُوعٌ ولا يثلج له صدر حتى يراه ظافراً من
دهره بالسعادة التي يريجوها ، ثم عرض عليه أن يضع بين يديه
جزءاً من ثروته التي صارت اليه فأبى ، وقال أما هذه فلا ، لأننى
لا أريد أن أشتري سعادتى فى دنياى الا بأشرف أثمانها

وفى الصباح مشى استيفن مع ادوار ليودعه حتى بلغا مكان
الافتراق فتعانقا طويلا وبكى استيفن أسفاً على صديقه ثم افترقا

٤٥

من استيفن الى ماجدواين

خرجتُ ليلة أمس أرتاض على شاطئ النهر فلما استقبلت
الفضاء شعرت أن أوراق الأشجار تضطرب اضطراباً سريعاً فى
خفوت وهمس ، وأن الهواء يمشى متثاقلاً مترجّحاً يتحامل بعضه
على بعض ، ورأيت قطع السحاب الضخمة السوداء تتنقل فى
صحراء السماء تنقل قطعان الفيلة فى غاباتها ، وخيل إلى أنى أسمع
فى أعماقها قعقة مبهمه تدنو حيناً وتنبأ أحياناً ، وكأنما قد راع
هذا الصوت الأجشّ طيور الماء ، وحشرات الأرض ، فرأيت

الطيور مرفرفة على سطح النهر تستبق إلى أوكارها ، والحشرات متعادية بين الصخور تنسرب إلى أحجارها ، ورأيت السواد قد صبغ كل شيء حتى لون الماء ، فقية السماء ورقعة الأرض والافق الذي يصل بينهما منجم أجوف عميق من مناجم الفحم يحاول البرق أن يجد له في جدران العاتية السماء منفذاً ينحدر منه إلى جوفه فلا يستطيع إلا الومضة بعد الومضة تعتلج بين طبقاته ولا تنفذه

ثم مالبت هذه الطبيعة الصامته الخرساء أن هدرت وزجرت فهبت الزوبعة من كل مكان تخط بيديها أوراق الأشجار فتطير بها كل مطار ، وتهز السقوف والجدران هزاً وتضرب بعضها ببعض ، ثم أقبل المطر يمزق قطع السحاب ويفتح لنفسه وللبرق طريقاً في خلالها ، ثم هي فسالت به الأودية والأرجاء ، وامتلات الأخاديد والأغوار ، وكنت على مقربة من كوخ صديقي « فرتز » وهو ملاح فقير أسدى إلى فيما مضى من الأيام صنعة لا أزال أحفظها له حتى اليوم ، فلجأت إليه فخيّل إلى حين دخلته أنه مقفر موحش ليس به أنيس ، ثم أضاء البرق فرأيت في داخله منظراً من أجل المناظر وأبدعها ، رأيت زوج الرجل وأولاده جاثين على أقدامهم خاشعين باسطي

أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى بدعوات جميلة يردّونها بصوت
شجي محزن خفيل إلى « ولا مصباح هناك ولا ضياء أنى أرى
إشراق وجوههم وتلاؤلها في هذه الدجنة الحالكة ، وأحسنت بي
المرأة فالتفتت إلى وقالت لم يعد « فرتر » حتى الساعة ، ونحن
نخشى أن يكون قد أصابه مكروه من أهوال تلك الليلة ،
فنحن ندعو الله تعالى أن يرده إلينا سالماً ، فأثر في نفسى هذا
المنظر تأثيراً شديداً ، وقلت في نفسى « ويل للذين يحاولون أن
يسلبوا أمثال هؤلاء المساكين إيمانهم و يقينهم ، إنهم يسلبونهم
حياتهم التى يحيون بها فى هذا العالم وكل ماتملك أيديهم
من سعادة وهناء » وشعرت بحزن شديد فى أعماق قلبى لحرماني
من مثل هذه السعادة النفيسة التى ينعم بها هؤلاء القوم ،
فجثوت بجانبهم أهتف بهتافهم ، وأدعو بدعائهم ، وأضرع إلى الله
أن يمنحنى يقيناً مثل يقينهم ، ولم أدر أن ما أنا فيه إنما هو اليقين
الذى أنشده ، وأضرع إلى الله فيه ، ثم رفعت رأسى فإذا فرتر
واقف على عتبة الباب ، فهرعت زوجته إليه تقبله وتنضو عنه
رداءه المبتل ، ودار أولاده به يلثمونه ويستقبلون لثامه الأبوية
الرحيمة ويستطيرون فرحاً به وسروراً ، ثم احتملوه جميعاً إلى المائدة
وجلسوا حوله يحادثونه ويسألونه عما كابد من أهوال هذه الليلة

وشدائدها ، وجلست على مقربة منه أسمع حديثهم ، وأستشف
سريرة نفوسهم ، فأخذ منظرهم هذا من نفسي مأخذاً شديداً ،
وكدتُ وما حسدتُ أحداً في حياتي على نعمة قط أن أحسدكم
على نعمتهم هذه ، وقلت في نفسي : زوجةٌ تحب زوجها وتبكي
رحمة به وإشفافاً عليه ، وأولادٌ يحثون على أقدامهم ويمدون
أيديهم إلى الله تعالى ضارعين أن يحفظ لهم حياة أبيهم ، وأبٌ
يبكي فرحاً برؤية أولاده بين يديه سالمين مغتبطين ، إنها السعادة
النفسية العالية التي لا تستمد بهجتها ورواءها من القصور والرياض
والأثاث والرياش ، والفضة والذهب ، بل من الحب الخالص ،
والود المتين

وكذلك سيكون شأننا في مستقبلنا يامجدولين ، فربما
كُتب لنا أن نعيش عيش الفقراء المقلتين ، ولكننا سنكون على
فقرنا وإقلالنا سعداء مغتبطين

لم يبق بيني وبين الحصول على تلك الزيادة التي وعدوني بها
إلا ثلاثة أشهر سأسافر من بعدها إليك في ولفاخ لأخطبك
إلى أبيك ، وأضع يدي في يدك ، فلا يبق للشقاء بعد اليوم إلينا
من سيل

٤٦

من ماجدولين الى استيفن

سافرت سوزان إلى كوبلانس وتركنتي حزينّة آسفة على
فراقها ، ولكنى سألحق بها عما قليل ، فقد وعدّها أبى أن نسافر
إليها بعد شهر واحد لنقضى عندها بقية أيام الشتاء ، وسأكتب
إليك عند وصولي لتتكون على بينة من ذلك ، فلعلك تجد السبيل
إلى موافقى هناك ، فأراك ولو على البعد والسلام

٤٧

من ماجدولين الى استيفن

وصلنا منذ ثلاثة أيام أنا وأبى إلى كوبلانس وزلنا ضيفين
في منزل سوزان وأنا مقبضة بلقائها وبالسعادة التى أجدها
في منزلها اغتباطاً عظيماً ، وقد أخبرتني اليوم أنها ابتاعت لنا
مقصورة في ملعب « الأوبرا » نذهب إليها مساء كل أحد ،
فهانحن أولاء قد وحدنا المكان الذى يمكننا أن نترأى فيه
أو نتلاقى إن استطعنا

فتعال إلى يا استيفن ، ولا يحل بينك وبين ذلك أنك ستترى
مرة ثانية وجه ذلك البلد الذى أبغضته واجتويته وخرجت منه
ناقماً عليه ، واغتفر كل شئ من أجلى

الحياة الجديدة

سافرت ماجدولين مع أبيها إلى كوبلانس ونزلت في ضيافة صديقتها سوزان فأدهشها منظرُ القصر وأبهاؤه وحجراته، وما يشتمل عليه من أثاث ورياش، وما يتلألأ في جوانبه من زخرف وآنية، وأعجبها منظر الوصائف في إقبالهن وإدبارهن، وما يترأى فيهن من ألوان الثياب وأنواع الأزياء، حتى خيل اليها وهي واقفة أمام المرأة تنظر إلى نفسها وإلى موقفهن بجانبها أنهن فوق أن يخدمنها أو يسمعن بين يديها، بل ربما تمثل لها أنهن يسخرون في أعماق نفوسهن بمنظرها، ومنظر ثيابها القروية القصيرة المخططة التي خاطتها بيدها، وكثيراً ما كانت تحدثها نفسها كلما بدت لها حاجة من الحاج أن تقوم إلى قضائها بنفسها خجلاً منهن وحياء، والله يعلم كم نالها في مبدأ أمرها من حيرة وارتباك كلما جلست إلى طعام أو شراب، أو شهدت مجمعا، أو حضرت ماعباً، ولم كبدت من عناء في صياغة نفسها على أوضاع تلك الحياة الجديدة التي انتقلت إليها حتى أسلست واستقادت

وكانت سوزان قد أعدت لها أنواع الأقمشة من حرير ومُخمل وخز وصوف وفرو ونخاطت لها خياطة ماهرة ثوباً للرقص، وآخر

للملعب ، وآخر للمائدة ، وقمّصاً للبيت ، وغلاّئل للنوم ،
فرقصت وغنت وأنست بمنظر الراقصات والمغنيات ، وتحدثت
بأحاديث فتيات كوبلانس ، وذهبت مذاهبهن في آرائهن
وتصوراتهن ، ولذّت لها هذه الحياة الجديدة لذة عظمى وملاّت
ما بين جوانحها حتى غلبتها على أمرها ، فتضاءل في نظرها كل
شئ في ماضيها إلا حبها لاستيفن

٤٩

الفتنة

دخلت ماجدولين على سوزان ذات ليلة في غرفها الخاصة
في القصر ، وهي غرفة بديعة فاخرة قد كسيت أرضها وجدرانها
بالقطيفة الحمراء المطرزة ، وأسبلت على نوافذها وأبوابها ستائر
حريرية بيضاء تتراعى في خلالها أسلاك الفضة اللامعة ، وتدور
في أطرافها ألوان الفصوص المتلاثلة وانتشرت في جوانبها وأركانها
المقاعد الثمينة ، والمناضد الجميلة ، وآنية الفضة والذهب ،
وأصص الريحان والزهر ، فرأت بين يديها صناديق صغيرة من
الفضة فقالت لها سوزان حين رأتها : لقد أرسل إليّ خطيبي اليوم
هدية الزواج فهل تحبين أن تريها ؟ قالت لا أحبّ إليّ من ذلك ،
ففتحت سوزان الصناديق أمامها واحد بعد آخر فاذا عقود ودمالج

وأساورُ وأقراطُ مصوغة أجمل صياغة وأبدعها ، مرصعة بأنفس
اللاكيء وأثنى الجواهر ، فدهشت ماجدولين لمنظرها وظلت تقلبها
بين يديها ساعة ، ثم تناولت قرطاً صغيراً من الماس فوضعتُه في
أذنيها ، فافتححت عليها سوزان أن تتقلد الحلية بأجمعها لترى
منظرها عليها ، ففعلت ووقفت بها أمام المراة وأقبلت بها وأدبرت ،
فقالت لها سوزان ما أحوج جالك يا ماجدولين إلى مثل هذه
الحلية ، وما أحوج هذه الحلية إلى مثل هذا الجلال ، وإني لآتني
على الله شيئاً سوى أن أراك خطيبة رجل من ذوى النعمة
والثراء يحبك ويستهم بك ، ويملاً فضاء حياتك هناء ورغداً ،
ثم أنشأت تصف لها قصراً بديعاً ابتناه لها خطيبها في إحدى
ضواحي كوبلانس وأعد لها فيه من أسباب النعمة والرفاهية ما لا
يعدُّ مثله أصحاب التيجان لنسائهم وحظياتهم ^(١) وختمت حديثها
بقولها ، وفردريك فوق ذلك فتى جميل ساحر لا تقع العين على
أبدع ولا أظرف منه ، وهو يحبني حباً شديداً ، ولا أحسب
أن الذى اضمر له من الحب أقل مما يضممر لى ، فأطرفت
ماجدولين هنيهة ولم تكن قد أفضت إلى صديقتها حتى الساعة
بسر حبه لا ستيفن ، ثم رفعت رأسها وقالت : هل تكتمين سرى

(١) الخطبة المرية المكرمة عند سيدها من الاحتفاء وهو النزول منزلة الكرامة

ياسوزان إن أفضيتُ به اليك ؛ قالت نعم ومن يكتمه إن لم أكتمه ،
 فقصت عليها قصتها مع استيفن و ذكرت لها ذلك العهد الذي
 أخذه كل منهما على صاحبه أن يعيش له ، وألا يفرق بينهما إلا
 الموت ، فقالت سوزان إنى أذكر انك كتبت لى عنه وكان حديث
 عهد بالنزول بداركم أنه غير جميل ولا جذاب ، قالت نعم هو
 كذلك ، ولكننى أحببت فيه أخلاقه أكثر من كل شىء ،
 وإن رجلا يخاطر بنفسه من دون الناس جميعا فى سبيل إنقاذ
 غريق لا يعرف من هو حتى أنقذه وكاد يهلك دون ذلك فهو أشرف
 الرجال ، وأنبلهم قصداً ، وأعلامهم همة ، ولقد شهدت أنت بنفسك
 ذلك المنظر ، وكتبت لى عنه ، وعلمت منه أكثر مما أعلم ، قالت
 أهو الرجل ؛ قالت نعم ، قالت إنى اذكر ذلك ، ولقد أُعجبت به فى
 ذلك اليوم إعجاباً عظيماً ، وهل هو غنى ؟ قالت لا ، ولكنه يسعى إلى
 الكفاف من العيش وسيناله ، وحسبى منه أنه يحببى حبا لا يحبه
 أحدٌ أحداً ، قالت ما أقبح المهر ياماجدولين إذا كان كله حبا ،
 إنك اذا تريدن ان تتبتلى وتستوحشى وتهجرى العالم كله بحاله
 ورونقه الى غرفة خاملة فى احد المنازل المهجورة المنفردة تقتلين
 فيها نفسك هما وكداً

فصمتت ماجدولين ولم تستطع ان تقول شيئاً ، لاقتناعاً
 برأى صديقتها ، بل حياء منها وخجلاً ، ثم افترقنا

الملعب

جلست ماجدولين وسوزان في مقصورة الأوبرا وجلس
بجانبيهما ألبرت ابن عممة ماجدولين ، وأشميد ابن عم سوزان ،
وهما فتیان جميلان متأنقان في ملبسهما وحليتهما ، شأنهما في
حياتهما شأن أمثالهما من الفتیان الأثرياء المستهترين الذي تنقسم
حياتهم كلها الى ساعتين اثنتين ، واحدة للضحك والسُرور ،
والأخرى لتصبّي النساء واستغوائهن ، فينفقون على الأولى عقولهم ،
وعلى الثانية أموالهم ، حتى لا يبقى لهم من هذا ولا ذاك شيء
جلسا يقلبان النظر في وجوه الجالسين في المقاصير المقابلة
لهما ، فان وجدا وجهاً جميلاً تغامزأوتهامسا ، أو قبيحاً ضحكوا وسخروا ،
ثم علا صوتهما بالضحك والسخرية فلم تلبث سوزان أن اشتركت
معهما ، ثم تبعتهما بعد قليل ماجدولين ، ولم يكن ذلك من شأنها أو مما
يلتئم مع مزاجها ولكنها فعلته مجاملة لهما ، ثم لم تلبث أن طرّبت
لهذه الاسلوب من الجحون وأنست به فأخذت فيه إخذاهما ، وبينما
هي تقلب نظرها في المقاصير المجاورة لمقصورتها إذ رأت امرأة
في سن الشيخوخة تلبس زينة الفتيات وحليتهن فلفتت نظر
أصدقائها إلى ذلك فضحكوا لفظتها ضحكا عالياً رناناً ، لا لأن

هناك فطنة تستحق الإعجاب والاطراء ، بل لأنهم أرادوا أن يجازوها بمجاملةً بمجاملة ، ومصانعة بمصانعة ، فخدعها هذا الاطراء ، فاسترسلت في نكتاتها ومجونها حتى كادت تستأثر بالحديث وحدها من دونهم جميعاً

وإنهم لكذلك اذ هتف ألبرت وأشار الى رجل جالس على كرسي في مؤخرة الصفوف وقال : هل رأيتم أعجب من هذا القرد اللابس ثوب الانسان : فقال أشميد : أذكر أنني رأيت هذا الوحش المستأنس مرة قبل اليوم ولا أدري أين رأيته ، وقالت سوزان أظنه قدم الملعب الساعة فاني لم أره قبل هذه اللحظة ، وما أحسبه إلا الشيطان الذي كانوا يخيفوننا به صغاراً ولا نراه ، فقال أشميد إن حلتته وإن كانت ثمينة فاخرة فهي من الحلل التاريخية التي لا يلبسها إلا الممثلون ، فأجاب ألبرت لعله سرقها من قبور الفراغة أو دور الآثار ، فإن من يملك مثل هذه الحلة الثمينة لا يعجز عن أن يشتري مشطاً يمشط به شعره المشعث ، فقالت سوزان لا عار على الرجل أن يكون قبيحاً ، ولكن القبيح ان يلبس ثياباً جميلة تختلف صورتها عن صورته ، فتلفت الانظار الى قبيحه ودمامته ، ثم التفتوا جميعاً فراوا ما جدولين قد تراجعت الى الوراء وهي ترتعد وتضطرب ، وقد استجالت حمرة وجهها الى

صفرة كصفرة الموت، فسألوها ما بالها ؟ فرغمت أنها مقرورةٌ وأنها
تشعر برعدة في جسمها ودوار في رأسها ، ولم تكن صادقة فيما تقول ،
ولا يمكن أن تصدقهم فيما تقول ؛ لأن الرجل الذي يسخرون
منه ويتناولونه منذ حين بألسنتهم ، ويذهب كل مذهب في تحميته
وتجهيله والسخرية به ، إنما هو خطيئها الذي تحبه وتستهم به ،
فأمسكوا عن الضحك هنية وأقبلوا عليها يعللونها حتى هدأ
ما بها ، فأنصرفوا الى الرواية يشاهدون فصولها وعادت هي الى
مجلسها الأول ، وظلت تحالس استيفن النظرة بعد الاخرى حتى
اتبعها لها خياها بابتسامة خفيفة لم يشعر بها أحد غيرها ، ثم ما لبثت
الرواية أن انتهت ، فنهضوا للانصراف ، وألقت ماجدولين على
استيفن نظرة ضمنيتها معنى شكرها اياه على اهتمامها بها ، وحضوره
لرؤيتها ، ثم انصرفوا

٥١

الرجل والمرأة

ينظر الرجل الى المرأة في حبه اياها بعين غير العين التي تنظر بها
اليه في حبها اياه ، فهو يراها أدواته الخاصة به التي لا حق لا لسان
غيره في التمتع بها بوجه من الوجوه ، ويرى أن حقاً عليها أن تختصه
بجميع مزاياها وصفاتها ، فلا تقع على حسنها عين غير عينه ، ولا

تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه ، ولا يشعر بروعة جمالها قلب غير قلبه ، فيغار عليها من النظرة واللفتة ، وكلة الاستحسان ، وبسمة الاعجاب ، ويخيل اليه أن الناظرين اليها ، والمحتفلين بها ، والمتحدثين بأحاديث حسننها وجمالها ، إنما هم قوم جناة متلصصون قد مدوا أيديهم الى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعا ، فاختلسوا من جواهرها جوهره لاحق لهم فيها ، وفازوا بها من دونه ، فيلم بنفسه من الالم والامتعاض ما يلم بنفس الشحيح المختبيل اذا رأى السابلة تفر من حر الهاجرة الى جدران داره لتستدرى بظلالها ساعة من الزمان ، وان لم يضره ذلك شيئا ، وقد يكون من أشهى الاشياء الى نفسه وأعجبها اليه أن يرى الناس قد أجمعوا رأيهم على استقباحها والزراية عليها ووصفها بأقبح الصفات وأشنعها ، وأنها قد أصبحت في نظرهم ضحكة الضاحكين ، وآية السابلين ، حتى يكون جمالها سراً من الاسرار الخفية ، لا تراه عين غير عينه ، ولا يبلغ صميمه نفس غير نفسه أما المرأة فتتنظر الى الرجل الذي تحبه نظرها الى حليتها التي تلبسها وتعز بها وتبدل بمكانها على أثرابها ونظائرها ، فلا أوقع في نفسها ، ولا أشهى الى قلبها ، من أن تسمع الرجال يقولون عنه انه رجل عظيم ، والنساء يقلن عنه انه فتى جميل ، فهي تحبه

خليلائها وكبريائها ، أكثر مما تحبه لذاتها وشهواتها ، وترى في إعجاب
المعجبين به واقتتان المقتنات بحسنه وجماله ، اعترافاً منهم بحسن
حظها ، وسطوع نجمها ، واكتمال أسباب سعادتها وهنائها ، وهذا
كل ما يعينها من شؤون حياتها

لذلك شعرت ماجدولين بلوعة الحزن في أعماق قلبها حينما
عرفت أن حليتها التي كانت ترجو أن تفاخر بها أربابها غداً ،
وتكاثرهن بحسنها وجمالها ، قد بدت أثارها العيون ، واقتحمتها الأنظار ،
وسخر منها الرجال والنساء جميعاً ، وظلت تفكر في ذلك ساعة
كأبدت فيها من آلام النفس ولواعجها ما تكابد نفس المحتضر
في ساعته الأخيرة ، ثم لم تلبث أن عادت إلى نفسها وظلت تقول :
أنهم لا يعرفون من أمره ولا أمر نفسه شيئاً ، ولو أنهم علموا
من شأنه بعض الذي أعلم ، وعرفوا ما تنطوى عليه جوانحه من
الفضائل والمزايا ، لأعظموا منه ما استصغروا ، وأجلوا ما احتقروا ،
ولأنزلوه من نفوسهم المنزلة التي يستحقها فضله وكرمه

وهنا ذكرت آماله وأحلامه ، وبؤسه وشقاءه ، وما يكابده
في حياته من شدة وبلاء ، في سبيل عيشه مرة وحبه أخرى ،
فبكت رحمة به ، وإشفافاً عليه

وهكذا أخذ حبها يستحيل إلى رحمة وشفقة ، والحب إذا

استحال إلى هذين فقد آذن نجمه بالأفول

من استيفن الى ماجدولين

رأيتك يا ماجدولين بعد افتراقنا عاماً كاملاً ، وكانت ساعة
من أسعد الساعات وأهنئها ، فغفرت للدهر من أجلها كل
سيئاته عندي ، بل نسيت عندها أنني ذقت طعم الشقاء ساعة
واحدة في يوم من أيام حياتي ، وظللت أقول في نفسي : هذا شأنى
ولم أرها إلا لحظة واحدة على البعد ، فكيف بى إذا أصبحت
كل ساعات حياتي ساعات لقاء واجتماع ، إنى أذكر ذلك
يا ماجدولين فيخيل إلى أن قلبى أضعف من أن يحتمل هذه
السعادة كلها ، وأنها يوم توافيني ستذهب إما بعقلي أو بحياتي

عفواً يا صديقتى فقد أذنبت إليك بينى وبين نفسى ذنباً لا بد
لى من أن أعترف لك به حتى لا أكون قد أذنبت إليك ذنباً
آخر بكتمانى واخفائى

تركت جوتنج وقلبى يخفق رعباً وخوفاً أن تكون الحياة
الجديدة التى انتقلت إليها قد نالت من نفسك منالها من نفوس
الفتيات الضعيفات اللواتى تتلون قلوبهن وأهواؤهن بلون الهواء
الذى يستنشقه ، والجو الذى يعيش فيه ، فإما رأيتك ورأيت تلك
السحابة السوداء من الحزن التى كانت تغطي وجهك وتظلمه ،

ومنظر عينيكَ الساجيتين المنكسرتين المملوءتين كآبة وحزنا ،
علمتُ أني مخطيء في هواجسي وظنوني ، وأن المكان الذي شغلته
من قلبك لا يزال أهلاً بي كعهدي به ، وأن تلك الريبة التي عرضت
لنفسى فيك إنما هي وساوس الحب وأوهامه

غير أن لى عندك أمنية واحدة أحب أن تأذن لى بذكرها
وأن تنوِّلني إياها

رأيتك في الملعب تلبسين ثياباً رقيقة ناعمة تشف عن ذراعيك
وكتفيك ونحرِكَ ، وتكاد تنم عن صدرك وئديك ، ورأيت
الأناظر حائرة حولك تكاد تنهيك انتهاباً ، فاشتد عليَّ كثيراً ،
وألمَّ بنفسي من الغيظ والألم ما ألمَّ بالله عالم به ، وما أحسب أنك
كنت راضية عن نفسك في هذا المظهر الذي ظهرت به بين
الناس ، ولكنك خضعت فيه لرأى النساء ، ورأيهن في هذا
الشان أخيب الآراء وأطيشها ، فرجأت عندك أن تنزعى عنك
هذه الشفوف المهلهلة ، وأن تعودى إلى ثيابك القروية الأولى ،
صوناً لجسمك من عبث الانظار وفضولها ، فليس يكفيني منك
أن تهينى قلبك ، وتؤثرينى بمحبتك ، بل لابد لك من أن تذودى
عنك قلوب الرجال وأفئدتهم ، فلا تجعل لها سبيلاً إلى الافتتان
بك ، أو الاهتمام بشأنك ، لا بالبشاشة والوداعة ، ولا بالتزين

والتحلى ، ولا بالتجمل والتأنق ، واعلمى أن المرأة لا تخلص للرجل
الذى تحبه الاخلاص كله حتى تؤثره بجميع مزاياها وصفاتها ، فلا
تحفل برأى أحد فيها غير رأيه ، ولا تنزل منزلة الرضا في قلب
غير قلبه ، ولا تأذن لكائن من كان أن يقول لها في وجهها ، أويينه
وبين نفسه ، أوفى رؤاؤه وأحلامه ، إنها جميلة أوفتانه أو ما أظرفها
وأبدعها ، حتى توافيه يوم توافيه ظاهرة تقية كاللؤلؤة المكنونة
الى يلتقطها ملتقطها من صدفتها

تحتى إليك وإلى السيدة سوزان ، وسأذهب مساء كل أحد
إلى الملعب لأراك ، وأتمس السبيل إلى لقائك

٥٣

السيدة

دخلت سوزان على ماجدولين في غرفتها فرائها جالسة جلسة
الحزين المكتئب ، ورأت ذلك الكتاب في يدها فاخترطفته منها
قبل أن تتمكن من إخفائه ، فقرأته ثم ابتسمت وقالت لها : لم
يبق على خطيبك هذا يا ماجدولين سوى أن يأمر بك بأن تشوهى
وجهك ، أو تقضى إحدى عينيك ، أو تجدى أنفك ، أو تهشمى مقدم
أسنانك ، حتى تبذأك العيون ، وتقحمك الأنظار ، وتقشع
لرويتك الابدان ، فلا يجروء أحد على أن يقول لك بلسانه ،

أو بينه وبين نفسه ، إنك جميلة أو فتانة ، وأن تحملي بيدك قيثارة
رتانة تطوفين بها أنحاء البلاد كما كان يفعل شعراء اليونان والرومان
في عصورهم الأولى ، وتتغنين عليها بمدحه والإشادة به ، وتنشدين
أناشيد الثناء على حسنه وجماله ، فما أقل عقله ، وأقصر نظره ، وأجهله
بالحياة وشؤونها ، إني لأحسبه قد أعدّ لك في بيته منذ الساعة
قفصاً من حديد يستقبلك به يوم تُرفين إليه ، لئلاّ يسجنك فيه ، ثم
يقف على بابك حارساً يقظاً يصونك من عبث العيون ، وفضول
الأنظار ، فلا ترين إلّا وجهه ، ولا تسمعين إلّا صوته ، ولا
تشعرين بوجود أحد في العالم سواه

فقلت ماجدولين إنك تهمينه ياسيدي بما ليس فيه ، فهو
من أحسن الناس أدباً ، وأشرفهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، ولكنه
محب ، وكلّ شيء يغور ، قالت أعاذني الله وإياك من حب يختلس
الحياة اختلاساً ، ويأتى عليها بأسرع من ضربة السيف ، وكرة
الطرف ، والله لو جاء في خطبتي ملك من ملائكة السماء يحمل على
رأسه تاج الملائكة الأعلى ، ويُمهرني بالجنة التي أعدها الله للمتقين وما
فيها من حور وولدان ، وروح وريحان ، ويعدني بالخلود الدائم ،
والنعيم الذي لا يفنى ، على أن يضعني في قفص مثل هذا القفص
الذي أعده لك هذا الخطيب المأفون لا أثرت موت الفجأة ،

والتغلغل في أعماق السجون ، والفرار إلى أديرة الصحارى المنقطعة ،
على الرضا به ، والنزول على شرطه

ثم نهضت قائمة وقالت محال أن أخطر بك وبمستقبلك
ياماجدولين ، وأن أتراك فريسة في يد هذا الموحش المفترس ،
يُنغص عليك عيشك ، ويكدر صفو حياتك ، ويقتطف زهرة
شبابك الغضة قبل أوانها ، ثم حيثها وانصرفت إلى مخدعها

فقضت ماجدولين بعد انصرافها ليلة ليلاء لا تستريح فيها
من الضجعة إلا إلى القعدة ، ولامن القعدة إلا إلى القومة ، تتامس
بارقة الصواب في هذه الدجنة الحالكة فلا تهتدى إليها ، وتقلب
أمرها ظهراً لبطن فلا يزيد لها التقلب إلا جهلاً ، حتى غلبتها
السنة على عينيها فنامت

٥٤

من أوجين الى استيفن

صدر أمر القيادة العليا بالتهيء للسفر بعد بضعة أيام إلى جهة
لا نعرفها ، ويقول ضباطنا أن هناك ستكون الواقعة الكبرى
التي يفصل فيها في مستقبل الحرب ، ولا أعلم ماذ يُعده القضاء
لى في ذلك اليوم ، فان قدر لى الله النجاة فسأكتب اليك ، وان
كانت الأخرى فستقرأ اسمى بين أسماء القتلى في جريدة الحرب ،

ولا يحزنك في ذلك اليوم مصيرى ، فهو مصير كل رجل شريف
لى اليك حاجة يا استيفن أرجو ألا تضنَّ علىَّ بها

قد بلى سرجى ، ووهت علاقته ، ولم يبق معى من المال بعد
ما أنفقت عطائي كله فى هذا الشهر بين اللعب والشراب ما أبتاع
به سرجاً غيره ، فابعث إلى بعشرين فرنكاً قبل مرور عشرة أيام ،
فإن فأنك إن ترسل الى فى ذلك الوقت فلا ترسل إلى شيئاً فانه
لا يصلنى ، وتحتى اليك والى السيدة ماجدولين

٥٥

العُرس

استطاع استيفن بعد سفر صديقه ادوار أن يستفضل جزءاً
من مرتبه الشهرى ، فاجتمع له بعد بضعة أشهر خمسون فرنكاً ،
استأجر بسبعة منها الحلة التى ذهب بها إلى ملعب الأوبرا لرؤية
ماجدولين ، وابتاع بخمسة تذكرة الملعب ، غير ما أنفق على طعامه
وشرايه وسفره ، وبقي معه بعد ذلك اثنان وعشرون فرنكاً ، فلما
عاد الى جوتنيج لبث بضعة أيام ينتظر كتابا من ماجدولين ردّاً
على كتابه الأول فلم يأت ، فساء ظنُّه ووقع فى نفسه أنه قد
أغضبها وآسفها فيما كتب به اليها ، فاشتد حزنه وغمه ، وكتب
لها رسالة أخرى يعتذر اليها فيها عما ورد فى رسالته الأولى ،

فكتبت اليه أنها كانت عاتبة عليه في سوء ظنه بها ، واشتداده في مؤاخذتها ، وأنها قد قبلت عذره ، وسألته ألا ينقطع عن زيارة الملعب لتراه ، فعزم على أن يسافر يوم الأحد ليراها ويلتمس السبيل الى مقابلتها بكل وسيلة ، ليجدد لها اعتذاره بنفسه ، ويشكر لها صفحها عنه ورضاها

فبينما هو جالس في غرفته صباح اليوم الذي عزم فيه على السفر إذ جاءه كتاب أخيه فحزن عند قراءته حزناً شديداً ، وذكر أنه لا يملك من متاع الدنيا غير هذه القطع القليلة وأنه في حاجة اليها لينفقها على زيارة ماجدولين ، فلبث حائراً لا يدري ماذا يصنع ، ثم غلبته عاطفة الحب على كل عاطفة سواها ، فقام ليهي نفسه للسفر ، وابتاع نعل جديدة لأن نعله القديمة كانت قد بليت ، وبلغت آخر درجات الاحتمال ، فعجز عن استئجار الحلة التي استأجرها في المرة الاولى ، فلم يجد بداً من أن يستصلح حلته التي يلبسها ، فرتق فتوقها ، وصبغ بالمداد الاسود ما ابيض من خيوطها ، ثم ركب عجلة وسافر الى كوبلانس في الساعة الاولى من الليل ، فأكل في بعض المطاعم الصغيرة ، ثم ذهب الى الملعب فلم ير ماجدولين في مقصورتها ، فلم يقلق لذلك كثيراً ، وقال لعل لها شأناً شغلتها عن التبكير ، وهي آتية ما من ذلك بد ، وأقبل على

المسرح يتأهّى بالنظر إلى فصوله ، فرأى بين القطع المثلثة مشهد رجل من أرباب الثراء والنعمة قد استهَام بحُب امرأة واستهَامت به ، ثم نزلت به نكبة من النكبات المالية فتنكرت له ، وبرمت به ، وعزمت على مقاطعته والرحيل عنه ، فجثا الرجل بين يديها يستعطفها ويسألها ألا تفعل ، فأبت ، وصارحته بالسبب الذي يدعوها إلى مقاطعته ، وقالت له فيما قالت « إن المرأة لا تحب الرجل قط ، بل تحب فيه نفسها ، فإن كان من أرباب المال أحببت فيه زينتها ولهوها ، أو من أرباب الجمال أحببت فيه لذتها وشهوتها ، فإن لم يكن أحد الاثنين ، فهي لا تحب إلا هذين » فاشمأز استيفن عند سماع هذه الكلمة وقال في نفسه : أنهم يمثلون أخلاق البغايا الفاسقات ، وبزعمون أنهم يمثلون أخلاق النساء عامة ، ها هي ذى ماجدواين تكاد تعبدني حباً ، وما أنا من أرباب الجمال فتحب في شهوتها ، ولا من أرباب المال فتحب في زينتها ، ولقد أراد الله بها خيراً اذ كفها مؤونة سماع هذه الكلمات المنفرة ، ولو سمعتها لآلمتها ونالت من نفسها منالا عظيما

ثم انتظر بعد ذلك ساعة فلم تأت ، فلم يبق له أمل في مجيئها ، وعلم أن هناك شأنا عظيما عرض لها فشفغها عن الحضور ، فاشتد عليه الأمر كثيراً ، ورأى ألا بد له من الوقوف على شأنها قبل العودة

الى قريته ، وخشى أن تكون مريضة ، فخرج من الملعب ومشى في طريق قصر سوزان وهو لا يعلم كيف يلتمس السبيل الى الوصول اليها حتى دانه فراى انواراً كثيرة تتلألأ في أبهائه وحجراته ، وتدفق من نوافذه وكواه ، وسمع الحاناً مختلفة تردد في انحاء ، وراى الخدم راحين غادين في صحونه وأفنيته يحملون على ايديهم آنية الشراب وصحف الطعام ، فعلم انها وليمة عامة ، ولكنه لم يدر ما المراد بها ، فدنا من الباب فراى عجالات كثيرة مصطفة امامه ، وراى حوزياً متكئاً على كرسى عجلته ، فسأله ماهذه الليلة الحافلة في هذا القصر ، فصعد الرجل نظره فيه وصوب به ثم قال له وهو لا يفارق مُتكاهاً انه عرس السيدة سوزان ابنة صاحب هذا القصر ، فاطمان وهذا ، وعلم أن ما بصاحبته من بأس ، وعزم على الانصراف ، ثم حدثته نفسه ان يحتمل لرؤيتها ولو على البعد لحظة واحدة قبل انصرافه ، فشى الى ظلة دانية من ظلل القصر فوقف تحتها يفكر في الوسيلة التي يتذرع بها الى الدخول ، فالبث ان راى عجلة مقبلة تحمل بعض الكبراء ، وراى الخدم يهرعون اليها ، فانقل من مكانه واختلط بهم كأنه واحد منهم ، ولا تختلف هيئته عن ذلك الا قليلا ثم نزل الزائر فشى بين يديه مع المشايخ حتى اجتازوا فناء القصر ووصلوا الى قاعة الرقص ، فدخل الرجل ودخل معه الخدم

وَبَقِيَ هُوَ وَحْدَهُ عَلَى الْبَابِ يَسْتَشْفِ مِنْ أَلْوَاكِ زَجَاجِهِ مَا وَرَاءَهَا
 مِنَ الْمَنَاطِرِ ، فَرَأَى الرَّاقِصِينَ وَالرَّاقِصَاتِ يَسْبَحُونَ فِي بَحْرِ مِنَ
 الْهَنَاءِ وَالسَّرُورِ ، وَيَطِيرُونَ فِي أَجْوَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ اللَّذَائِدِ وَالْمَنَامِ ،
 فَظَلَّ يَدِيرُ عَيْنِيهِ بَيْنَهُمْ يَفْتَشُ عَنْ مَا جَدُولِينَ حَتَّى لَحِمَهَا تَرْقِصُ مَعَ
 رَجُلٍ قَتْبَيْنَةٍ فَإِذَا هُوَ صَدِيقُهُ إِدْوَارٌ ، فَلَمْ يَأْبَهُ لَذَلِكَ كَثِيرًا ، إِلَّا
 أَنَّ مَارَاعَهُ وَأَزْعَجَهُ وَكَادَ يَطِيرُ بَلْبُهُ أَنَّهُ رَأَاهَا تَرْقِصُ فِي ثَوْبٍ رَفِيقٍ
 شَفَافٍ لَا يَكَادُ يَحْجُبُ جَارِحَةَ مِنْ جَوَارِحِهَا ، وَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّ
 صَدْرَهَا مَلْتَصِقٌ بِصَدْرِ مُخَاصِرِهَا ، وَأَنَّ رَأْسَهَا مَلْقَى عَلَى كَتِفِهِ ،
 وَخَدَّهَا تَحْتَ مَتَنَاوِلِ لِمَتَائِهِ ، وَأَنَّهُ يَحْتَضِنُهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَخَاصِرُهَا ،
 فَأَنَّ أَيْنَمَا مَوْلًى وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : مَاذَا فَعَلْتَ بِكَ الْيَوْمَ يَا مَا جَدُولِينَ !
 وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنَّ يَقْتَحِمُ الْبَابَ وَيَتَغَلَّغِلُ بَيْنَ الزَّاوِيَيْنِ حَتَّى يَبْلُغَ
 مَكَانَهَا وَيَلْقَى عَلَيْهَا نَظْرَةَ عَتَبٍ وَتَأْنِيبٍ ثُمَّ يَعُودُ أَدْرَاجَهُ ، وَلَكِنَّهُ
 اسْتَحْيَا لَهَا وَلِنَفْسِهِ أَنَّ يَرَاهُ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَثْوَابِ الْجَافِيَةِ الْغَلِيظَةِ ،
 فَتَمَسَكَ عَلَى مَضْضٍ ، وَأَنْشَأَ يَسْرِي عَنْ نَفْسِهِ وَيَقُولُ : هَذَا شَأْنٌ
 جَمِيعُ الرَّاقِصِينَ وَالرَّاقِصَاتِ ، وَهَذِهِ أَثْوَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا ، وَمَوَاقِفُهُمُ
 الَّتِي يَقِفُونَهَا ، بَرٌّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ ، تَقِيَّتُهُمْ وَعَاهِرُهُمْ ، فَلَا أَلُومَ وَلَا
 أَعْتَبَ عَلَيْهَا ، فَلْتَلْبَسْ مَا تَشَاءُ مِنَ الثِّيَابِ ، وَلْتَرْقِصْ مَعَ مَنْ تَشَاءُ
 مِنَ الرِّجَالِ ، فَخَسْبِي مِنْهَا أَنِّي أَنَا الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَتِيمُهَا
 (١٧ — مَا جَدُولِينَ)

ويخلبها ، ويملاً فراغ قلبها ، من بين هؤلاء جميعاً ، ثم أعاد النظر مرة أخرى فراها قد فرغت من الرقص ومشت هي وإدوار إلى مقعد قريب من الباب جلسا عليه فلم ير في مجلسهما بأساً ولا مستراباً ، فهذا ثأره ، بل أعجبه ما رأى من عناية صديقه بها ، وعطفه عليها ، وخيل اليه أنه ما رقص معها ولا احتفل بها إلا من أجله ، وأنهما ما اجتماعا على هذا المقعد في هذه الساعة إلا ليتحدثا بشأنه ويتذكرا أيامه وعهوده ، ثم مالبث أن لمح في أصبعها خاتماً فتبينه فإذا هو الخاتم الذي نسجته من شعره ، والذي لا تزال تحدثه عنه في رسائلها كلما كتبت إليه ، فاغتبط بذلك اغتباطاً عظيماً ، ولم يبق في نفسه من ذلك الخاطر المؤلم الذي مر بذهنه منذ ساعة أثر واحد

وبنه لذلك إذ دُفع الباب بفتة وخرج منه في متأنق من الزاثرين يهز في يده سوطاً مستطيلاً فراه واقفاً فظنه بعض الخدم ، فصرخ في وجهه بلهجة الآمر أن يدعوه له سائق عجلته ، وسماه له ، فارتبك قليلاً ، ثم لم يربداً من الامتثال مخافة أن ينكشف من أمره ما كان خافياً ، فهرع إلى الباب الخارجى يهتف باسم غير الاسم الذي سمعه ، وكان قد نسيه ، فأدركه الفتى وقد طار الغضب في دماغه فضربه بالسوط على وجهه ضربة أدمته ، وأخذ يسبه

ويشتمه ، فاحتمل استيفن تلك الضربة صامتاً ، ومشى في طريقه
لا يلوى على شيء
وما أبعد إلا قليلاً حتى انحدرت من جفنه دمعة جرت على
خده فأصابت موضع الضربة منه فآلمته فهتف صارخاً : ماذا
لقيت في سبيلك يا ماجدولين

٥٦

المريض

عاد استيفن إلى جونتج فوجد كتاباً من قريبه الذي كان قد
أحسن إليه بتلك القطع الذهبية يوم خروجه من كوبلانس شريداً
طريداً يقول له فيه إنه مريض مشرف ، وأنه يجب أن يراه بجانبه
في ساعته الأخيرة ، فرثى له وحزن عليه حزناً شديداً ورأى الأبد
له من موافاة رغبته في الذهاب إليه ، فاستأذن المدرسة في بضعة
أيام يقضيها بجانبه ، فلم تأذن له إلا بثلاثة ، فسافر إليه وكان
يسكن وحده بيتاً في ضاحية من ضواحي كوبلانس لا يرى فيه إلا
وجه خادمه وطيبه ، وكانت زوجته قد ماتت منذ عهد قريب ،
وليس له من الأقارب إلا دَينين غير ابن عم له من قساة الأغنياء
وجفاتهم لا يحبه ولا يحفل بشأنه ، فدخل عليه استيفن في ساعة من
ساعات الليل فرآه ساهراً يئن من الآلام والأوجاع ، وقد نال منه

الداء منالا عظيما ، فأصبح لا يستطيع النطق الا همهمة وتجمجما ،
فجلس بجانبه يتوجع له ويواسيه حتى استطاع الرجل بعد لاي أن
يقول له : لقد مرت بي بضعة أشهر وأنا طرح هذا الفراش
لاأفارقه لحظة واحدة حتى مللت وبرمت ، وأصبحت أخشى غائلة
الضجر ، أكثر مما أخشى غائلة المرض ، فلا تفارقني بعد اليوم
حتى يحكم الله في أمري بما يشاء

فلبت معه الثلاثة الايام التي أجازوه بها ثم عزم على العودة
فتوسل اليه المريض بانكسار عينيه وترقرق الدمع فيهما ألا يفارقه
حتى يقضى الله في أمره بقضائه ، وكان قد ثقل وأشرف وأصبح
على حالة لا نرجى له معها الحياة ، فتذمم استيفن أن يفارقه على حاله
تلك وكتب الى المدرسة يستأذنها في بضعة أيام أخرى يتخلفها
وأدلى اليها بعذره في ذلك ، ولبث ينتظر جوابها فلم يأتها واشتد به
القلق ، ثم جاءه منها بعد حين كتاب تقول له فيه : إنها لم تزد آمن
الاستغناء عنه والاستبدال منه ، وإنها قد أرسلت اليه ما بقي له
عندها من مرتبه ، فأتى على اخر الكتاب حتى صاح صيحة
كادت تنقلها أضالعه وسقط مغشيا عليه وهو يقول : « رحمتك
اللهم فقد عجزت عن الاحمال »

الموت

نامت العيون ، وهدأت الجنوب في مضاجعها ، وسكنت كل
سارية في الأرض ، وكل ساجحة في السماء ، وظل استيفن ساهراً
وحده بجانب مريضه المحتضر يسمع حشرة الموت في صدره
ترن في هدوء الليل وسكونه فيخيل اليه أنه واقف في وسط فلاة
موحشة تعزف رجناتها ، وترجر غيلاتها ، فامتلات نفسه رهبة
ووحشة ، وأن هناك معركة قاعة بين الروح والجسد ، تأبى إلا أن
تفارقه ، ويأبى إلا أن يتشبث بها ، فيدركه من التعب والنصب
مالا يحتمله ، حتى عى بأمرها ، فتساقط خائراً مستسلماً
لا تطرف له عين ، ولا ينبض له عرق ، فوضع استيفن أذنه على
صدره فلم يسمع شيئاً ، فعلم أن الأمر قد انقضى ، وأن الراقص قد
ألقى قناعه ، والممثل قد خلع ثوب تمثيله ، وأن عنصري الحياة قد
افترقا وعاد كل منهما إلى أصله ، فطار منهما ما طار ، ورسب
ما رسب ، فجننا بجانب الميت يرثيه ويتوجع له ويبكي عليه مرة ،
وعلى نفسه أخرى ، ومرت أمام نظره في تلك الساعة رواية حياته
الماضية من مبدئها إلى منتهاها فظل يقرأها صفحة صفحة ،
ويقلب نظره في سطورها وكلماتها ، فرأى بؤساً وشقاءً ، وأحزاناً

ودموعاً ، وجدوداً عائرة ، ونجوساً متتابعة ، حتى انتهى إلى
الصفحة الأخيرة منها فقرأ فيها كتاب العزل الذي جاءه من
المدرسة ، فانتفض عند قراءته انتفاضاً شديداً وصاح صيحة عظمى
دوت بها أرجاء الغرفة قائلاً ما هذا ! هل فقدت ماجدولين !
ثم أطرق إطرافاً طويلاً لا يعلم إلا الله أين سبحت نفسه فيه ،
ولبت على ذلك ساعة ، ثم رفع رأسه فادا عيناه جمرتان ملتهبتان ،
وإذا وجهه أسود مربد كأنما قد لبس نسيجاً غير نسيجه ، فدار
بنظره في أنحاء الغرفة دورة الحية الرقطاء بجوهرتها في جنبات
جحرها حتى وقع على خزانة المال التي كان يأمره الميت في
حال مرضه بالانفاق منها ، فعلق بها ساعة لا ينتقل عنها ولا
يتحول ، كأن عينيه قد استحالتا إلى مسمارين لامعين من
مساميرها ، ثم وثب على قدميه فجأة وقد أصابه مثل الجنون وهتف
صارخاً : لا بد لي من النجاح في حياتي ، ولا أسمح لعقبة من
العقبات مهما كان شأنها أن تقف في طريقي ، وإن الدهر لا أعجز
من أن يعترض سبيلي ، أو يغلبني على أمري ، فهو لا يغلب إلا
الضعفاء ، ولا يقهر إلا الأغبياء ، وما أنا بواحد منهم ، وإن من
الجن والخور أن أضع حياتي بين يديه يتصرف بها كيف يشاء ،
فلا كن أنا دهرأ وحدي ، أتولى شأن نفسي بنفسى ، وأتصرف

بحياتي على الصورة التي أريدها ، لا أتقيد بقانون ولا نظام ، ولا أسجن نفسي في هذه الدائرة الضيقة التي يسمونها الفضيلة ، فما سقط الساقطون في معترك الحياة ، ولا داستهم أقدام المعتركين فيه ، إلا لأنهم وقفوا من الميدان في نقطة واحدة لا يتحولون عنها ولا يتحللون ، فلم تنهبوا إلى الضربات المختلصة التي جاءتهم من خلفهم فقضت عليهم ، ولو أنهم داروا مع الحركة حيث دارت ، وتقلبوا في جنباتها كرا وفرأ ، لظفروا بالغنيمة مع الظافرين ، ولنجوا من غائلة الموت الزؤام

لارذيلة في الدنيا غير رذيلة الفشل ، وكل سبيل يؤدي إلى النجاح فهو سبيل الفضيلة ، وما نجح الناجحون في هذه الحياة إلا لأنهم طرّقوا كل سبيل يؤدي إلى نجاحهم فاقحموه غير متذمّنين ولا متلوّمين ، وما سقط الساقطون فيها إلا لأنهم تأمّخوا وتحرّجوا وأطالوا النظر والتفكير ، وقالوا هذا حلال وهذا حرام من هم الذين يملكون الدور والقصور ، والضياع الواسعة ، والرباع الحافلة ، والذين تموج خزائنها بالذهب ، موج التنور باللهب ، أليسوا اللصوص والمجرمين الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس سرّاة ووجوهاً ؟

من هم الذين يسهرون الليل طاوين لا يطرق النوم أجفانهم ،

ويقتضون أيامهم هائمين على وجوههم يفتشون عن الرزق في كل مكان فلا يظفرون منه باللقمة أو الجرعة إلا إذا أراقوا في سبيلها محجماً من دماء قلوبهم ، أليسوا الأشرافَ والفضلاء الذين يسميهم الناس ويسمون أنفسهم معهم رعاً وغوغاء

أنا لا أعترف بقانون الملكية ولا قانون الوراثة ، لأن المالكين سارقون ، ولأن الوارثين أبناء السارقين ، فلا أسمى نفسي لصاً إلا إذا سرقت فقيراً يكدح لقوته ليله ونهاره فلا يبلغ منه إلا الكفاف ، ولا أسمى نفسي ظالماً إلا إذا ظلمت عادلاً مستقيماً لم يظلم في حياته نعمة في حبة شعيرة يسلبها إياها

ان نشاط الرذيلة وشطاطها أحرص من أن يترك للفضيلة المتثددة المترققة في سيرها شيئاً وراءه تبلغه فتلقطه ، فلا غامر في ميدان هذه الحياة مغامرة ، فان ظفرت فذلك مارجوت ، أو لا فقد أبليت في حياتي عذراً

وكان يهذي بأمثال هذه التصورات وهو يضرب في أرجاء الغرفة ذهاباً وجيئة بخطوات واسعة متلاحقة ، ثم وقف بغتة وألقى نظره على الجنة المسجاة أمامه وقال : لقد أصبحت ميتاً أيها الرجل ، فلا يعينك من المال الذي تركته وراءك شيء ، ولا شأن لك بمن يخلفك عليه من بعدك ، أكان صديقك أم عدوك ، أم أقرب

الناس إليك ، أم أبعدهم عنك ، ولقد كان جديراً بك وأنا صديقك
وحميمك الذى واساك وجاملك فى ساعاتك الأخيرة ، وقام لك بما
لم يقم لك به صديق ولا حميم ، حتى أضاع آماله ومستقبل حياته
فى سبيلك ، أن توصى إليه بمالك ، فهو أحوج إليه من ابن عمك
السعيد المجدود الذى لا يبالي بأزاد مالك على ماله ، أم نقص منه ،
فأنا قائم عنك بعد موتك بما فاتك أن تقوم به فى حياتك

ثم أدار ظهره إلى الجثة ومشى إلى الخزانة وكانت على كسب
منه فوضع يده على مفتاحها فشر برعدة شديدة تتمشى فى أعضائه ،
وخيل إليه أن الغرفة كلها عيون ترقبه وتحدق فى وجهه ، وأن روح
الميت تلقى عليه من نوافذ جثتها نظرات شمرراء ملتبهة يكاد أوارها
يصل إليه فيحرقه ، فترى فى مكانه قليلاً ثم تماسك واستجمع لبه
وأثارة وأدار المفتاح فدار الباب على عقبه وصر فى دورانه صريراً
خشناً ، فارتعد وتمثل له أن صوتاً أجش من أصوات الحراس
الاشداء يهتف به ويخاشنه ، فابتعد عن الباب خطوة ، ثم التفت
يمنى ويسرة فلم ير شيئاً ، فقال إنها خيالات الشقاء تلاحقنى فى
كل مكان ، ومد يده إلى الأوراق يقلبها على نور مصباح ضعيف
كان فى يده حتى عثر بالسفاح التى يريد بها ، فما وضع يده عليها
حتى شعر أن دمه الذى كان يغلى فى عروقه غليان الماء فى مرجله

قد هدأ وبرد حتى كاد يقف عن الجريان ، وأن قطرات باردة من العرق تتحدر من جبينه على وجهه متتابعة ، وأحس في نفسه بذلك السكون العميق الذي يشعر به الهائج المصروع بعد استفاقة من صرخته ، وخيل إليه أن الخزانة التي أمامه تهتز وتضطرب ويموج بعضها في بعض ، ثم مالبت أن استحالت إلى مرآة صقيلة لامعة فوق وقع نظره على صورته فيها فامتلاً قلبه خوفاً وذعراً ، وأنكرت نفسه نفسه ، فقد رأى في أسارير وجهه تلك السحنة المنكرة التي يعرفها في وجوه المجرمين ، ورأى في عينيه تلك النظرات الطائرة الشاردة التي ينظر بها المحكوم عليه بالموت إلى سيف الجلاد حين يلمع فوق رأسه ، فظل يرتعد ويضطرب ، وظلت الأوراق تتساقط من يده واحدة بعد أخرى ، وإنه كذلك إذ أحس بيد ثقيلة قد وضعت على كتفه ، فلم يأبه لها في أول الأمر وظنها بعض الخيالات التي لا تزال تعاوده منذ الليلة ، إلا أنه لم يلبث أن أحس يبرودتها فوق كاهله ، فتهالك في نفسه وتجمع تجمع المتوقع ضربة هائلة تسقط على أم رأسه ، ثم التفت قليلاً قليلاً ليرى مادهاه ، فاذا الميت واقف خلفه عارى الجسم ينظر إليه بعينين جامدتين فصرخ صرخة عظيمة ودفعه بيده دفعة شديدة فسقط على الأرض بعيداً عن مضجعه الأول ، فرت عظام

رأسه على أرض الغرفة رنيناً شديداً ، فاختبئ وأصابه مثل الجنون ،
والتقى المصباح من يده فانطفأ فزداد رعبه وفزع ، وهرع يطلب
الباب للفرار منه فلم يهتد إليه ، فظل يعدو في أنحاء الغرفة ويتلمس
جدرانها مقبلاً مدبراً ، لا يعثر حتى يقوم ، ولا يقوم حتى يعثر ،
وقد خيل إليه أن الجنة تعدو وراءه وتتعبه حينما ذهب ، حتى
أعياه الجهد ، وعجز عن الحركة ، فسقط مغشياً عليه

ولم يكن مارآه في هذه المرة خيالا بل حقيقة لا ريب فيها ،
فقد عاودت الميت الحياة لحظة ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرأى
باب خزانته مفتوحاً ، ورأى انساناً لا يعرف من هو يقلب أوراقه ،
فدفعه الحرص الغريزي الذي لا يفارق الانسان من مبدأ ساعات
حياته الى نهايتها الى الوثوب على قدميه والاهواء بيده على كتف
السارق ، ثم كان ما كان من سقوطه على أرض الغرفة فكان في
سقطته القضاء عليه

لم يستفق استيقظ من غشيته حتى طلع الفجر وأرسل
بعض أشعته من نافذة الغرفة ففتح عينيه وظل ينظر حوله يميناً
 ويسراً ، فرأى المصباح الساقط ، والخزانة المفتوحة ، والأوراق
المبعثرة ، والجنة الملقاة ، فذكر كل شيء ، وقام يتحامل على نفسه فأعاد
كل شيء الى مكانه ، ونقل الجنة الى مضجعها ، وأسبل عليها غطاءها ،

ولم يلبث أن جاء الطبيب فلما رأى الصدع الذى فى رأس الميت قال
لاستيفن أحسب أن المريض قد ثار من فراشه فى ساعته الأخيرة
ولم يكن معه من يتولى شأنه فسقط بعيداً من مضجعه فأصابه
مأصابه ، فارتعد استيفن وقال نعم ياسيدى ، ولقد كنتُ نائماً فى
تلك الساعة فلم أستطع مساعدته ، ولم أستيقظ إلا على صوت
سقطته ، فاحتملته الى مكانه ، وكان أسنى لذلك عظيماً ، فلم ير الطبيب
بأساً فيما قال ، وانصرف لشأنه

وما انقضى النهار حتى دفن الميت وحضر دفنه وارثه ، وسافر
استيفن الى جوتنج وهو يردد فى طريقه قوله « ويل لى من مجرم
أثيم » فاصلاها حتى كان قد بلغ آخر درجات الاحتمال فسقط
فى فراشه مريضاً مدنفاً ، لا يفارقه خيال تلك الليلة الهائلة التى
كابدها لحظة واحدة

٥٨

إدوار

علق إدوار بماجدولين منذ الليلة التى رآها فيها استيفن من
وراء ألواح الزجاج يرقصان معا ، فأنشأ يختلف الى منزل سوزان
وكان يمتُّ اليها بحبل قرابة ليرى حبيبته ويستدنى قلبها ، وكان من أقدر
الناس على مثل ذلك ، لعذوبة يعرفها له النساء فى أخلاقه ، وحلاوة

تجذب قلوبهن في أحاديثه فأُلفت به وبمحضره ، وأعجبها منه أنه كان يسرد عليها كلما جلس إليها أحاديث المحافل والأندية ، ويُطرفها بغرائبهما ونواديرهما ، ويذكر لها أسماء الراقصين والراقصات وفضل ما ينيهن في البراعة والافتنان ، ويشرح لها أنواع الرقص غربية وشرقية ، قديمة وحديثة ، وتاريخ كل نوع منه ومنشأه ومصيره ، ويقص عليها قصص الغرام التي تنشأ كل يوم في قاعات الرقص بين النساء والرجال ، وكانت حديثه عهد بذلك كله ، فلم يكن شئ من الأشياء أعجب إليها من ذكره وترديده ، وكان إذا جرى ذكرُ استيفن بينهما أثنى عليه وأطراه ، وقص عليها طرفاً من نوادر طفولتهما وصباهما ، ومامر لهما في حياتهما الأولى من بؤس ورغد ، وشدة ورخاء ، ثم يصف لها بلهجة الحزين المتفجع حياة البؤس والشقاء التي يحياها اليوم في جوتنج وغرفته التي يسكنها . وأثناء الذي تشتمل عليه ، وثيابه التي يملكها ، ثم يتبع ذلك بالتوجع له ، والتألم لبؤسه وشقائه ، ومحاربة الدهر إياه في مساعيه وأغراضه ، فتصفي إلى حديثه ، وتقبل عليه إقبالا عظيما

ولم يزل بها حتى خلبها ، ووقع من نفسها ، وأصبحت لا تكاد تصبر عن مجلسه ساعة ، ولا تزال تفتقده وتسائل نفسها عنه كلما غاب عنها ، وهي تظن أنها إنما تحبه من أجل استيفن ، ولو كشف

لها عن دخيلة نفسها لعلمت أنها قد بدأت تنسى استيفن من أجله
ولقد أعجبت سوزان تلك الصلة التي نشأت بين صديقها
وقريبها ، ورضيت عنها الرضا كله ، ورأت ان الله قد أراد به وبها
خيراً ، فرزقه أفضل الفتيات جمالا وأدباً ، ورزقها خير الفتيان ثروة
وجاهاً ، وكانت تعرف شيئاً من عيوب إدوار ولكنها كانت ترى
أنها عيوب خاصة به لا تتعداه إلى غيره ، وكانت تعتقد أن المرأة
لا ترى في زوجها الغنى الذي يملأ فضاء بيتها نعمة ورغداً عيباً
واحداً مهما كثرت عيوبه ، فأنشأت تسعى سعيها للبلوغ بهما إلى
الغاية التي تريدها لهما ، فأشارت على إدوار أن يتوود إلى الشيخ
مولر ويدخله مداخلة الصديق صديقه وقالت له : إنه رجل
مفتون بحب النبات والزهر فلا يعجبه إلا الحديث عنهما ، ولا
ينزل من نفسه المنزلة العليا إلا من يعلم أنه يشاركه في العلم بهما ،
والاهتمام بأمرهما ، وكان إدوار قد درس شيئاً من علم النبات في
مدرسته فاستعان بـيستاني حديقته على معرفة ما كان يحمله منه ،
وغرس في حديقة بيته بعض أنواع الزهر الغريبة ، وعرف خصائصها
وصفاتهما ، ثم خالط الرجل ودخله ودعاه إلى بيته وأراه حديقته ،
ومشى معه في كل مكان ، وجاراه في كل حديث ، فلم يلبث أن
أعجبه ووقع من نفسه ، وهكذا أصبح أثيراً عند الأب وابنته

ما أبغضت ماجدولين استيفن ، ولا أحببت ادوار ، ولكنها
لبست حالا جديدة لم تكن تلبسها من قبل ، فكان لابد لها من
أن تلبس معها جميع آثارها ومتعلقاتها ، فقد ألقت الحجامع والمحافل ،
وأنست بالمراقص والملاعب ، وصادقت النساء المتحضرات
المتأنقات ، وغنت كما يغنين ، ورقصت كما يرقصن ، ومشيت في
مثل أزيائهن ، وتحدثت بمثل أحاديثهن ، وفهمت من سعادة
الحياة وهنائها المعنى الذى يفهم ، ورأيت فى الرجال والنساء
والصلة التى بينهما الرأى الذى يرين ، فتناست استيفن لأنه صورة
من صور الحياة الماضية التى عافتها واجتوشتها ، وأحبت ادوار لانه
مظهر من مظاهر الحياة الجديدة التى أحببتها وافتتنت بها
على أنها كانت اذا خلت الى نفسها ، وهدأت عنها ضوضاء
الحياة وضجيجها ، واستطاعت أن تمد نظرها الى أعماق سريرتها
حتى ترى ما فى قراراتها تراءى لها شبح استيفن فى نحوه واصفراره ،
وحزنه واكتئابها ، وبؤسه وشقائه ، ومنظر عينيه المملئتين حزنا
ودموعا ، وقلبه المتقد حبا وغراما ، ونفسه الشعرية الهائمة فى أودية
الهموم والأحزان ، فتحنّ اليه حنين الغريب الى داره ، والشيخ

إلى عهود صباه ، وتذكر أيامه الماضية التي قضاها معها فتبكي
حسرة عليه وإشفاقاً ، بل وجداً به وغراماً : ثم لا تلبث أن ترى
سحابة بيضاء من النور مائلةً أمام عينيها ، فلا تزال تنبسط
وتستفيض حتى تشف عن قاعة الرقص التي شهدت ليلة عرس
سوزان ، فتري الوجوه المشرقة ، والثغور الباسمة ، والذهب اللامع ،
والجوهر الساطع ، والفلائل المطرزة ، والحلل المديجة ، والصدور
اللاصقة بالصدور ، والأذرع المحيطة بالخصور ، والجو المسائج
بالأنوار ، والروض الحافل بالأزهار ، وترى العروسين كالفرقدين ،
يسبحان للسعادة المقبلة عليهما ، ويتدفق تيار الحب والصبابة بين
قليهما ، فيتضاءل أمام عينيها ذلك الشبح الأول ، ثم لا يلبث أن
يتغلغل في ظلمات الوجود الحالكة حتى يغيب عن نظرها ، فلا
يبقى له عين ولا أثر

ولقد دخلت سوزان عليها صبيحة يوم في غرفتها وكان قد
مضى على زفافها شهران فقالت لها : أتدرين ما اتفقنا عليه أنا
وأبوك ليلة أمس ياماجدولين ؟ قالت لا ، قالت أن نسافر جميعاً
إلى ضياع زوجي في « سان مارك » لنقضى فيها أسبوعين أو ثلاثة
ثم نتقل إلى ولفاخ وهي على بضعة أميال منها فنستضيفكم أسبوعاً
واحداً نقتضيه في التنزه بين مزارع القرى ودساكرها ثم نفترق

بعد ذلك ، فهمل وجه ماجدولين فرحاً بتلك السياحة الجميلة التي ستقضيها مع أصدقائها في أجمل البقاع وأبهجها ، ثم ما لبثت أن اكتأبت وتغضن جبينها لأنها ذكرت ساعة الفراق القريبة ، وأنها ستعود بعد أيام قلائل إلى عزلتها في قريتها ، وتعيش فيها عيش الوحشة والوحدة بعيدة عن كوبلانس ومجامعها ، ومزدحم الحياة فيها ، فاشتد ذلك عليها كثيراً ، وألّمت سوزان بما دار في نفسها وعرفت ما أناه ، إلا أنها تباطت واستمرت في حديثها تقول : وسيصحبنا في سياحتنا هذه إدوار ، وسيكون أنسنا به وبعشرته عظيم ، ألا ترين رأيي في ذلك يا ماجدولين ؟ ففهمت ماجدولين مقصدها ، وأين تريد أن تذهب في حديثها ، فقالت : ليذهب معكم من تشاؤون من أصدقائكم وخطائكم ، فلا شأن لي في ذهاب من يذهب ، أو بقاء من يبقى ، فابتسمت سوزان واستطردت في حديثها تقول : ولقد اتفقنا كذلك على ألا يسافر إدوار معنا إلا باسم خطيبك ، وقد قطعنا هذا الأمر من دونك ، لأننا نعلم أنك لا ترين لنفسك إلا الرأي الذي نراه لك ، فاضطربت ماجدولين وقالت : لقد قلت لك يا سوزان قبل اليوم إنني لا أستطيع أن أتوجه ، قالت لماذا ؟ وهل تطمع الفتاة في زوج أفضل منه عقلاً وأدباً ، وشرفاً وجاهاً ، وهو فوق ذلك يحبك ويستهم بك ، ولا يؤثر

(١٩ — ماجدولين)

على سعادتك وهنائك غرضاً من أغراض الحياة ، ولا مأرباً من
مآربها ، قالت ولكنه لا يستطيع أن يحبني محبة استيفن إيلي ،
قالت أما هذه فنعم ، لأنه يحبك حب العقلاء والا كياس ،
لاحب النور كى والمأفونين

إن هذا الذى تزعمين أنه يحبك ويستهم بك لا يحبك ، بل
يحب فيك المرأة الخيالية التى يتخيلها فى ذهنه ، والتى لم يخلق الله
لها مثالا فى هذا العالم ، ولا يعبدك ، بل يعبد إلهه الموهوم الذى
يظن أنه حالٌ فى جثمانك ، كما كان يعبد آباؤنا الأولون آلهتهم
المائلة فى جذوع الأشجار ، وقطع الأحجار

انه يتخيلك ملكاً من ملائكة السماء تحيط بوجهه هالة من
النور ، ويرفرف فى جنبه جناحان أبيضان متلاًثلان تلاًلوا الاشعة ،
ويحمل بين أضلاعه نفساً غريبة عن النفوس فى جوهرها ومعدنها ،
قد جعلها الله بجميع صنوف الكمال ، وطهرها من أدناس الحياة
وأرجاسها ، فلا تفهم شهوة من الشهوات ، ولا تشعر بلذة من
اللذائذ ، ولا تعرف فرق ما بين السعادة والشقاء ، والغنى
والفقر ، والراحة والتعب ، والسرور والحزن ، فويل لك منه يوم
تنحسر عن عينيه بعد ساعة واحدة من بنائه بك غشاوة الحب
الأول ، فيراك كما أنت ، ويرى فرق ما بينك وبين تلك الصورة

الخيالية الهائمة في رأسه ، انه لا بدَّ يُبغضك ويحتقرك ، ويهوى بك إلى أدنى دركات الذل والشقاء ، ولا نهاية للاغراق في الحب ، غير الاغراق في البغض ، فان كان لا بدَّ لك من أن تحتفظي بمكانتك في قلبه فلا تتزوجيه ، ودعيه ينظر اليك دائماً بهذه العين التي ينظر بها اليك اليوم ، ولا تخشى عليه أن يشقى بفراقك فليست خبيعتُهُ فيك يوم يفقدك ، بأعظم من خبيعتِهِ في آماله وأحلامه يوم يراك ، ويرى في ثوبك امرأة غير المرأة التي كان ينتظرها ، ويطير شوقاً إليها

أنت لا تعلمين من شؤون الحياة ودخائلها مثلاً أعلم يا ماجدولين ، ولقد خبرتُ فيما خبرتُ من صروفها وتجاربها أن الغرام أضعف العلاقات بين الزوجين ، والمصلحة أقواها وأوثقها ، وأن الحب كالزهرة ، والمال كالطلّ الساقط عليها ، فاذا انقطع الطلّ عن الزهرة بضعة أيام ذوت أوراقها وتساقطت ، ثم تطايرت في مهاب الرياح الأربع ، وأن هذه الثورة النفسية التي يسمونها الصباية أو الوجد أو الوله أو الهيام ، والتي لا يزال يهتف بذكريها الشعراء ، وتطير في سماء خيالها أبواب الرجال والنساء ، إنما هي عرض من أعراض الاعصاب المريضة يهيجه البعد ، ويطفئهُ القرب ، ثم تبقى بعد ذلك الحاجة إلى العيش ومراقبته ، والسعادة وأسبابها ، فان أعوز

ذلك فقد مات الحب في القلب ، ودفنت جثته في ضريح الفقر ،
والفقر يطوى في أحشائه جميع عواطف القلوب وخواجها ، بل
ربما دارت الوسوس والاهام في رأس ذينك الزوجين اللذين
كانا متحابين بالامس ، فرأى كل منهما في وجه صاحبه صورة
الشؤم له ، وألقى عليه تبعه بؤسه وشقائه ، فاستحال حبهما الى بغض
متغلغل في سويداء القلب لا ينتزعه إلا الموت

أنت فقيرة يا ماجدولين ، وإستيفن أفقر منك ، فلا تظني
فقره إلى فقرك ، وليختر كل منكما لنفسه العشير الذي يعلم أنه
يسعده ، ويملاً فضاء حياته غبطة وهناء ، فإن كان لا بد لك من
الوفاء له فإن أوفى ما يكون المرء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على
مصلحة نفسه ، ويكفكف من نزعات قلبه وأهوائه في سبيل سعادته
وهنائه ، فليكن ذلك شأنك معه ، واحتملى مرارة فراقه وألم الحرمان
منه رحمة به وابقاء على حياته التي توشك أن تعبت بها نكبات
الدهر وأرزاؤه ، فقد أصبحت أخشى عليه وفي رأسه مثل هذا العقل
الضعيف المحتبل ، وبين جنبيه مثل هذا القلب الضعيف المستطار
أن يعثر به جده فيما يحاوله من الامل الذي يسعى اليه من أجلك ،
فيدفعه جنون الطمع الى سلوك طريق غير طريق الشرف ،
فيقترب جريمة ، أو ينتهك حرمة ، أو تثور برأسه نائرة اليأس فيقتل

نفسه ، طلباً للراحة من عناء الحياة وشقاءها ، فان فعل فأنت الجانية عليه ، والموردة إياه هذا المورد من التلف ، فانظري كيف يكون موقفك بين يدي ربك وضميرك غداً إن تم ذلك على يدك فاستعبرت ماجدولين باكية ، وما بكيت إلا رحمة بذلك البائس المسكين وإشفافاً عليه أن يناله بسببها هذا الشقاء العظيم ، وأطرقت ملياً ثم رفعت رأسها وقالت : دعيني الساعة وحدي ياسوزان فاني في حاجة إلى الخلوة بنفسى

٦٠

الجريدة العسكرية

التحم جيشنا أمس بجيش العدو واستمرت المعركة عشر ساعات لقي فيها جنودنا من بأس العدو وشدة وقوة مراسه هولا عظيماً حتى بلغ منهم اليأس أو كاد ، ثم برز من بين صفوفنا ضابط من ضباط الفرسان اسمه « أوجين ولتر » فهتف بجنوده « ورائي أيها الأبطال » وانقضَّ على العدو انقضاض النازلة السماوية فانقضَّ معه جنوده فسرت الحمية في نفس الجيش بأجمعه فهجم وراءه وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تمت الهزيمة للعدو وفر يطلب النجاة لنفسه في كل مكان فتبعناه وأمعنا فيه قتلاً وأسراً وغنمنا منه غنائم كثيرة

إلا أنه حدث لذلك الضابط الشجاع في نهاية المعركة حادث
كدر صفو ذلك الانتصار ، فانه ينما كان يتبع آثار العدو ويضرب
في مؤخرته إذ انقطع حزام سرجه وكان بالياً واهياً فعجز عن
التماسك فسقط عن جواده فداسته حوافر الخيل ، ثم انتبه له بعض
الجنود فداروا به واحتملوه إلى المعسكر وكانت فيه بقية من
الحياة فقضى ساعة يتألم ألماً شديداً ويهتف باسم أخ له اسمه
« استيفن » حتى فاضت روحه فزن الجيش عليه حزناً شديداً ،
وبكاه القواد ورؤساء الفرق ، ثم دفن باحتفال عظيم لائق بشجاعته
وإقدامه ، وحميته التي ليس لها مثيل

٦١

البيت الجديد

وقف استيفن على عتبة باب بيته الجديد وكان البناءون
لا يزالون يشتغلون باستصلاح بعض أتحائه فهتف بصديقه فرترز
فلباه فقال له : هل تم بناء الغرفتين الجديدتين على الصورة التي
اتفقنا عليها : قال نعم ياسيدى وتم كذلك تجسيصهما وترجييع
نوافذهما ، فجزاه خيراً ، ثم التفت إلى البستاني وقال له : هل غرست
أشجار الفاكهة التي أرسلتها اليك بالأمس ؟ قال نعم ياسيدى ،
وستكون الكرمة المنبسطة فوق الجدار من أبداع الكرّمات

وأجملها ، قال لا تنس أن تكسو السور كله باطنه وظاهره بأزهار
البنفسج كما أمرتك ، قال سأفعل ياسيدي إن شاء الله ، فتركه
ودخل المنزل فألقى على الطبقة السفلى نظرة عَجَلِي ، ثم صعد
إلى الطبقة العليا ووقف في بهو متسع تدور به الحجرات وقال :
ها قد أصبح البيت على الصورة التي اتفقنا عليها منذ عامين أنا
وماجدولين ، ففي الطبقة السفلى غرفة المائدة والمطبخ وغرف
المؤونة والمرافق ، وفي الطبقة العليا غرفة الاضياف ومخدع النوم
وقاعة الكتب وغرفة الشيخ مولر ، ثم فتح باب الغرفة الخامسة
وألقى عليها نظرة أملت بجميع ما فيها فاعرورقت عيناه بالدموع
وقال : لقد كنت أرجو يا أوجين أن تشركني في سعادتي كما
شركتني في شقائي ، ولكن هكذا أراد القدر أن يفرق بيني
وبينك ، وأن تكون سعادتي منعصمة بذكرائك أبد الدهر ،
فواأسف عليك يا أخي أسفاً لا يفارقني حتى الموت ، وستمر الايام ،
وتكرر الدهور والاعوام ، وسأنسى كل ما مر بي من حوادث
الدهر خيرها وشرها ، وبؤسها ورغدها ، ولا أنسى أنني ضننت
عليك بتلك الدراهم القليلة التي سألتنيها أحوج ما كنت اليهما ،
وأن يدي هي اليد الخفية التي أوردتك هذا المورد من الردى ،
فاغفر لى ذنبي ، واعف عني ، والقي يوم تلقاني في آخرتك بذلك

الوجه البشوش الغضّ الذي كنت تلقاني به في حياتك ، فأنا من لا يعيش إلا بذكرك ، ولا يموت إلا بقصتك ، وأقفل باب الغرفة وقال لن يفتح هذا الباب بعد اليوم ، ثم كفكف عبرته ، وسرى عن نفسه ، وأشرف على الحديقة يتلهى بالنظر إليها ، فوقع نظره على حوض الماء المبنى في وسطها فعاد إلى مناجاة نفسه يقول : وهاهو الحوض الذي سرتني فيه الاسماك ذوات الالوان المختلفة ، وهاهو السياج الذي رأينا أن نقيمه من حوله خوفاً على أولادنا المستقبلين من السقوط ، وهاهي أزهار البنفسج التي تحبها ماجدولين وتؤثرها على الازهار جميعها تملأ البيت داخله وخارجه

إنها لا تعلم الآن شيئاً عن هذه السعادة المهيأة لها ، وربما كانت تكابد اليوم أشد حالات بأسها وحزنها بعد انقطاع رسائل عنها أياماً طوالاً ، وسأباغتها بها مباغته لا يزول أثرها من نفسها أبد الدهر ، فقد شقينا ما استطاع الشقاء أن يكون ، وسنساعد بعد اليوم سعادة تنسينا همومنا الماضية وآلامنا ، ولا نذكرها إلا كما نذكر دموع طفولتنا وبكاءها

ثم نزل ومشى في الحديقة مع صديقه فرتر يناظر القاعين بتنظيم أغراسها ، وتهميد طرقاتها ، ويتنقل بين أشجارها وأزهارها مسروراً معتبطاً ، وكأنه لم يذق طعم الشقاء في دهره يوماً واحداً

ما كان استيفن قبل اليوم آمراً ولا ناهياً ، ولا صاحب بيت ولا حديقة ، بل ولا صاحب أى شىء من الأشياء ، إلا إذا كانت أثوابه البالية المرقعة شيئاً تتعلق به الحياة والملك ، فقد عاد إلى جونتيج بعد تلك الليلة الليلية التى كابدها فى غرفة قريبه صفر اليدين من كل شىء ، حتى من آماله وأمانيه ، ففقد فى فراش مرضه بضعة أيام كابدها من آلام جسمه ونفسه ما يعجز عن احتماله ، ثم أبلى قليلاً فأنشأ يفكر فيما يصنع بعد الذى كان من فشله وانقطاع رجائه به ، فخطرت له الانتحار ، ثم منعه منه أنه سيكون آخر عهده بما جدولين فلا يراها بعد اليوم ، وفكر فى الرجوع إلى أهله والاذعان لهم فى رغبتهم التى يرغبونها اليه ، ثم ذكر الموائيق التى أعطها لما جدولين ألا يتغنى بها بدلاً حتى الموت فعظم عليه أن يخيس بعهده ، ومر بمخاطره الفرار بنفسه إلى أية بقعة من بقاع الأرض يطلب فيها السلوة والراحة والتفرج مما به ، ولكنه أشفق على ماجدولين أن يقتلها الحزن عليه من بعده وهو إنما يحيا فى هذا العالم من أجلها ولم يزل يراوح بين هذه الفكر ويستدنى بعضها منها ويدود بعضاً حتى صحت عزيمته على أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين ولم

(٢٠ — ماجدولين)

يكن قد كتب اليها منذ عهد بعيد يقص عليها فيه قصته، وما آل
اليه أمره ويحللها من اليمين التي أقسمت^١هاله، ثم يضع أمره بين يديها، فإما
أحيته فعاد إلى أمه وسعيه، أو قتلته فاكتمى مؤونة قتل نفسه بنفسه
فانه ليكتب ذلك الكتاب إذ دخل عليه رسول البريدي يحمل
اليه رسالة من مسجل القرية التي مات فيها قريبه يقول له فيها،
إن الميت قد أوصى اليه في كتاب وصيته بعشرين ألف فرنك
يأخذها في الحال وعشرة آلاف يأخذها في كل عام، فاستطير
فرحاً وسروراً، وقال أحمدك اللهم فقد غللت يدي عن أن آخذ هذا
المال حراماً، حتى بعثت به إلى حلالاً، ومزق الكتاب الذي كان
يكتبه، وعلم أن أيام محنته قد انقضت، وأنه قد أدى للدهر ما
عليه له من ضريبة الشقاء، فلم يبق بين يديه إلا أن يستقبل السعادة
المقبلة عليه خالصة هنيئة لا يكدرها عليه مكدر حتى الموت
وأنشأ يفتش بمعونة صديقه فرّز عن بيت صغير يشرف
على نهر جوتنج ويكون على الضفة التي تمنها هو وماجدولين ليلة
ركباً زورق البحيرة وتحدثا عن آمالهما ومستقبلهما، فوجد بيتاً
يشبهه فابتاعه واستصاحه، وحوله إلى الصورة التي أرادها،
وأخذ يؤثث غرفه، ويفرس أشجار حديقته
وإنه كذلك إذ قرأ في الجريدة العسكرية خبر وفاة أخيه

فبكاه كثيراً ، ثم مال بث أن تجلد واصطبر ، ودفن حزنه في أعماق قلبه ، وألهاه سروره بحاضره عن التفكير في ماضيه ، فابتاع خاتماً للخطبة ثميناً وأعد عدته للسفر إلى ولفاخ وكان قد علم أن ماجدولين قد عادت إليها من كُوبلانس منذ عهد قريب ، ليباغتها بتلك السعادة التي هيأها لها ، ويخطبها إلى أبيها ، ثم يعود بها إلى جوتنج ليربها البيت الجديد

ثم ركب عجلته في صباح أحد الأيام وسافر وقلبه يخفق فرحاً وسروراً ، حتى وصل إلى ضاحية القرية ، فترك العجلة مكانها ، وأمر السائق أن ينتظره حتى يعود ، ونزل يمشي على قدميه ويقلب نظره في تلك المعاهد التي قضى فيها أيام سعادته الأولى ، وأشرق على قلبه من سماءها أول شعاع من أشعة الحب ، فرأى الغابة التي كان يهيم فيها وحده في الليالي القمرية مناجياً نفسه بحبه وغرامه ، مصوراً لها أعذب الآمال وأحلاها ، ومر بالنهر الذي اقتحمه منذ عامين لاستنقاذ ذلك الرجل الذي كان مشرفاً على الغرق حتى كاد يغرق معه لولا معونة الله وعنايته ، ووقف على ضفة البحيرة التي كان يتنزه فيها هو وماجدولين ساعة الأصيل ويقضيان الساعات الطوال بين سماءها ومائها

ثم أشرف على يدت الشيخ مولر فلاحته له أعالي أشجار

الزيفون التي كان يجلس تحتها هو وماجدولين كما كان يراها
في ذلك العهد ، ورأى من خلال أوراقها غرفته العالية التي كان
يسكنها ، فمادت إلى ذهنه تلك الأيام الماضية التي قضاهافي هذه
المواطن ؛ فرأى صبحها ومساءها ، وليلها ونهارها ، وبكورها
وأصائلها ، وكل ما مر له فيها من سرور وحزن ، ورجاء ويأس ،
وصحة ومرض ، ورخاء وشدة ، حتى خيل إليه أنه لا يزال مقبلا
في ذلك المنزل حتى اليوم ، وأنه إنما خرج الساعة من غرفته لقضاء
بعض حاجاته وهاهو ذا عائد إليها

ولم يزل يهيم في أمثال هذه التصورات حتى وصل إلى باب
الحديقة فوقف على عتبه وقال : هاهو ذا الباب الذي خرجت
منه بالأمس طريداً شريداً لا أملك من أمر نفسي ولا أمر
مستقبلي شيئاً ، وهأنذا أدخله اليوم آمناً مطمئناً كما أدخل بيتي ،
وأزور أهله وقومه كما أزور أهلي وقومي ، لا أخشى عينا ولا رقيقاً ،
ولا أتقى غائلة من غوائل الدهر ، ولا رزية من رزايه ، فاعجب
تقبلات الأيام ، وأغرب ما تأتي به الأقدار

ثم مشى في الحديقة يقلب نظره في أشجارها وأغراسها ،
وجداولها وطرقاتها ، ويقول في نفسه : لقد بقي كل شيء على
ما هو عليه ، فهذه هي ثغرة الحائط الغربي لا تزال باقية كما هي ، وهاهي

الصخرة العاتية السوداء ملقاة في مكانها تحت الجدار كما تركتها ،
وهاهى أعشاش الطيور فوق قمة شجرة السنديان تختلف اليها
عصافيرها غادية رائحة كعهدى بها ، ثم التفت الى يمينه وقال :
وها هو الجذع الذى حفرنا عليه اسمينا أنا وماجدولين ، ثم مشى
اليه فرأى الكتابة لاتزال على حاتها كأنما قد حفرت بالأمس ،
فاغرو رقت عيناه بالدموع وجثا ، بين يدي الجذع وأهوى بفمه اليه
فلشمه ، كأنما يشكر له تلك اليد التى أسداها اليه فى احتفاظه بتلك
الذكرى القديمة التى أودعه إياها ، وهبت على وجهه فى تلك الساعة
نَسْمَةٌ مرت قبل مرورها عليه بأزهار الحديقة وأعشابها فحملت
إلى رأسه تلك المجموعة العطرية البديعة التى طالما استروحها فى
هذا المكان نفسه مع ماجدولين ، ولا يحمل الذكرى القديمة مثل
الأريج العطر ، فهاج وجدّه وحنينه ، وأخذ يعانق الهواء ويضمه
اليه ، كما يضم حبيباً ملقى بين ذراعيه

ولم يزل سائراً حتى وصل الى رأس الطريق الموصل الى مكان
المقعد الذى كان يجلس عليه هو وماجدولين تحت أشجار الزيزفون ،
ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة ، فاشتد تأثره ، وخفق قلبه
خفقاناً شديداً ، وحدثته نفسه أن ماجدولين جالسة هناك الساعة
وحدها تبكى وتنتحب ، وتندب آمالها وأحلامها ، وتفكر

في انقطاع كتبه عنها ، فأشفق عليها أن يباغتها بالخبر مباغته فيقتلها ،
 فأخذ يهيئ في نفسه طريقة إلقاءه ، ثم مال برأسه قليلا فرأى
 طرف المقعد ، ورأى ذيل ثوب حريري أبيض منسدلا عليه ،
 فاستطير فرحاً وسروراً وقال هاهي ذى جالسة كما كنت أتوقع
 أن أراها ، فثبتت اللهم قدمي وقدمها في ذلك الموقف الجلل العظيم
 ثم انعطفت فما وقع نظره على المقعد حتى جمدوا صفر ، ووقفت
 دورة الدم في عروقه ، وتعلقت أنفاسه بين لحية فما تصعد ولا
 تهبط ، فقد رأى ماجدولين جالسة بجانب فتى غريب تبسم له
 ويسم لها ، وقد أخذ يدها بين يديه وألقى رأسه على صدرها ، وحنا
 عليها حنو الحب على حبيبه ، فظل يقول في نفسه : ما هذا الذي
 أرى : إنني لأفهم من كل ذلك شيئا ! إنها ماجدولين بعينها !
 فمن هو هذا الانسان الجالس اليها ؟ أليس هو صديقي ادوار ؟
 نعم هو بعينه فما مجيئه هنا في هذه القرية ؟ وما وجوده في هذا
 البيت ؟ وما جلوسه بجانبها هذه الجلوسة الغريبة ؟ ثم شد يده
 على قلبه كأنما يحاول أن يحبس عن الفرار ، ومشى يقتلع قدميه
 اقتلاعا كأنه شبح من الأشباح الهائجة في ظلام الليل حتى دنا
 منهما ، ففرعا إذ رأياه ، ووثبا على أقدامهما ووثبة واحدة ، ثم مالبا أن
 يختلف شأنهما ، فأخذ إدوار بطرف شاربه يعبت به ويقلب

عينيه في السماء كأنه منجم يفتش عن النجم السابع والسبعين بعد المائة
والخمس والعشرين مليوناً كما يصنع المنجمون ، وأطرت ماجدولين
الى الارض فسكنت في إطراقها سكونا عميقا لا تتخلله حركة ولا
نأمة ، فظل استيفن يردد نظره بينهما باهتا مشدوها لا يقول لهما شيئا ،
ولا يفهم من موقفهما أمرا ، ثم مشى خطوة الى ماجدولين وقد أخذ
الذهول مأخذه من عقله ففسى المنظر الذى رآه منذ لحظة ، وأنشأ
يخاطبها باسمها متطلقا ويقول لها : لقد انقضت أيام شقائنا
ياماجدولين . ولقد أصبحت والحمد لله صاحب ثروة لأقول انها
عظيمة ولكنها كافية لسعادتنا وهنائنا ، فحنت اليك أنتجزي وعدك ،
وأخطبك الى أبيك ، ثم أذهب بك الى جونتج لاريك البيت
الجديد الذى ابتعته لك منذ عهد قريب ، وسترين حين ترينه
أنه على الهيئة التى تمنينا أن يكون عليها ليلة ركبنا زورق البحيرة
وتحدثنا عن آمالنا وأمانينا ، فارتعدت ماجدولين وامتقع لونها
وقالت بصوت ضعيف خافت كأنها تهمس فى نفسها ببعض الاحاديث
« انى أهنتك بصلاح حالك ياسيدى » فعجب استيفن لذلك
واستطير عقله وقال فى نفسه : ما هذا الذى أسمع : إنها تهنئنى
بصلاح حالى كأنها ترى أن لى حالا خاصة بى مستقلة عن حالها ،
فليت شعرى ما بالها : وما هذا السكون الخيم عليها ! وما هذا

الوجه الغريب الذى تلقانى به ! لقد كنت أخشى أن أقتلها فرحاً
وسروراً ، فإذا هى تقتلنى هما وكداً ، ثم نسى هذا المنظر الاخير
كما نسى الاول ، فأخرج من جيبه خاتم الخطبة ومشى اليها خطوة
أخرى ليقدمه اليها ، فما وقع نظره على أصبعها حتى تراجع خائفاً
مذعوراً ، فقد رأى فيه خاتماً غير ذلك الخاتم الذى نسجته من
شعره ، وكانت تحدّثه عنه فى رسائلها كثيراً وتقول له انه لا يفارق
أصبعها لحظة واحدة ، فاشتد خوفه قلبه واضطرابه ، وظل يدور
بعينه حائراً ملتماحاً لا يعلم أخيراً يرى أم حقيقة ، وازدحم
الدموع فى عينيه تتبادر إلى السقوط ، فد يده إلى ماجدواين
ضارعا وقال لها : ألا تستطيعين ياسيدتى أن تقولى لى كلمة واحدة
فانى أشعر أنى على وشك الجنون ؟ فرفعت رأسها ونظرت اليه
كانها تريد أن تقول له شيئاً ثم عادت إلى إطراقها وسكونها ، وهنا
تقدم نحوه إدوار ووضع يده على كتفه وقال له : حسبك هذا يا استيفن
فانك تقتل السيدة قتلاً ، فانتبه استيفن اليه وكأنه لم يكن رآه
قبل هذه اللحظة فصعد نظره فيه وصوبه وقال له : إننى لم أكن
أتوقع أن أراك هنا فى هذا المكان يا إدوار ، فقال له سوائى أتوقعت
أم لم تتوقع فقد كان يجب عليك أن تستأذن قبل الدخول ، ولم يكن
يجمل بك وأنت فى هذه السن المتقدمة أن تنسى أول درس

يتلقاه التلميذ في مدرسته في أدب الزيارة والاستئذان ، فانتفض
استيفن انتفاضةً شديدة وعلت جبينه سحابة بيضاء لم تزل تتسع
وتستفيض حتى لبست وجهه كله فصار كأنه البرد الناصع ،
واسترخت يدها كما يكسر الطائر جناحيه للوقوع ، وشعر بتخاذل
أطرافه فترجع إلى شجرة وراءه فاستند إليها ثم نظر إلى إدوار
نظرةً يقطر منها الدم وقال له تلك الكلمة التي قالها يوليوس قيصر
حينما طعن من خلفه فالتفت فرأى أن الذي طعنه هو صديقه
وصفيه « حتى أنت يا بروتس » وصمت لحظة حتى رجعت إليه نفسه
ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها بصوت خافت متهدج تطاير معه
أجزاء نفسه : أصبح ما يقول هذا الرجل يا ماجدولين ؟ وهل
ترين كما يرى أنني أخطأت في دخولي عليك بغير استئذان ؟ وهل
تعتقدين أن له شأنًا عندك يسمح له بأن يتولى أمر مؤاخذتي بالنيابة
عني ، فاعترض إدوار بينهما ومد يده إليها وقال لها : هيا بنا يا سيدتي فقد
طال جلوسنا في هذا المكان حتى مللناه ، فأعطته يدها وتبعته صامتة
مطرقة حتى دخلا البيت وتركاه في مكانه ينظر إليهما وهما يبتعدان
عنه شيئًا فشيئًا حتى اختفيا وسمع خفق الباب وراءهما ، فظل شاخصًا
إلى الباب الذي دخلاه لا يتحرك ولا يطفرف ، ولا تنبعث له جارية ، ولا
ينبض له عرق ، ومرت به على ذلك ساعة ثم أخذ يحدث نفسه ويقول
(٢١ — ماجدولين)

إنّ ادوار بخاطبني بلهجة الأمر الناهي كأن له شأنًا في هذا البيت فوق شائي ، فلا بد أن يكون له هذا الشأن الذي يزعمه ، ولا بد أن يكون قد استمده من ماجدولين نفسها ، فقد رأته بعينها وهو يحتقرني ويزدريني بل يسبني ويشتمني فلم تقل له شيئًا ، لا بل إنها وافقته على أكثر من ذلك ، فقد مديده اليها ودعاها للدخول معه إلى المنزل وهي تعلم أنه لا يريد بذلك إلا طردى وإذلالى فتبعته طائعة مذعنة ، ولم تلتفت إلى ساعة انصرافها التفاتة واحدة تعتذر بها عن عملها هذا ، وها قد مضت ساعة بعد ذهابها ولم تعد إلى تترى ماذا حلّ بي من بعدها ، فليت شعري ماذا نى عندها ؟ وما هذا الذى بينها وبين إدوار ؟ إننى أخشى أن يكون خطيبها ، وأن يكون هذا الخاتم الذى فى يدها خاتم الخطبة الذى أهدها إليها ، وأن تكون تلك الجلسة التى رأيتها يجلسها بجانبها جلسة غرام يتشاكيان فيها الحب ويتبائنان ، فإن كان ما ظننته حقًا فهى فتاة مجرمة خائنة ، لأنها وعدتني بالانتظار حتى ييسر الله لى سبيل الرزق فلم تف بوعدها ، بل أقسمت لى الايمان التى لافسحة فيها على الوفاء حتى الموت فلم تبرّ يمينها

لألا ، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، لأنها تعلم حق العلم أنها لى ، وأننى صاحب الشأن فيها من دون الناس جميعًا ، فقد اشتريتها

بدم حياتي وبجميع دموعي وآلامي ، وكبدت في سبيلها من نكبات
 الدهر وأرزائه ما يخرج احتماله عن طوق البشر ، نجعت حتى
 أشرفت على الموت ، وعريت حتى حبست نفسي عن الخروج من
 غرفتي الأفي ذمام الليل وحمايته ، ونمت في الليالي القرة الباردة في ممر
 الهواء الجارى بلا غطاء ولا دثار ، وخرجت تحت جنح الظلام
 أقش في صناديق القمامة عن لقمة متروكة أو عظمة مطروحة
 أسد بها رمقي ، وبعث الخبز الأبيض بالخبز الأسود لا أستطيع أن
 أجد لقمة لغدائي ، وأخرى لعشائي ، وما زلت أرقع قميصي حتى
 صار القميص الرقاع وذهب القميص بأجمعه ، بل ركبت في سبيلها
 ما هو أعظم من ذلك ، فقد قتلت أخي ، ومثلت بالرجل الذي
 أحسن إلى في حياته وبعد مماته ، وحدثت نفسي بسرقة ماله ، بل
 مددت يدي إليه ، فأصبحت بذلك من المجرمين

إنها لا تستطيع أن تنزع يدها من يدي ، ولا أن تفصل
 حياتها من حياتي ، فقد خلقت لي كما خلقت لها ، وهما هو اسمي
 محفور بجانب اسمها على جذوع أشجار حديقتهما ، وهما هي شعرات
 رأسها منسوجة في الخاتم الذي ألبسه منذ عامين ، وهما هي
 الأرض والسماء ، والبحيرة والفلك ، والشمس والقمر ، والأشجار
 والأعشاب ، والطيور والأزهار ، تشهد بحبنا وغرامنا ، ومواقف

آمالنا وأحلامنا ، وأيماننا التي أقسمناها ألا يفرق بيننا إلا الموت ،
فإن كانت نفسها قد حدثها بمقاطعتي ، واتخاذ سبيل في الحياة غير
سبيلي ، فقد قضت علي وعلى نفسها في آن واحد ، لأن الحياة الواحدة
لا يمكن أن تنقسم إلى حياتين تعيش كل منهما مستقلة عن الأخرى
ثم تأوه آهة طويلة وقال من لي بمن أبيعه نصف حياتي على أن
يكشف لي الحقيقة التي أجهلها ، ولقد كان جديراً بي أن أقف
في طريقيهما عندما حاولا الفرار مني وأبي عليهما أن ينصرفا إلا بعد
أن يعترف لي بحقيقة أمرهما ، ويمزقا عن وجهها هذا الستار الذي
أسبلاه عليهما ، فإن أيما قتلتها غير ظالم ولا آثم ، فليس من
العدل ولا من الرحمة أن يذهبا إلى خلوتها لينعما فيها بما يشا أن
أن ينعما به ، ويتركان في هذا المكان وحدي أعالج ما أعالج من
الهموم والآلام

ثم قام يتعامل على نفسه حتى خرج من باب الحديقة ومشى يترنح
في مشيته ترنح الشارب التمل ، فما أبعد إلا قليلاً حتى سمع صوتاً
شديداً يخفق وراءه فالتفت فإذا إدوار خارج من باب الحديقة ممتطياً
صهوة جواده أصهب فاحتبأ استيفن وراء ربوة على الطريق حتى دنا
منه فخرج إليه وأمسك بعنان جواده فذعر إدوار إذ رآه ولكنه
يأسك وتجلد ، وقال له ماذا تريد يا استيفن ؟ قال أريد أن أسألك

عن سبب اختلافك إلى هذا البيت ، وعن الشأن الذى لك فيه ، وما أعرف لك فيه شيئاً قبل اليوم ، قال لا أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا وأنت اخذ بعنان جوادى لا تتركه ، فدعوه وسلى ما تريد ، فترك استيفن العنان لأنه وقف فى وجه الجواد ، فقال له إدوار لو غيرك سألتنى هذا السؤال بهذه اللهجة الجافية الخشنة التى تخاطبني بها لما كان له جوابٌ عندى سوى أن أقول له إني حر مطلق أتصرف فى شؤون نفسى كيف أشاء ، فأزور ما أزور من المنازل ، وأترك ما أترك منها ، دون أن أعرف لانسان فى الوجود حقاً فى مراقبتي أو مساءلتى عما أفعل ، ولكن إكراماً للصداقة التى بينى وبينك أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا جواباً موجزاً فأقول لك : إني أختلف إلى بيت الشيخ مولر لاني خطيب ابنته ، وسأبني بها بعد شهر واحد ، ولوشئت لحضرت حفلة عرسنا ، بل أنا أدعوك إلى ذلك ، فارتعدت شفتا استيفن ، وشعر بالموت يتسرب إلى قلبه قليلاً قليلاً ، وقال له بصوت خافت ضعيف : أتعنى ما جدولين ؟ قال نعم ، وليس لمولر ابنة غيرها ، فاطرق استيفن هنيهة ثم رفع رأسه وقال له : ولكنك تعلم يا إدوار أني أحبها ، وأنها كل حظي فى هذه الحياة ، وأن انتزاعها من يدي إنما هو بمثابة انتزاع حياتي من بين جنبي ، فهل يهون عليك وأنا صديقك ورفيق صباك وشريك الدائم فى سرّاء

الحياة وضرائها أن تقتلني ؟ قال أنا أعلم أنك تحب هذه الفتاة ،
وأنت استملمتها في بعض أيام حياتك الماضية بعض الاستمالة حتى
كادت تسقط في أحبولة الشقاء التي نصبتها لها لولا أن تداركها
أبوها فاستنقذها من يدك وطرده من بيته طرداً قبيحاً وحماها
ذلك المستقبل المظلم الذي كنت تهيمه لها ؛ فقاطعه استيقظ
وقال له : ولكنك لم تجبني على سؤالي الذي سألتك ، قال وما
سؤالك ؟ قال سألتك هل يهون عليك قتلي وأنت أخي وصديقي ،
ورفيق طفولتي وصباي ، قال إني ما أردت قتلك ، بل أردت
حياتك ، فقد تركت لك السبيل بعملى هذا إلى الرجوع إلى
نفسك ، والتفكير في شأن حاضرک ومستقبلک ، فلعلك إن
روأت في أمرک قليلا علمت أن خيراً لك من هذه الحياة المضطربة
المبعثرة التي تقضيها بين أحلام خائبة ، وآمال كاذبة ، الرجوع إلى
أهلك والانضواء إليهم والكون تحت أجنحتهم والاذعان لهم
فيما يريدون لك من الخير في تزويجك من تلك الفتاة الثرية التي
اختاروها لك ، ولا يذهب عليك أن زواجك من فتاة موسرة تظلل
بوارف نعمتها ضاحي^(١) ففكر خيراً لك من القعود مقعد الذل والمترية
بجانب فتاة فقيرة تضم شقاءها إلى شقائقك فتعيا بحملها معاً ، فهذا أنت

(١) ضحى الشيء برز للشمس فهو ضاح

ترى أننى قد أردت لك الخير فيما فعلت ، وأسديت اليك نعمة إن جهلتها اليوم فستعرفها غداً ، وستهدأ عما قليل هذه العاصفة النائرة في رأسك فتعرف لى مكان تلك اليد التى اتخذتها عندك وتشكرها لى شكراً جزيلاً

فما أنى ادوار على آخر كلماته حتى طار الغضب فى رأس استيفن وبرزت من مكمها تلك السورة التى كانت رابضة وراء سكونه فانقض عليه ولبىبه ^(١) وهزه هزاً شديداً حتى كاد يقتلعه من سرجه وأنشأ يقول له : الآن عرفت مكان الخديعة التى خدعتم بها تلك الفتاة المسكينة أيها القوم الاشرار ، ومن أى باب دخلتم إلى قلبها فعبثتم به ، وإلى عقلها فطرتم بصوابه ، فقد علمتم ما تضمره لى بين جوانحها من الحب والاخلاص ، وأنها لا تبتغى بسعادتي بدلا من أغراض الحياة وما ربهها ، فالقيتم فى روعها أنها علة مألأفيه فى هذه الحياة من بؤس وشقاء ، وألأ سبيل لى إلى أن أنال فى حياتى حظاً من سعادة العيش وهنائه إلا إذا أياستنى من نفسها وانزعجت يدها من يدي ، وقطعت ما كان موصولاً من الود بينى وبينها ، فصدقت حديثكم وأزعجها هذا المصير الذى خيلتم لها أننى سأصير اليه بسببها ، فأذعنت لرأيكم ، واستقادت لكم ،

(١) لبيه أخذ بتليبه أى جمع أتيابه

وفعلت ما اقترحت عليها ، رحمة بي ، واشفاقا علي ، وكذلك استطعت
أن تستثمروا ضعفها وتستغلوه لأنفسكم ، وما بكم من رحمة بي ولا
بها ، ولكن هكذا اراد ذلك الشيخ الجشع المأفون أن يستمتع
بنعمة المال الذي يعبد ويدن به فباعك ابنته بيع الاماء في سوق
الرقيق ، وهكذا أردت انت ان تتمتع بشهوتك البهيمية التي لا تفهم
من شؤون الحياة شائنا غيرها ، ولا يعنيك من زواجك من مثل
هذه الفتاة امر سواها ، فثلك من يعجز عن ادراك السريرة نفسها ،
وما تضره بين جوانحها من نبل وشرف ، وكل ما تستطيع ان تفهمه
منها انها فتاة وضيئة حسناء تشبه في بهائها وروقتها رونق اولئك
الفتيات الجميلات اللواتي طالما خدعنهن عن انفسهن ، وقضيت
لياليك في مقاصيرهن ، ثم ما لبثت ان نفضت يدك منهن ،
وتركتهن يندبن حياتهن وآمالهن ، ولو استطعت ان تسلك الى
المتعة بهذه الفتاة تلك السبيل التي سلكتها الى المتعة بأولئك الفتيات
لفعلت ، ولما جشمت نفسك مشقة الزواج منها ، ولا غنتك ليلة
واحدة تقضيها في مخدعها عن أن تحبس نفسك عليها الدهر كله
ومن كان هذا همه من حياته فويل لزوجته منه ، وويل
له منها ، وويل لهما من شقائهما الدائم الطويل
فقال له ادوار : إن كنت تريد ان تقول انها أرغمت علي

زواجها إرغاماً ، أو خُدعت فيه خديعة ، فأنت مخطئ في ظنك ، لأنها
قد نسيت كل ماضيها خيرَه وشرَّه ، ولم يبقَ بين يديها إلا حبُّها
لخطيئها ، وإخلاصها إليه ، وتعليل نفسها باليوم الذي تسعد فيه بجانيه
فاستطير استيفن غضباً وقال : كذبت أيها الرجل الساقط ،
إنها أشرف مما تظن ، وانتقض عليه يريد الفتك به ، فأمسك ادوار
بيديه وقال له بنعمة المستعطف المسترحم : أتريد أن تقتلني يا استيفن ؟
فاستخذى استيفن وتضاءل ، وتراءى له طيفُ ذلك الوُدِّ القديم الذي
كان بينه وبينه ، ونظر إليه بعينين مغرورتين بالدموع وقال له :
لا يا ادوار ، لا أستطيع أن أقتلك لأنك صديقي ، ولقد وُفِّقْتُ
مرة في حياتي أن أسفك بضع قطرات من دمي فداءً عنك فلا أندم
على معروفٍ قط ، ولا أسترده يدي التي اتخذتها عند الله فيك أبداً
ثم ألقى برأسه على قَرَبوس السرج وأخذ يد ادوار بين يديه وبيلها
بدموعه وظل يناشده ويقول : إنني لا أدعوك يا ادوار باسم الصداقة
التي رضعنا ثديها منذ طفولتنا معاً كما يتقاسم الأخوان ثدي أمهما ،
ولا باسم المدرسة التي أظلمتنا سماؤها وأظلمتنا أرضها خمسة أعوام كاملة
آنسُ بك فيها وتأنس بي ، وأعينك على أمرك وتعينني على أمري ،
ولا باسم ذلك الشهيد المسكين أوجين الذي كان كريماً عليك وعلى ،

وكان يرعى لك وذك ويحفظ عهدك حتى مات وهو يعتقد أنه قد تركنى
من بعده فى كلاءة أخ كريم ، وصديق حميم ، ولا باسم اليمين التى
أقسمتها لى ليلة سفرك من جوتنج ألا يهدأ لك فى حياتك رُوع ،
ولا يثايج لك صدر ، حتى أنال أُمْنيتى من حياتى ، بل ادعوك باسم
الرحمة والشفقة ، لأنك محسن كريم ، ولأنى بالأس مسكين ، وليس
للبنائس المسكين من سبيل فى حياته غير رحمة المحسن الكريم
فلم يعبأ إدوار بذلك كله وتغفله وهمز جواده فطار به ملء
فروجه ، فركض استيفن وراءه فلم يدركه ، وكان قد أعياه الجهد
فسقط فى مكانه وهو يقول « لابد ان يكون ما قاله صحيحاً »
ولم يزل فى سقطته تلك حتى مرّ به بعض السابلة وكان قد
راه عند حضوره فعرفه فأذن به سائق عجلته فهرع اليه الحوذنى
وأخذ بيده حتى أركبه العجلة ثم ذهب به الى منزله
فما انفرد بنفسه فى غرفته حتى أخذ يصيح صياح المجانين
ويضرب رأسه بالجدران وهو يقول « آه لقد فقدتك
ياما جدولين »

رسائل استيفن

٦٣

من استيفن إلى ماجدولين

أصبح يا ماجدولين أن ما كان بيننا قد انقضى ! وانا أصبحنا
متناكرين غير متعارفين لا يذكر الواحد منا صاحبه الا كما يذكر
حلمًا من أحلام صباه قد عفت آثاره الأيام والأعوام !
أصبحنا اذا التقينا بعد اليوم في طريق واحد مضى كل منا
في سبيله دون أن يلوى على صاحبه أو في مجتمع لا يكون بيننا من
الشان الا كما يكون بين سائر رجال ذلك المجتمع ونسائه، أو في خلوة،
لا يجد ما نتحدث به أو لا نتحدث إلا بحديث الاجواء والامطار !
ما أسرع تقلبات الأيام ! وما أغرب تصاريفها وشؤونها !
أفيا بين يوم وليلة تهدم جميع تلك الآمال الجسام التي
بنيناها وأحكمنا بناءها ، وبدلنا في سبيلها همومنا وآلامنا ، وأرقنا
من أجلها كل ما نملك من دموع وشؤون ، وتصبح أثرًا من
الاثار الدارسة التي يتحدث عنها التاريخ الحاضر كما يتحدث عن
التاريخ الغابر

هكذا تقوم الساعة ، وهكذا ترجف الراحفة ، وهكذا
تنتثر الكواكب في الفضاء ، وتطوى السماء طيًّا السجل للكتاب

لقد كنت أحسب يا مجدولين ألا يتولى ذلك الأمر منا غير الموت ، أمّا وقد توليناه من أنفسنا بأنفسنا ، ونسجنا خيوطه بأيدينا ، ونحن أحياء ، فتلك أعجوبة الدهر التي لم ير مثلها راء ، ولا سمع بمثل حديثها سامع

ماذا أنكرت مني يا مجدولين ؟ وماذا دهاني عندك ؟

لقد أحبيتك حباً لم يحبه أحد من قبلي أحداً ، وأخلصت لك إخلاصاً لا يضمّر مثله أخ لأخيه ، ولا والد لولده ، وأجللتك اجلال العابد لمعبوده ، فاخنتك في سر ولا جهر ، ولا كذبتك في قول ولا عمل ، وملاّت فراغ حياتي كله بك ، فلا أنظر إلا إليك ، ولا أشعر إلا بك ، ولا أحلم إلا بطيفك ، ولا أطرب لرؤية الشمس ساعة شروقها إلا لأنني أرى فيها صورتك ، ولا لسماع أغاريد الطير في أفنانها إلا لأنني أسمع فيها نغمة حديثك ، ولا لمنظر الأزهار الضاحكة في أكمامها إلا لأنها تمثل لي ألوان جمالك ، ولا تمنيت لنفسي سعادة في هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ، ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك ، وأستمع برويتك

ان كنت ترين اني لا أستحق محبتك ، وأنى أصغر شأننا من أن أملاً فراغ قلبك ، فأجبي في حبي إياك ، وإخلاصى لك واجزى خيراً بما بذلت لك في حياتي من دموع وآلام ، وشجون وأحزان ،

واعلمى أنك إن استطعت أن تجدى بين الرجال من يرضيك بحاله
أو ماله ، أو حسبه أو جاهه ، فانك لا تستطيعين أن تجدى فيهم من
يجبك محبتي ، أو يخلص لك اخلاصى

إنهم قد خدعوك يا مجدولين وزينوا لك حب المال والشهوات ،
وخيّلوا اليك أن الحياة طعام وشراب ، وثوب فاخر ، وقصر باذخ ،
وعقد ثمين ، وقُرط جميل ، وأن الزواج شركة مالية يتعاون فيها
الزوجان على جمع المال واكتنازه ، وما علموا أن الزواج المالى نوع من
أنواع البغاء ، وأن المرأة التى تزوج الرجل لماله لا تتوجه كما تزعم ،
بل تبيعه نفسها بيعاً كما تبيع البغى جسمها لعاشقها ، بل هى أحط
من البغى شأنًا ، وأسفل غرضًا ، لأنها لم تبع نفسها من أجل لقمة
تقيم بها أودها ، أو خرقه تستر بها ضاحى جلدها ، فينفسح لها
صدر العذر فى ذلك ، بل من أجل عقد ثمين تطمع فى أن زين
به صدرها ، أو ثوب فاخر تكأثر به أثوابها ، أو قصر جميل تستمتع
فى جوهه بأنواع لذائذها

لا تصدق يا مجدولين أن فى الدنيا سعادة غير سعادة الحب ،
فإن صدقت فويل لك منك ، فانك قد حكمت على قلبك بالموت
لقد كنت عندى آخر من يحفل بأمثال هذه المظاهر الكاذبة
ويأبه لها ، وكان اكبر ما اعظمك فى عيني ، واجلك فى نفسى ،

واستعبدنى لك ، أنك المرأة التى وجدت فيها وحدها من بين النساء
جميعاً قلباً نقياً طاهراً يفيض بالحب النقي الطاهر الذى لا تشوبه
شوائب النوازع والشهوات ، ولا يكدره مكدر من أغراض
الحياة ومطامعها ، فهل كنت مخطئاً فى ظنى ؟

لألا ، إنك لاتزالين صاحبة ذلك القلب الذى أعرفه حتى
الساعة ، وهذا هو الذى أخافه عليك ، وأرئى لك من أجله

أنت لاتعلمين شيئاً من شؤون إدوار ، وأنا أعلم من شؤونه
كل شئ ، وأخص ما أعلم منها أنه لا يحمل بين جنبيه قلباً مثل قلبك ،
ولا يفهم من معنى الحب وسره المعنى الذى تفهمين ، ولا يستطيع أن
يكون شريكاً لك بحال من الاحوال فى شعورك ووجدانك ،
وكل شأنه معك انه رأى فاستملحك فاشتهاك ، والملاحه عرض زائل ،
والشهوة ظل متنقل ، فأخشى عليك أن ينالك بعد قليل على يده ذلك
الشقاء الذى تفرين منه اليوم ، وألا ينفعك ولا يجدى عليك شيئاً
فى ذلك الحين مال ولا نسب ، ولا فضة ولا ذهب ، وأن تم لك ذلك
لأ تكونن أشقى الناس عيشاً ، وأعظمهم بؤساً ، لأنى أحبك ، وأحب لك
السعادة فى كل موطن تكونين فيه ، من أجلك ، لا من أجل نفسى
ليت شعرى هل يصل صوتى الى اعماق قلبك يا ماجدواين
كما كان يصل اليه قبل اليوم ؟ وهل تستطيعين ان تتصورى كما

كنت تتصورين من قبل أنني أحبك لك أكثر مما أحبك لنفسى ،
واننى فيما أفضيتُ به اليك من تلك النصيحة إنما أردتُ سعادتك
وهناك ، أكثر مما أردت سعادة نفسى وهناءها ؛

٦٤

من استيفن الى ماجدولين

لَقَلَّمَا أَبْقَى عَلَى مَا أَرَى

الحياة مظلمة فى عيني ، والدنيا موحشة مقفرة لا أسمع فيها حسا
ولا حركة ، كأن الليل متواصل لا ينقطع ، وكان الناس رُقوداً فى
مصاجعهم ليلاً ونهارهم ، لا يستيقظون ولا يستفيقون ، ويخيل الى
أننى أعيش فى صحراء نائية منقطعة عن العالم وما فيه ، لا يمر بها طير ،
ولا يجري فيها نهر ، ولا يطرأ تربتها انسان ، ولا يحول فى اكناها
حيوان ، واننى اهتم فيها وحدى ليلى ونهارى ، أطلب الخلاص منها فلا
أعرف السبيل اليه ، واحمل نفسى على البقاء فيها فيقتلنى الضجر والضيق
فمضى يحين حينى وتأتى ساعى فأرتاح من همومى وآلامى ؛
لا شىء يعزىنى عنك فى العالم يا ماجدولين ، لانك كنت لى
كل شىء فيه ، فلما فقدتك لم أجِد منك عوضاً ولا بدلاً ، وكنتُ
ممن قامر فى ساعة واحدة بجميع ما تملك يده فلما خسر خسر كل شىء
كانت لى آمال كبار ، وامان حسان ، وكانت لى نفس مملوءة

بعضائهم الأمور وجلالها ، وكنت أشعر بقوة في جسمي لا يقوم لها شيء في هذا العالم ، فأصبحت رجلاً ضعيفاً خامداً متألماً يائساً قانطلاً لأشعر ولا أفكر ، ولا آخذ ولا أدع ، ولا أتجه إلى مقصد ، ولا أتعلق بغرض ، ولا أجلب لنفسى خيراً ، ولا أدفع عنها ضرراً ، ولا شأن لي بين الناس أكثر من شأن جثة ملقاة لروح فيها ، أو حجر مطروح في قارة الطريق

ألا تخافين يا ماجدولين أن يأخذك الله بذنبي يوم يأخذ الناس بذنوبهم ، ويسألك عن هذه النفس الطيبة الطاهرة التي قتلها ونجستها في جميع فضائلها ومواهبها ، وإن يتبعك صوتي في كل مكان تكونين فيه ، في خلواتك ومجتمعاتك ، ومنامك ويقظتك ، وبين ذراعي زوجك ، وبجانب مهود أولادك ، ويصيح بك : إنك قد قتلت رجلاً لو عاش لسكان أفضل مثال للزواج الصالحين ، والآباء الرحماء ، والأصدقاء الأوفياء ، ولسكان خير الناس للناس جميعاً

ألم تعديني يا ماجدولين أن تسهرى على سعادتي وتحرسها كما تحرس الملائكة سعادة البشر وهناءهم ؟ فهأنذا أشقى الناس جميعاً ، وأعظمهم بؤساً وبلاءً ، فأين ما وعدتني به ؟

تعالى إلى وقفي أمامي ساعة واحدة لأراك وارى في وجهك صورة سعادتي الزائلة ، وآمالى الضائعة ، وأسمعي صوتك العذب

الجميل الذى أسمعته من قبل ، وألقى على نظرة واحدة من نظراتك
العذبة الرائقة تحيى بها نفسى الميتة ، وقولى لى صدقاً أو كذباً إنك
لا تزالين تحبيننى وتعطفين على ، ثم لا تزيدى على ذلك شيئاً ، فقد
أصبحت أقنع منك بكل شئ

أقسم لك يا ماجدولين انى لورائتك فى طريق لهرعت اليك
وجثوت تحت قدميك كما يحثو العابد تحت قدمى معبوده وسألتك
البر والاحسان كما يفعل السائل المستجدى ، فان أعرضت عني
زحفت وراءك على ركبتي وتعلقت بأهداب ثوبك حتى تصغى
الى وتسمعى شكائى

ولكن ماذا أقول لك ! وماذا عندى من الاحاديث فأحدثك
به ! لاشئ عندى سوى أن أذرف دموعى تحت قدميك ، وأمد يدي
اليك صامتاً ، ثم أضع حياتى بين يديك ، فإما أحييتنى أو قتلتنى
إننى أنا لم كثيراً يا ماجدولين ، ولا أحسب أن فى العالم نفساً
تحتمل ما تحمله نفسى من الآلام والأوجاع ، فارحمينى واعطينى
على ، فان لم أكن كفؤاً لمحبتك ، فامنحينى صداقتك ، فان أيتها
قاسمبلى على ستر حمايتك ، فان ضننت بها فائذن لى أن أسير
وراءك فى كل مكان تسيرين فيه كما يتبعك كلبك الدليل لأراك ،
وأسمع صوتك ، وأستنشق الهواء الذى يحيط بك ، لانى لا أستطيع
(٢٣ - ماجدولين)

أن أعيش في العالم دون أن تكون لي صلة بك
كنت قد وضعت قبل اليوم بين يديك سعادتي وهنائي، أما
الآن فقد حالت الحال، وتراجعت الآمال، وأصبحت لا أطمع
في أن أضع بين يديك شيئاً غير حياتي
فهل تبقيين عليها؟

٦٥

من استيفن الى ماجدولين

لى الله من بألس مسكين، فقد ذبلت زهرة حياتي قبل أن
تتفتح، ودبيت إلى الشيخوخة وأنا لا أزال في ريعان الشباب،
وانطفأ ما كان مشتعل في قلبي من الهمة، وفي رأسي من الذكاء،
وفي جسمي من القوة، وانقطع ما كان موصولاً بيني وبين الناس
جميعاً، فأت أخى، وطرذني أبى، وعاداني أهلى، ولم يكن باقياً
لى في العالم سواك، ثم انقضى ما كان بيني وبينك فأى أرب لى
فى العيش من بعد ذلك؟

أندرين لم اوثر الحياة على الموت يا ماجدولين وقد كان الموت
أروح لى مما أكابده؟ لانى لست على يقين مما بعده، وأخشى إن
حل بي أن ينتزع منى ذكرى تلك الايام الجميلة التى تمتعت فيها بحبك
وعطفك وبحلاوة الأمل فيك، والى هى كل ما بقى فى يدي

بعد الذي كان ، ولولا ذلك لقتلت نفسي ، ثم استعالت روحى الى
طائر جميل يطيف بك ويرفرف على رأسك حيثما ذهبت ، ويتناول
الحب من يدك مرة ، والقبلات من فك أخرى ، فأظفر منك
ميتاً بما عجزت عنه حياً

انك سلبتني سعادتي يا مجدولين ، ولكنك لم تعطني شيئاً بدلا
منها أعيش به ، بل تركتني وشأني كما يترك المسافر رفيقه
الجريح الظامئ في الصحراء المحرقة التى لا ظل فيها ولا ماء وينجو
بنفسه غير مبال بما تصنع به المقادير من بعده ، فما أقساك وما
أبعد الرحمة من قلبك

ردى على أمانى وآمالى ، وليالى التى قضيتها فيك ساهراً
متمللاً ، وحيانى التى وضعتها بين يديك ، ووكلت أمرها اليك ،
وأعبدت الى عطف وحنانى ، ورحمتى واشفاقي ، وجميع عواطف قلبى
التى صننت بها على أهلى وقومى جميعاً ، وآثرتك بها من دونهم ،
وعقيدتى فى الحب والهناء ، وإيمانى بالله وبقاء الخير فى الأرض
ماذا تقترحين على يا مجدولين ، وأية ذخيرة من ذخائر
الأرض أو كنز من كنوز السماء تحبين أن أضعه بين يديك ،
أتريدين قصراً من المرمر الأبيض ، أم صهريجاً مملوءاً باللؤلؤ
الرطب ، أم بساطاً مصوغاً من الجوهر ، أم حلة منسوجة من أشعة

الشمس ، أم تاجا مرصعاً متضائل بين يديه تيجان الملوك والاقبال ،
لقد أصبح ذلك كله لك ، وليس بينك وبينه إن أردته إلا أن
تعيدى الى قلبي الامل الذى سلبتنيه فأصبح أقوى الناس جميعاً
وأقدرهم على امتلاك ناصية الكون بأجمعه ، أرضه وسماؤه

آه ما كان أشد سرورى وفرحى يوم أعددت لك ذلك البيت
الصغير فى جونتيج وبنيت لك فيه تلك الغرفة الزرقاء الجميلة ،
ووضعت فيها ذلك السرير كنت أرجو أن يكون الدوحة
الفينثانة التى أنعم بك فى ظلالها ، وأنشأت تلك الحديقة البديعة
التي لم أضع زهرة تحينها أو يحبها ابوك الا غرستها فيها ، وكنت
كلما دخلت ذلك المنزل ووقفت فى فناءه لحظة خيل الى إنه آهل
بك ، وأن صوتك العذب الشجى يرن فى انحاءه ، وان أولادنا
يلعبون بين أيدينا فى حديقته ، ويقطفون ازهارها وورودها
ويقدمونها هدية إلينا ، بل كنت أنحىل عند ما كنت ادخل غرفة
زينتك انى أراك جالسة الى مرآتك فيها تمسطين شعرك الاصفر
الجميل ، واننى واقف وراءك اغمس يدي فى ذاك الخليج الذهبى
الرجراج وأختلس منه قبلة بعد اخرى

أما اليوم فقد ذبل كل شئ فيه وضوى ، فانقطع الماء عن
حديقته ، وذوت اشجاره وازهاره ، وعصفت الريح بنوافذه

وأبوابه . وكست التراب أرضه و- قوفه ، فأصبح كالعروس الحسناء
التي نزلت بها منيتها ليلة زفافها
أصبحت لا تكتبيز الى حرفا واحداً ، ولا تجيبين عن كتاب
واحد من كتبي ، وما كان ذلك من شأنك قبل اليوم ، فاكثبي الى كلمة
واحدة قولي لي فيها ما تشائين من خير أو شر ، فقد طنت نفسي
على احتمال كل شيء

٦٦

من استيفن الى ماجدولين

لم تكتبي الى تلك الكلمة التي ضرعت اليك فيها ، وعهدى
بك أنك مشيت قبل اليوم على قدميك بضع ساعات كابدت
فيها ما كابدت من الالهوال العظام حتى وصلت الى صندوق
البريد في قرية بعيدة عن قرينك فبعثت الى برساتك ، فهل ذهب
ذلك الماضي بأجمعه ولم يبق في نفسك منه أثر واحد ؟
لأستطيع أن أصدق ذلك ، فكل ما حاولك يذكرك بي
وبأياحي التي قضيتها معك ، فهناك الشمس التي كنا نستقبلها معاً
طالعة ، ونودعها غاربة ، والقمر الذي كان يشرف علينا من علياء
سمائه ، ويرسل الينا أشعته الفضية البيضاء فتضمنا غلالها معاً ،
والمقعد الذي كنا نجاس عليه بين الظل والماء ، ويدك في يدي ، ورأسك

على صدرى ، وخذك تحت متناول لثماني ، والبحيرة التي كنا نقضى فيها كل يوم ساعة الأصيل سائرنا على ضفتها صامتين نتحدث قلوبنا ، بما تمسك عنه ألسنتنا ، ثم نعود ووجدنا أن لو استمر بنا المسير أبد الدهر إلى دار الخلود ، والغرفة التي التقينا فيها ليلة الوداع وبللنا تربتها بدموعنا وأقسمنا بين سماها وأرضها بين الوفاء حتى الموت إنى أناديك في اليوم مائة مرة يا ماجدولين صار خامس غيباً ، باكياً منتحباً ، لأهدأ ولا أقتر ، وأنت لاهية غنى بذلك الشأن الجديد الذي استحدثته لنفسك ، لانسامين ندائى ، ولا ترثين لمصابى ، وما أعلم انى أذنبت اليك فى حياتى ذنباً واحداً تأخذينى به ، بل أعلم إنى اقترفت جميع الذنوب والآثام من أجلك

إن كنت مررت مرة فى حياتك بامرأة جاثية على قبر زوجها تندبه وتبكيه أحر بكاء وأشجاء لأنها كانت تحبه حباً جماً ، ولأنه تركها فى ريعان شبابها فقيرة معدمة ، وترك لها أطفالاً صغاراً لا حول لهم فى الحياة ولا قوة ، فخرنت لحرزها ، وبكيت لبسكاتها

أو رأيت فى طريقك فتاة فقيرة هائمة على وجهها تبكى وتنتحب وتسال الغادين والرائحين أن يمنحوها درهماً واحداً تبتاع به دواء لأخيها الصغير المريض الذى لا سند له غيرها ، ولا عائل له سواها ، فأويت لها ، وأسعفناها بطلباتها

أو مررت بضفة نهر فرأيت امرأة واقفة به تعول وتصيح
وتستصرخ الناس لوحيدها الذي يفرق في النهر أمامها فلا تجد من
يعينها عليه حتى سقط سقطة لم يطف من بعدها فجن جنونها
واندفعت وراءه بثيابها فطواها البحر معا في لحظة واحدة، فأعظمت
نكبتها، وبكيت مصيرها

أو سمعت بقصة ذلك الشيخ المسكين الذي دخل عليه
الجند منزله وهو جاث بجانب زوجته المحتضرة وابنته المريضة
ليأخذه إلى السجن لانه كان سرق من أجلهما بالامس رغيفا يقيم
به أودهما، فسأل الجند أن يمهله ساعة واحدة حتى يرى ما يصنع
القضاء بعليته، فأبوا ذلك عليه فعظمت عليه النازلة فذهبت بعقله،
فعدل به الجند عن طريق السجن الى طريق المارستان

أو سمعت بقصة ذلك الرجل الذي ضل في مفازة مقفرة فاشتد
به العطش وهام على وجهه في كل مكان يطلب الماء فلا يجده حتى
أعياه الجهد، وعجز عن المسير، ثم لمح على البعد صفحة ماء تفرق،
فما زال يزحف على ركبتيه إليها ويخضب الحصى بدمه المتدفق، حتى
إذا داناها ولم يبق بينه وبينها إلا خطوة واحدة سقط من دونها ميتا
أو قرأت قصة تلك المرأة التي رآها الناس في إحدى المجمعات
جالسة امام كوخها وفي حجرها كتلة لحم حمراء مختلطة وبين يديها

قَدَرْتُ تصاعد بخارها فلما دنوا منها هالهم أن رأوا في يدها سكيناً
مخضبة بالدم ، ورأوا قدماً صغيرة بارزة من القدر ، فعلموا أن الجوع
قد أفقدها عقلها ، وإن هذه الكتلة الحمراء التي في حجرها إنما هي
رضيعها قد ذبحته وأنشأت تقطع أوصاله بمديتها وتطبخها لتأكلها
إن كنت سمعت بخبر هؤلاء المنكوبين ، وسمعت أنين المعذنين
في السجون ، وصراخ المرضى في المستشفيات ، وصحك المجانين
في المارستانات ، فرثيت لهم ، وأويت لمصابهم ، فاعلمي أنني أشقى من
هؤلاء جميعاً ، وأنى أولى منهم برحمتك وإشفائك ، وعطفك وحنانك
لم تبق في بقية محتمل أكثر مما احتملت ، وربما لا أستطيع
أن أكتب اليك غير هذا الكتاب فقد بلغ بي الضعف منهاء ،
وأظلم بصري فما أ كاد أبصر شيئاً ، فالوداع يا ماجدولين وداع الحياة
إن كان لا يزال في الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت الأخرى
« انتهت الرسائل »

لا أكتُمك ياسيدي أنني بكيت كثيراً عند قراءة رسائلك
ولكنني عدت إلى نفسي وقلت إنها زفرة من زفرات اليأس ستطفئها
الأيام كما اطفأت غيرها من زفرات البائسين ، وربما علمت بعد

قليل من الايام ان الله قد خارك فما كان ، وانه قد اعد لك من حيث لا تحسب حياة أسعد وأهنأ من هذه الحياة التي تندبها وتبكيها أنت تعلم يا إستيفن اننى فتاة فقيرة وانك فى لا مال لك أو لا تملك من المال ما يقوم بشأناك زوجاً ووالداً ، خير لى ولك أن تفترق ، وان يسلك كل منا فى حياته الطريق التي يعلم أنها تنتهى به إلى سعادة عيشه وهنائه ، أحياناً ذلك ام كرهنا ، فتناس كل شىء يا صديق ، وسافر إلى كوربلانس واستصلح عليك أباك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التي اختاروها لك ، وحسبك منى ان اكون صديقتك الوفية لك ما حييت ، ولا تحمل فى نفسك ضغينة لصديقك إدوار فقد علم الله انه ليس له يد فى شىء مما كان ، وانما هو رأى رايته لنفسى ، ولا استشر فيه إلا عقلى وضميرى ، فانا صاحبتة والمأخوذة به ان كنت لا بد آخذاً به أحداً ، والسلام عليك من صديقتك التي ترجو عفوك وغفرانك

٦٨

من إستيفن الى ماجدولين

قد نسيت كل شىء يا ماجدولين ، فاخترى لنفسك فى حياتك ماشئت ، وهاهى ذى رسائلك عائدة اليك فليس من الراى بقاؤها عندي بعد اليوم ، وإنى أتقبل صداقتك بالصبر والرحب الذي (٢٤ — ماجدولين)

تقبلت به حبك من قبل ، اما النعمة فاني لا انقم عليك ولا على
خطيئك شيئاً ، بل اسأل الله لك السعادة في حاضرِكَ ومستقبلك

٤٦

الزفاف

ازدحمت الكنيسة بسكان قرية ولفاخ رجالا ونساء وظلوا
جميعاً ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور العروسين ،
ثم ما لبثوا ان سمعوا صوت العجلات وهي مقبلة فنهضوا جميعاً على
اقدامهم واصطفوا صفوفاً متتالية لاستقبال القادمين ، ثم دخل ادوار
آخذاً بيد ماجدولين وهي لابسة ثوباً أبيض ناصعاً كأنما قد قُدت من
جرم الزهرة وعلى رأسها كليل من الزهر يتلألأ في شعرها الذهبي
الجميل ، ودخل وراءها الشيخ مولروسوزان وأبوها وزوجها وأشميد
ابن عمه ماجدولين وألبرت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها
فرأى الناس أجمل فتاة رأوها في حياتهم فدعوا لها ولزوجها
بالسعادة والهناء ، وملاًوا ارجاء المعبد هتافاً بهما وثناء عليهما ، ثم
مشيا إلى المذبح وركعا بين يدي القسيس على وسادتين من القטיפه
المزركشة فركع الناس بركوعهما ، وركع استيفن معهم ، وكان قد جاء
إلى المعبد قبل حضور الناس واختبأ وراء سارية من سواريه فلم يشعر
به أحد ، وظل يقول في ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يحسه أحد

«اللهم احرسها بعين عنايتك ، وأسبل عليها ستر حمايتك . وامنحها السعادة والهناء في نفسها وفي عيشها ، واكتب لها في صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لي في صحيفة حياتي »
ثم بدأ القسيس يتلو صلاته وجاءت الساعة التي ينطق فيها بكلمته الاخيرة التي لامرد لها ولا رجعة فيها ، ف شعر استيفن أن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ويضرب ضرباً يعلو صوته على أصوات النواقيس فأمسك بكفيه على أحشائه وانغمض عينيه وقبع في اعماق نفسه واستلهم الله الصبر على نكبته ، ثم غشيته غاشية لم يشعر بما كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فاذا الكنيسة خالية مقفرة تغتالج الظلمة في ارجائها ، وتضرب رياح الليل الباردة في نوافذها وكواها ، فزفر زفرة حرى كادت تنساقط لها أضلاعه وجعل يقول في نفسه : لقد قضى الأمر ، وخرجت ماجدولين من يدي ، وأصبحت كفي صفرأ من جميع امانى وآمالى ، فما العمل ؟ وكيف اعيش ؟ وأين أقضى بقية أيام حياتي ؟ وأية غاية بقيت لي في هذا العالم أحيأ من أجلها ؟ ثم خرج هائماً على وجهه لا يعلم أى فجّ يسلك من فجاج الارض ، والارض أضيق في عينيه من كفة الحابل ، فاذا هو أمام بيت الشيخ مولر فراى المدعوين منصرفين من الحفلة زمراً زمراً فسَدِكَ بركن مظلّم من أركان السور حتى انقطع خفق

الاقدام ، وعلم ان المكان قد دخلا بأهله ، فرمى البيت بنظرة شرراء
 ملتهبة لو اتصلت شرارة من شررها بسقف من سقوفه أو كوة
 من كواه لانت عليه في لحظة واحدة ، ثم مالبت ان رأى النور
 قد انطفأ في جميع الغرف والقيعان إلا غرفة واحدة ، فعلم أنها غرفة
 العرس ، فلم يمالك ان نار من مكمنه ثورة الاسد المحتاج وأخذ يدور
 حول السور ذهاباً وجيئة وهو لا يعلم لم يدور ، وأين ينتهي ، حتى
 وقع نظره على ثغرة مفتوحة فيه فوقف امامها لحظة ثم حدثته
 نفسه باقتحامها فرأى حجراً ضخماً معترضاً في فجوها فما زال به
 حتى زحزحه عن مكانه ، ثم انحدر إلى الحديقة غير خائف ولا
 وجل ولا مبال ما أقدم عليه وأخذ سحمته إلى سلم الدار حتى بلغه
 فصعده يختلس الخطى اختلاساً حتى وصل إلى باب الغرفة المضيئة
 فوقف به وأحس أصواتاً من ورائه ، فشعر برعدة تتمشى في جميع
 أعضائه ، وخيل إليه أن قلبه ينحدر في هوة عميقة لا قرار لها
 وأخذ يقول في نفسه : إنها الآن له وبين يديه لا يحول دونهما
 حائل ، وكأنني به وهو يضمها الآن إلى صدره ويلصق فمها ،
 ويوسمها للثم وتقبيلاً ، فتعطيه من نفسها ما يعطيها من نفسه ، ثم
 نظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى
 حديثهما فزنت في مسمعه أصوات الضحكات والقبيلات ، وسمعها

تقول له فيما تناجيه به « أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها » فجئن جنونه وحدثته نفسه ان يضرب الباب بقدمه ضربة هائلة تطير به ثم يفتحهما عليهما فيقتلهما ويخضبُ سرير العرس بدمهما ، ثم يقتل نفسه على أثرهما ، واستنصر قوته على ذلك تغذاته ، فوقف بين الإقدام والاحجام يغلي دمه في عروقه غليان الماء في مرجله ، ويمزق صدره بأظافره تمزيقاً شديداً ، حتى امتلأ قميصه دماً ، وتناثرت افلاذ جلده بين أصابعه ، وهو لا يشعر بألم ، بل لا يعلم انه يصنع من ذلك شيئاً ، حتى أعياه الجهد ، فزلت به قدمه ، فانقلب الى أسفل السلم ، وهو بين الحياة والموت

ولم يزل في سقطته تلك حتى استيقظت الخادم جنفياًف مبكرة قبل ان يستيقظ أحد من أهل البيت وضيافته فرائه صريعاً في مكانه ، فراعها أمره ، وأدهشها وجوده في هذا المكان ، ثم رأت الدم العالق بثوبه وأظافره فظنته فتيلة فحاولت ان تضع نخاعها صوتها ، فأكبّت عليه لتعلم ما شأنه فأحسّت رجوع أنفاسه فهدأت قليلاً وعلمت انه في غشية شديدة فأشفقت عليه وكانت تحبه وتكرمه ، ولم تزل تنضح جبينه بالماء وتمسح صدره حتى استفاق ، فدار بعينه حول نفسه فذكر ما كان ورأى جنفياًف بين يديه فاحمر وجهه خجلاً وسأله هل عرف شأنه أحد غيرها ؟ قالت لا ،

فاعترف لها بتجمل قصته ، وناشدها الله وانودة ان تكتم عليه
ما كان ، فوعده بذلك ، فقام يتعامل على نفسه حتى خرج من
المنزل ومشى في طريق قريته

٦٩

الهذيان

قالت جوزفين زوج فرتر للطبيب وكانت تتولى تمرير
استيفن : لقد أصبحت أخشى على الرجل ان يصيبه شر عظيم ،
وأخوف ما أخاف عليه ان تنزل بعقله نازلة من نوازل الجنون ، فقد
أصبح لا ينطق إلا باسم تلك المرأة ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا
يرى في يقظته أوفى منامه غيرها ، فيتخيّلها تارة مقبلة عليه فيبتسم
لها ويتلهل ويفتح ذراعيه لاستقبالها ، وأخرى منصرفة عنه
فيضرع اليها ويستعطفها ويهتف باسمها هتافاً عالياً ويحاول النهوض
من فراشه لادراكها والتشبث بها ، فهو إما ضاحك أو باك أو
هاتف أو ضارع أو مسترحم . وابن دامت له حالته هذه بضعة أيام
أخرى ذهبت النكبة بعقله أو بحياته ، وما أحسب ان شيئاً غير
ظفره بتلك المرأة أو انصاله بهائشفيه من دائه ، فقال الطبيب لقد
خاطرت اليوم باخر ما في كنفاتي من الاسهم فسافرت الى قريه
ولفأخ وقابلت ماجد وابن علي وغير سابق معرفة لي بها ووصفت

لها حالة المريض في جنونه واستهتاره بها، وقيامه وقعوده بأمرها ليله ونهاره ، وسألها أن تزوره زورقة واحدة عسى أن تنفعه وترفعه عنه بعض مابه ، فأبى زوجها عليها ذلك إباء شديداً . فلم أزل به أسترجه وأستعطفه وأنشده الله والمرودة حتى أذعن بعد لأى ، واشترط أن يصحبها في زيارتها فقبلت ذلك منه على مضض وقد تركتهما الآن يتيهان للحضور على أثرى

ثم مشى إلى المريض وجس نبضه وأمر يده على رأسه وقال يا للمعجب ! لقد فصدته ليلة أمس مرتين في ساعة واحدة فالجدى ذلك عليه شيئاً ، ثم جلس بجانبه ينضح جبينه بالماء ويجرعه بضع قطرات من الدواء

وإنه لكذلك اذ قرع الباب فرعاً خفيفاً ففتحت فدخلت ماجدولين ووراءها ادوار ، فلم يشعر استيفن بهما عند دخولهما ثم فتح عينيه بعد قليل ونظر الى جوزفين وقال لها أين ثيابي التي امرتك باحضارها ؟ اما تعلمين ان اليوم يوم الأحد وهو موعد ذهابي إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجي ؟ فأطرفت المرأة واجمة ، وادارت ماجدولين وجهها حتى لا يرى احد اصفرارها فتقدم نحوها الطبيب وسألها ان تدنو منه وتناديه باسمه لعله يعرفها ، فدنت من سريره ووقفت امام وجهه فنظر اليها نظرة ذاهلة ثم

أدار رأسه وأغمض عينيه فعلمت أنه لم يعرفها ، فنادته باسمه بذلك
الصوت الرخيم العذب الذي طالما سمعه من قبل فلك عليه مداركه
ومشاعره فكان موجة كهربائية اندفقت في جسمه دفعة واحدة ،
فانتفض من مكانه وفتح عينيه وتناهض متكئاً على إحدى يديه
وظل يضرب يديه على جبهته كأنما يستحي في ذهنه ذكرى قديمة
طال عليها العهد ويدير رأسه يمنة ويسرة ويقاب نظره في وجوه
الجالسين حتى وقع على ماجدولين ، فأخذ يحدق في وجهها تحديقاً
شديداً ثم ابتسم ومد يده نحوها وقال لها : شكراً لك يا ماجدولين
فقد جشمت نفسك مشقة المجيء إلى وقد كنت على وشك أن اذهب
إليك الساعة لولا أن النوم طرقتني فغلبنى على امرى ، فهل بنا
الآن فقد حان الوقت . وما احسب إلا أن اصدقاءنا ينتظروننا الآن
في الكنيسة ، وكأنني اراهم وقد جلسوا في دهمليزهاصفواً متتالية
ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف يترقبون حضورنا وأرى القسيس
يعد لنا وسادتين من القטיפه المزركشة لتركع عليهما امام المذبح ،
وكانني اشم رائحة البخور متصاعدة من المواقد ، وسمع اصوات
النواقيس تقرع قرعاً متتابعاً ، ثم صعد نظره فيها وصوته وقال
لها : ما أجملك يا ماجدولين وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذي
ترتدينه ، إنك لا ينقصك الآن غير إكليل الزهر ، ثم مده يده إلى

أزهار كانت بجانبه فأخذ يضفر منها إكليلًا جميلًا ويتأنق في
تنسيقه وتنظيمه ثم نظر إلى الطبيب وقد حُيِّل إليه أنه الشيخ مولر
فقال له ائذن لي يا أبتاه أن أضع هذا الإكليل على رأس ابنتك ،
فنظر الطبيب إلى ماجدولين نظرة استعطاف يسألها فيها أن ترحمه
والأ تنقص عليه هناءه الذي يتخيله . فوضع استيفن الإكليل على
رأسها وهي واجمة صفراء كأنما قد انتفضت من كفن وقال لها :
أندكرين يا ماجدولين يوم وضعتُ على رأسك منذ عامين في ساعة
من ساعات أنسنا ولهونا إكليلًا مثل هذا الإكليل فتفاء لنا بذلك
خيرًا وقتنا ليس بكثير على الأيام أن يصبح جدًا مالهونا به ،
وحقيقةً ما حسبناه خيالًا ، فها قد صدقَ اليوم فألنا ، وصحت آمالنا
واحلامنا ، فالحمد لله على ذلك ، وله الشكر على آلائه ونعمائه ، ثم
نظر إلى جوزفين وقال لها إني أشعر بضيق في صدري لأعلم له
سببًا فافتحى هذه النافذة لأستنشق هواء هذا الصباح الجميل
ففعلت فأخذ يقلب وجهه في السماء ويقول : ها هي ذى الطبيعة تهدي
الينا في يوم عرسنا أجمل ذخائرها وأعلاقيها ، هواءها العليل ، وشمسها
الساطعة ، وسماءها الصافية الجميلة ، فشكرًا لها على يدها عندنا ،
وشكرًا للدهر الذي أنالني أمنيته وأظفرني بها بعد أن كنت على
وشك اليأس منها ، ثم التفت فوقه نظره على إدوار فمشَّ لهوا بتسم
(٢٥ - ماجدولين)

في وجهه وقال له شكراً لك يا صديقي ، ما حسب إلا أنك الذي
أشرت على ماجدولين بزيارتني في منزلي ولولاك لحال بينها وبين ذلك
الحياة الذي لا يفارقها في جميع آناء حياتها ، فامدد إلى يدك ، وكن أول
من يهنئني بسعادتي من بين أصدقائي ، فأنت أكرمهم علي جميعاً ،
وآثرهم عندي ، أئذ كريا إدوار أيام كنا نعيش في هذه الغرفة
الصغيرة التي نحن فيها الآن عيش البؤس والشقاء ، وكنا نتساقى
من الود كؤوساً مترعات ننسينا حلاوتها مرارة الحياة وآلامها ،
وكننتُ لا أجلس اليك مجلساً إلا قصصتُ عليك فيه شأني مع
ماجدولين . وأبشمتك وجدى بها ، ورجأتُ فيها ، وقلتُ لك كلما رأيتك
تنظر إلى نظرات الهزء والسخرية إنها قد اقسمت لي يميناً مُخرجةً
ألا يفرق بيني وبينها إلا الموت ، وإنها لن تخيس بعهداً أبداً ، وإن
هذه السحابة السوداء التي تراها متلبدة في سماء حياتي لا تستطيع
أن تثبت طويلاً على أشعة الحب الحارة المتدفقة ، والحبُ إله قادر
لا يعجزه شأن في هذا العالم ، ولا يثبت على قدرته شيء ، فهأنت
ترى انني لم أكن كاذباً في تصوراتي وأحلامي ، وإن أمانى وآمالى
لم تكن كما كنتَ تظنها خيالات شاعر ، ولا هواجس مجنون
ثم تناول يد ماجدولين وأهوى بضمه اليها ليقبلها فلمع امام عينيه
شعاع خاطف من أشعة الخاتم الماسي الذي يتألق في أصبعها

فاضطرب ومر بخاطره سرور البرق منظر ذلك الخاتم بعينه يوم
 رآه في يدها للمرة الاولى وهى واقفة بجانب إدوار فى حديقة منزلها
 فترأخت يده وامتقع لونه وانطفأ ذلك الشعاع الذى كان يلمع فى
 عينيه وارفض جبينه عرفاً وأخذ صوابه يعود اليه شيئاً فشيئاً، فظل
 يقول بصوت خافت متهدج : لا، لا، لا حق لى فى تقبيل يدها ،
 لأنها ليست لى ولا شأن لى عندها ، ثم تناول غطاءه فأسبله على
 رأسه وأخذ يبكي بكاء شديداً ويقول للطبيب : ليخرجوا عنى جميعاً
 فلا شأن لهم عندى ولا شأن لى عندكم ، فاعرو رقت عين ما جدواين
 بالدموع ومدت يدها اليه كالضارعة وهمت بالركوع بجانب سريره
 فجذبها إدوار جذباً شديداً فتبعته متساقطة ، خطوةً والتفاتةً ، وهى
 تقول بينها وبين نفسها « وارحمها لك أبها البائس المسكين »
 وما انقضى النهار حتى ترك إدوار قرية ولفاخ وسافر بزوجته
 إلى كوبلانس

٧٠

اليأس

لبث استيفن فى سريره مرضه شهرين كاملين كابد فيهما من
 آلام النفس والجشم ما قدر له أن يكابده ، ثم أبل قليلاً فمجر فراشه
 وأخذ يهيم على وجهه ليله ونهاره ، ينام حيث يجد مضطجعا ، ليناً أو

خشناً ، وياً كل حيث يجد لقمة ، ييضاء أو سوداء ، لا يستقر مكان ،
ولا يأوى إلى ظل ، ولا يتعهد جسمه أو ثوبه بما يصلح شأنهما ،
واستبد به الحزن فذق جسمه ، وغارت عيناه ، واسترسل شعر
رأسه ولحيته ، وأضت نضرة وجهه شحوباً ، وحمرة خديه اصفراراً ،
وأصبح آية السابليين ، وعبرة الغادين والرائحين

وكان لا يمر بكوخ صديقه فترتز إلا إتفاقاً ، فإذا مر به خرج
الرجل إليه وزوجه وأولاده وتعلقوا به وناشدوه الله والمودة أن
يدخل معهم كوخهم فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض ساعة
حتى يدركه الملل فيثور ثورة الوحش المحتاج ويفر من بينهم راكضاً
وقد عاد إلى شأنه الأول

وكثيراً ما كان يمر في تطوافه بمنزله الصغير الذي بناه في
جوتنج وبنى فيه صروح آماله الزاهية وأمانيه الضائعة فيصرف
وجهه عنه ولا يطيق النظر إليه ، وربما انكفأ راجعاً حين يلمح
أول شرفة من شرفاته حتى لا يمر به ، ولا يقطع نظره عليه
وكان إذا ركب رأس طريق مشى فيه قدماً لا يقف ولا
يتريث ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو
يرى بين يديه مجتمعاً من الناس فيستفيق من ذهوله ويعود أدراجه
ولقد استمر به المسير يوماً في بعض غدواته حتى وصل

في منتصف النهار إلى كوبلانس فأخذ بهم في شوارعها وطرقها
والناس ينظرون اليه وإلى منظره الغريب وشعوره المشبعة الثائرة
ونظراته الحائرة المتبددة ويعجبون لأمره

وإنه كذلك إذ مرت على القرب منه عجلة فسمع فيها
ضحكا عالياً خيل إليه أنه يعرف نعمته فالتفت فإذا ماجدولين
وإدوار فصعق في مكانه وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند إليه
وهو يقول « ما أسعدهما وأهنا عيشهما ، إنهما يبنيان سعادتهما
على أنقاض شقائي » ثم ذهل عن نفسه وظل في ذهوله ساعة فلم
يستفيق حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قوماً يتضاحكون
ويتغامزون ويشيرون إليه بإشارات الهزء والسخرية فرمام
بنظرة شرراء رجفت لها قلوبهم وخطا خطوة واسعة إلى الامام
فهاهم منظره وتفرجوا له عن طريقه فساد في سبيله لا يلوى على
شيء مما وراءه حتى بلغ ضاحية المدينة فرأى نهراً جارياً على رأس
مزرعة خضراء جلس على ضفته يؤامر نفسه على الموت ويقول
لقد كذب الذين قالوا ان الانتحار ضعف وجبن ، وما
الضعف ولا الجبن إلا الرضا بحياة كلها آلام وأسقام فراراً من
ساعة شدة مهما كابد المرء فيها من الغصص والأوجاع فهي ذاهبة
ولا رجعة لها بعد ذلك

وهل يوجد في باب الجهالات أقبح من جهالة الرجل الذي
يُفضل حياة يموت فيها في اليوم مائة مرة على موة سريعة عجلي
تريحه من هذه الميمات المتقطعة المتداولة

إني لأدري لم يضيقُ الرجل بثوبه فيزعه ، ويسمج في
نظره منزله فيمجره ، ويتبرم بصاحبه فيفارقه ، ويثقل على ظهره
حملة فيلقى به ، فاذا ضاقت به حياته لا يخلعها ، ولا يحدث نفسه
بالخلاص منها ، والحياة إذا بؤست كانت آلم للنفس وأثقل مؤونة
عليها من ثوب ضيق ، أو حمل ثقيل

إننا لانخاف الاتجار إلا لأننا نجب الحياة ، ولا نحبها على ما هي
حافلة به من الكوارث والحن إلا لأننا جهلاء أغبياء ، نطمع في
غير مطمع ، ونرجو مالا يمكن أن يكون ، فثقلنا في ذلك كمثمل
لاعب القمار ، يزداد طمعاً في الربح كلما ازداد خسارة ، فلا يزال
يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصفر يده من كل شيء

إننا لم نأت إلى هذا العالم باختيارنا ، فلم لانخرج منه متى شئنا ،
وإننا لم نكتب على أنفسنا عهداً بين يدي أحد أن نبقى فيه بقاء
الدهر ، فلم يسمى سعيينا في الخلاص منه خيانة وغدرأ ، أو كفرأنا
بنعمة الله وإحسانه

إنها هفوة هفاها شيشرون الروماني في ذلك العهد القديم

حينما قال « ان كان لصاحب الراية في الحرب حق في إلقائها عن عاتقه كان للانسان حق في قتل نفسه » وجاراه المجتمع الانساني كله على هفوته هذه حتى اليوم دون أن يخطر على بال فرد من أفرادها أن يقول له : ان لصاحب الراية الحق كل الحق في إلقائها عن عاتقه إذا ثقل حملها عليه

وأعجب من ذلك أنهم لا يدكرون الانتحار إلا ذكروا اسم الله بجانبه وافتنوا في تصوير غضبه وتقته على المنتحرين ، والله أعدل وأرحم من أن يبتلى عبداً من عبيده بيلية لا تطيب له معها الحياة ثم يأبى عليه إلا أن يرتبط بجانبها مدى الدهر ، ولا يبتغي لنفسه طريقاً إلى الخلاص منها

وكذلك صحت عزيمته على الانتحار ، وأخذ يفكر في الصورة التي يفارق الحياة عليها ، فلم يزل يقلب وجوه الرأى في ذلك حتى اهتدى إلى صورة أعجبه خيالها الشعري ، وهي أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين يبشأ فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه على الانتحار وعن المسكان الذي سيلقي نفسه فيه من النهر ثم ينزع من أصبعه خاتمه المنسوج من شعرها ويضعه على فمه ويضع يده عليه ويقبله بلهفة شديدة ثم يلقى بنفسه في الماء على هذه الحالة ، فإذا أت ماجدولين وأخرجته من النهر ورأت هذه الصورة المحزنة التي

مات عليها أثر في نفسها إخلاصه ووفائه، وأسفت على موته أسفاً عظيماً، وألم بنفسها الندم على فعلتها التي فعلتها معه، فلا تزال تذكره طول حياتها وتندب مصرعه ومصيره حتى تلحق به

وهنا رثت في أذنه تلك الضحكة العالية التي سمعها منها منذ ساعة وهي راكبة عجلتها مع زوجها، فطار ذلك الخيال من رأسه واضمحلال في مسراه اضمحلال الانخرة الذاهبة في آفاق السماء، وعادت له أناته ورويته، وقال في نفسه ان من كان مثلها في حياتها وغدرها، وصلابة قلبها وجسوته، لا يبالي ما أقدم عليه من شؤونه، فربما ورد عليها كتابي فأغفلته ثم سمعت بجبر موتي فتنفست تنفس الراحة والدعة واعتبطت بينها وبين نفسها بانقشاع تلك الغيمة السوداء التي كانت تغشى سماء حياتها. وأعجبها أنها قد أصبحت آمنة مدى الدهر أن يذكرها مذكر بخيانتها، أو يترأى لها في مسلك من مسالكها شبح تلك الجناية التي اقترفتها

ثم أن أنه مؤلمة وقال « ويل لي من بائس مسكين ! لقد استحال علي كل شيء حتى الموت »

قال فِرْتَزْ لاسْتَيْفَن وقد ركب معه في زورقه ساعة الأصيل
فسار بهما يشق عباب الماء شقاً رفةً عليك قليلاً ياسيدي فذلك
أمر قد فات واستبدَّ به من قَدَّر له ، وليس في فائت حيلة ، ولا
لما قضى الله مردُّ ، ولو شئت أن أقول لك اقلَّت : إنه غير جميل بك
في فضلك وأدبك ، وزفور عقلك واكتماله ، وعزة نفسك وأنفها ،
أن تحبس حياتك كلها على امرأة قد علمت ألا خير لك فيها ، وأنها
قد خانتك وخذلتك ، وبلغت بك في الشقاء المبالغ التي لم يبلغها
أحد ، وطعنت قلبك تلك الطعنة النجلاء التي لا يئُل منها جريحها
إلا بجمونةٍ من رحمة الله وإحسانه ، وأنها وأنت تشقى هذا الشقاء
كله في سبيلها تقضى ساعات ليلها ونهارها بين ذراعي زوجها
هائنة مغتبطة ، غير حافلة بك ، ولا آسفة عليك ، ولا ذاكرة لك
ذمة ولا عهداً ، فأين شرفك وإباؤك ؟ وأين عزة نفسك وأنفها ؟
وأين ترفعك الذي أعرفه لك ويعرفه لك الناس جميعاً عن مواطن
المهانة والضعفة ؟ الحق أقول إنى لا أعرف سهماً أخيب من سهمك ،
ولا رأياً أضعف من رأيك ، ولا حياة أضيع من حياتك
لقد سلبتكم هذه المرأة ياسيدي زهرة عمرك ، فحسبك ذلك

واستبق لنفسك ما بقي منه ، وتمتع فيه بما أعد الله لك في هذه الحياة
من لذائذ و تمتع لا تنفذ ولا تبلى واطلب السعادة إن أردتها بين
أحضان الطبيعة وأعطافها ، وفي كل ما يحمل بساط الأرض وتظلل
قبة السماء ، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها البؤساء
المحزونين فتمسح همومهم عن صدورهم ، ودموعهم عن مآقيهم ،
وتملأ قلوبهم غبطة وهناء

اطلب السعادة في الحقول والغابات ، والسهول والجبال ،
والأغراس والأشجار ، والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ،
وفي منظر الشمس طالعة وغاربة ، والسحب مجتمعة ومتفرقة ،
والطير غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، واطلبها في تعهد
حديقتك ، وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشذيب
أشجارها ، وتنسيق أزهارها . وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ،
وصعودك إلى قمم الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ،
وفي إصغائك في سكون الليل وهدوئه إلى خرير المياه ، وصفير
الرياح ، وخفيف الأوراق ، وصرير الجنادب ، وتقيق الضفادع ،
واطلبها في مودة الإخوان . وصداقة الأصدقاء ، وإسداء المعروف ،
وتفريج كربة المسكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ، وفي كل
منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمال

شريف طاهر يستوقف النظر ، ويستلهي الفكر ، ويستغرق
 الشعور ، ويحيي ميت النفس والوجدان ، ويملاً فضاء الحياة هناء ورغداً
 إنكم تأبون يا أهل المدن ألا أن تشتروا سعادة الحياة بدمائكم
 وأرواحكم ، والسعادة حاضرة بين أيديكم لا ثمن لها ولا قيمة ،
 ولكنكم تجهلونها وتعرضون عنها وتظنون ألا وجود لها إلا في
 أحضان النساء ، ويزأستارهن وأرائكهن ، فتبدلون في سبيلها من
 دموعكم وآلامكم ، مالا قبل لكم باحتماله ، فلا تلبثون أن تبدل
 حياتكم ، وتضوي أجسامكم ، وتنطفئ جذوة نفوسكم ، قبل أوانها ،
 فتموتوا أضيق ميتة وأخسرها ، لأملأ أفدئكم ، ولا حياة حفظتم
 إنما يشقى في هذا العالم أحد ثلاثة ، حاسد يتألم لمنظر النعم
 التي يسبغها الله على عباده ، ونعم الله لا تنفد ولا تقف ، وطامع
 لا يستريح إلى غاية من الغايات حتى تنبعث نفسه وراء غاية غيرها ،
 فلا تقف مطامعه ، ولا تنتهي متاعبه ، ومقترف جريمة من جرائم
 العرض والشرف لا يفارقه خيالها حينما حل وأينما سار ، وما أنت
 ياسيدي بواحدٍ من هؤلاء ، فمن أي باب من الأبواب يتسرب
 الشقاء إلى قلبك ؟

أنت شاعر يامولاي ، وقلب الشاعر مرآة تترأى فيها صور
 الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقتها وجليلها ، فإن أعوزتك السعادة

ففتش عنها في أعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى للعالم
الأكبر وما فيه

السماء جميلة ، والشاعر هو الذى يستطيع أن يدرك سر جمالها ،
ويحترق بنظراته أديمها الأزرق الصافى فيرى في ذلك العالم العلوى
النأى ما لا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذى يشعر بعظمته وجلاله ،
ويرى في صفحته الرّجاجة المترجّحة صور الأمم التى طواها ،
والمسكن التى محاما ، والدول التى أبادها ، وهو باق على صورته
لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يَبْنَى على العصور والأيام

والليل موحش ، والشاعر هو الذى يسمع فى سكونه وهدهوته
أنين الباكين ، وزفرات المتألمين ، وأصوات الدعاء المتصاعدة الى
آفاق السماء ، ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع النائمين ،
وخيالات السعادة والشقاء الهائمة فى رؤوس المجدودين والمحدودين^(١)

الشاعر يرى الجمال فى كل شىء يتناوله سمعه وبصره حتى فى
الزهرة الذابلة ، والنبته الحائلة ، والنحلة الطائرة ، والفراشة الحائمة ،
وفى مدارج النمل ، وأفاحيص القطا ، والنوى المهتمد ، والجدث
البالى ، والشبح الخفيف ، والخيال الرائع ، وفى الضفدعة الملقاة على

(١) المجدود صاحب الجد أى الحفظ والمحدود المحروم

شاطئ البحر ، والدودة الممتدة في باطن الصخر ، فهو من خياله
الواسع في نعمة دائمة لا تنفذ ولا تبلى

أنت كالطائر السجين في قفصه ، فزق عن نفسك هذا السجن
الذي يحيط بك ، وطر بجناحيك في أجواء هذا العالم المنبسط
الفسيح ، وتنقل ماشئت في جنبانه وأكنافه ، واهتف بأغاريذك
الجميلة فوق قم جباله ، ورءوس أشجاره ، وصفاف أنهاره ، فأنت
لم تخلق للسجن والتقييد ، بل للهتاف والتغريد

فأطرق استيقن ساعة ذهبت فيها نفسه كل مذهب ثم رفع
رأسه وقال : انى أحاول ذلك يافترز منذ أيام طوال فلا أستطيعه ،
ولو كان لى فيما قضى الله حيلة لسحقت قلبى بقدمى سحقاً ، ثم أسلمت
ذراته إلى الرياح الأربع تذهب بها حيث شاء . ولكن لاسبيل لى
الى ذلك ، وانما هو بلاء قد بليت به لحين قد أريد لى ، على أنى
اعاهدك منذ الساعة عهداً لا أخيس به ألا ترانى بعد اليوم ذا كراً
لها ، ولا باكيًا عليها ، أما ما يضمره القلب من ثكل ولوعة
فأسأل الله أن يعيننى عليه ، فقال له فِرْز ذلك كل ما أريده منك ،
والله يتولى شأنك ، ويعينك على بقية أمرك

الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فتثمر الرحمة
والشفقة والبر والمعروف ، وبالتربة الخبيثة فتثمر الحقد والغضب
والشر والانتقام ، وكان استيفن طيب القلب طاهر السريرة
فاستحالت تلك الآلام التي كانت تعتلج في نفسه الى وجدان طاهر
شريف يشعر ببؤس البائسين فيرثي لهم ، وخفيعة المتفجعين فيبكي
عليهم ، ولقد وفي بعهد الذي عاهد عليه صديقه فيرثفأ مسك عن
ذكر ماجدولين والتفكير فيها وأخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها
معه ، فاستقام له بعض الذي أراد . وتراجعت آلام نفسه وأحزائها إلى
زاوية منفردة من زوايا قلبه فكمنّت فيها فلم يعد يشعر بها إلا
في الفينة بعد الفينة ، ولا يذكرها إلا كما يذكر المستيقظ حلمًا
ضئيلًا من أحلامه المزعجة ساعة أو بعض ساعة ثم ينضى لسبيله
وكان أكبر ما أعانته على هدوئه وسكونه أنه أخذ نفسه
بعمل الخير والمعروف فوجد فيه لذة تفوق لذة تلك الآمال والأحلام ،
فولع به ولعًا شديدًا ، وأصبح لا يسمع بمنكوب قريب منه أو ناء
عنه إلا ذهب اليه وأعانته على نكباته جهد استطاعته ، ولا
يطرق عليه بآبه في دجى الليل أو ضحوة النهار طارقٌ لحاجة من

الحاجات إلا أخذ بيده فيها واحتملها في نفسه أو في ماله ، واتخذ أسرة
صديقه فرتز أسرة له ، فعالمها ووا-ها وخالط نفسه بها ، وأصبح أخاً
لكبيرها ، ووالداً لصغيرها ، ووجد في نفسه من الانس بها والاعتباط
بعشرتها ما كان يتمنى لنفسه طول حياته أن يكون له بين زوجته
وأولاده ، وعاد إلى فنه القديم فن الموسيقى ، وكانت قد شغلته عنه
تلك الشؤون الماضية ، فتمهده في نفسه واستحياه واستجد جميع
آلاته وأدواته ، فكان إذا جن الليل وخلا بنفسه قام إلى قيثارته
فلمب بأوتارها أو جلس إلى البيانو فوقع عليه بعض الألحان
القديمة أو الحديثة توقيعاً يجيد فيه إجابة لأعهد له بمثلها من قبل ،
فقد صقلت تلك الآلام الماضية التي كابدها في حياته صفحة نفسه
وأنارتها ، وملأتها شعوراً وجداناً ، وسمت بها إلى سماء فوق سمائها
الأولى ، فتجلت بجلالها وروقتها في نبرات صوته حين يتنغم ، وحركات
أنملة حين يوقع ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ارتقى به الأمر إلى
منزلة الابتكار فوضع ألحاناً جديدة محزنة كانت تتفجر من ذلك
القلب المصدوع تفجر المياه الصافية من صدوع الأحجار ، فتساب
في أفئدة البائسين والمحزونين ، وتغلغل في أعماق قلوبهم حتى
تبلغ سويداءها

وما كان استيفن عالماً من علماء الموسيقى ، ولا حافظاً من كبار

حفاظها، ولا كان نصيبه من الالمام بقواعدها واصولها أكثر من نصيب زملائه ولداته، ولكنه كان ذا قلب، والقلب هو ينبوع الشجّاج الذي يتفجر منه الشعر والموسيقى وسائر الفنون الادبية، وليس أشعر الشعراء أحفظهم لقواعد اللغة وقوانينها، بل أدقهم شعوراً والطفهم حساً، وليس أفضل المغنين أعلمهم بفنون النغم، وضروب الإيقاع، بل أنطقهم قلباً وأفصحهم فؤاداً، وما ملك نوابغ الممثلين أفئدة الناس وقلوبهم في مواقف تمثيلهم، ولا استدروا دموع الباكين من محارها، إلا لأن لهم قلوباً حزينة متفجعة تتأثر بصور الوقائع التي يمثلونها، فاذا بكوا صدقوا في بكائهم، واذا تفجّعوا تفجّعوا بقلوبهم، ولا يفهم لغة القلب غير القلب، ولا يشعر بسر النفس غير النفس، ورب أنة بسيطة ساذجة يسمعها السامع في جوف الليل من ثأكل منكوب تأخذ من نفسه مالا تأخذ قطعة شعرية بليغة مملوءة بغرائب المعاني وبدائع التصورات ينظمها شاعر غير باك، ويفنيها مغن غير محزون، وما قواعد الشعر والموسيقى والرسم والتصوير إلا حدود يتقن بها المقلّدون المحتذون الوقوع في الخطأ الفنى، أما الملمّعون فما أغناهم برقة وجدانهم، ولطف حسهم، وصفاء نفوسهم، وسلامة طباعهم، عن التمثّل والاحتذاء

من ماجدولين الى سوزان

كنت أرجو أن تطول عشرتنا في كوبلانس أكثر مما
طلت، وألا يفرق بيني وبينك إلا الموت، ولكن هكذا أراد
زوجك أن يطوى بك هذه المرحلة البعيدة وأن يجر مني أعز
صديقة كنت لا أجد لذة العيش إلا بجوارها، ولا أستطيع
طعم الحياة إلا معها، ولعلك هائلة في موطنك الجديد كما كنت
هائلة في كوبلانس

أنا سعيدة والحمد لله لأشكو شيئاً غير فراقك، وحرمانى
رؤيتك، وإدوار لا يزال يحبنى وينزل عند رغباتى ويتفقد جميع
مرافقى وحاجاتى فله الشكر على ذلك

لا أكتمك ياسوزان أنى كنت أشعر فى نفسى ببعض
الحزن على ذلك الفنى المسكين الذى لقي فى سبيلى ذلك الشقاء العظيم
الذى تعلمينه، ولقد سررت اليوم سروراً عظيماً حينما علمت من
أخباره أنه قد نسى ذلك الماضى جميعه، خيره وشره، وأنه قد عاد الى
رشدته وصوابه، ونزع عن تلك التصورات الغريبة والخيالات
السوداء التى كانت تخالط عقله، وتذهب براحتة وسكونه، وأصبح
يأنس بالناس ويشعر بلذة المخالطة والاجتماع، ويعيش فى بيته الذى
(٢٧ - ماجدولين)

بناه في جوتنج عيشاً هادئاً ساكناً لا يمازجه حزن ولا كدر ، بل
سمعت عنه ماهو أكثر من ذلك ، وهو أنه يشتغل بفن الموسيقى
اشتغالا يستغرق جميع مشاعره وعواطفه ، وأنه قد برع فيه براعة
غريبة لا يبلغ مبلغه فيها إلا القليل من الناس ، ويقول الذين
حدثوني حديثه إن شأنه في ذلك الفن سيكون شأناً عظيماً ، وربما
بلغ فيه بعد قليل من الأعوام مبلغ النابهين من نوابغه وأفذاذه ،
فحمدت الله على ذلك حمداً كثيراً ، لاني كنت أشعر في أعماق
نفسى بالحزن عليه والرتاء له ، بل بالنقمة على الدهر من أجله ،
وكان يُخيل إليّ أنه لو مات في سبيله هذه لتنغص على عيشي ،
ولقضيت بقية أيام حياتي محزونة النفس موحشة القلب حتى
يوافيني أجلى

اكتبى الى كثيرًا ياسوزان ، وحدثني عن كل ما يحيط بك
من الأشياء ، فذلك ما يعزيني عن فراقك بعض العزاء

٧٤

من ماجدولين الى سوزان

أنى اليك مع الأسف والذى فقد مات رحمة الله عليه بعد
مرض لازمه خمسة أشهر ، وكنت قائمة بتمريضه كل هذه المدة في
ولفاح حتى مضى لرحمة ربه ، ولم أعد إلى كوبلانس إلا منذ أيام

قلائل ، وهذا ما حال بيني وبين الردّ على كتبك التي أرسلتها
إليّ ، فسأحييني في تقصيري وابكي معي ذلك الأب البر الرحيم
الذي أحبنى في حياته فوق ما يحب الآباء أبناءهم ، ومات وهو
لا يأسف على فقد شيء في الدنيا سواي ، ولقد كنت أسمع قبل
اليوم أن الفتاة الثاكل لا تبكي أباهها وهي متزوجة ، كما تبكيه
وهي عذراء ، فأرتاب في ذلك ارتياباً كثيراً ، حتى مات أبي فبكيت
بكاء لا تبكيه متزوجة ولا عذراء ، فرحمة الله عليه وعلى أيامه
الغرض الحسان ، وعلى نفسه الطيبة الطاهرة

ولقد عزّاني عن فقد بعض العزاء أن كثيراً من صواحي
وأصحاب زوجي كتبوا إليّ كتب تعزية رقيقة حملت عن نفسي
بعض همومها وأشجانها ، والذي عجبت له كلّ العجب وملا نفسي
دهشة وحيرة أني وجدت بين تلك الكتب كتاباً من استيفن
أرسله إليّ من جوتنج يعزيني فيه أجمل تعزية وأرقها ، ويتفجع فيه
على الميت تفجعاً عظيماً ، ويخاطبني بتلك اللهجة التي لا يخاطب بها
المرء إلا أكرم أصدقائه عليه ، وآثرهم عنده ، فعجبت لأمره كثيراً
وقلت في نفسي ان كان الرجل لا يزال يضر لي في قلبه حتى اليوم
بقية من ذلك الاجلال القديم بعد الذي كان بيني وبينه فهو
أكرم الناس خلقاً ، وأشرفهم نفساً ، وأعلام همة ، على أن الذي

سرني في عمله هذا أكثر كل شيء ، أنه قد غفر لذلك الشيخ المسكين
تلك الاساءة التي كان يظن أنه أسلفها اليه ، ففضى لربه طاهر
النفس ، نقي الصحيفة ، لا يحمل تبعة ، ولا يحجر وراءه إنما
ألا تعجبين معي ياسوزان لهذا الانسان الغريب الذي كنا
نتهمه بالامس في عقله ، وننزل به إلى مرتبة المخالطين الممرورين
الذين لا يصلحون لشأن من شؤون الحياة كيف استحالت حاله ،
وهذأت ثورة نفسه ، وأصبح رجلاً كريماً مهذباً عاملاً مستقيماً
طيب السريرة والنفس ، لا يحقد ولا يضطغن ، ولا يأبى أن يغفر
الذنب الذي لا يغفره أحد ، وينسى الاساءة التي لا ينساها إنسان
أهديك ياسوزان تحيتي ، وبلغى فردريك تحيتي وتحية إدوار

٧٥

من ماجدولين الى سوزان

لم تكتبي الى ياسوزان منذ ثلاثة أشهر الا كتاباً واحداً
لا يزيد على خمسة أسطر وهو قليل لا يقنني منك ، فان لم تكتبي
إلى لتعزيتي وتسرية هموم نفسي فاكتبي إلى لأعلم انك سعيدة
هائلة في موطنك الجديد

أشعر ياسوزان مذمات أبي أنني ضيقة الصدر خائرة النفس ،
ولا أدري ما الذي طرأ على إدوار فقد تغير لي بعض التغير عما كان

عليه ، وأصبح لا ينظر إلى بالعيز التي كان ينظر بها إلى من قبل ، ولا أريد أن أقول إنه أبغضني أو تبرم بي أو فتر عن خدمتي والقيام بشأني ، بل أريد أن أقول إنني أصبحت أرى في عينيه قصر أعني وازوراراً لأعهد لي بهما من قبل . وصارت ابتسامته مزيجاً من الجمالة والحب ، وكانت خالصة للحب قبل ذلك ، وأصبحت تتخلل أحاديثنا فترات طويلة موحشة ما كانت تتخللها قبل اليوم ، وكنت لأذهب معه في الحديث مذهباً أستحسن فيه أمراً أو أستهجنه إلا ذهب معي فيه ، فأصبح يستهجن أكثر ما أستحسن ، ويستحسن أكثر ما أستهجن ، كأنما يتعمد مغالطتي ومحادتي ، وصار يأنس بالزائرين والوافدين ويطيل جلوسه معهم ، وقلماً كان يأنس بهم أو بهش إلى لقاءهم أو يستخفُّ شيء غير الجلوس معي والحديث إليّ ، وكنت لأبتسم إلى رجل من الرجال ابتسامة ود أو مجاملة أو أتبسّط معه في حديث إلا وجمَ لذلك وجوماً يظهر في عينيه وقلبات لسانه ، فأصبح لا يأبه شيء من ذلك ولا يحفل به ، والغيرة دخان الحب ، فاذا انطفأت ناره انقطع دخانه لا يحزنك من ذلك شيء ياسوزان ، فربما كنت واهمة أو متخيلة ، وربما كتبت إليك بعد قليل أنني سعيدة هائلة ، وأن هذا الوهم لا أثر له في نفسي

٧٦

من سوزان الى ماجدولين

لا شك أنك واهمة يا ماجدولين، فان ادوار يحبك حباً شديداً،
ولا يؤثر على رضاك غرضاً من أغراض الحياة وما ربهها، وأرى
لك أن تتغلغل بنفسك هذا التغلغل كله في بواطن الاشياء وأعمقها،
فعمق الحياة خير من مجهودها، والسعادة كالزهرة لا تزال ناضرة
ما قنع رائيها منها بمنظرها وأريجها، فاذا جاوز ذلك إلى لمسها والعبث
بها ذبلت وذوت وذهب جمالها ورواؤها وأهديك تحيتي وسلامي

٧٧

من ماجدولين إلى سوزان

لقد وقع لي منذ أيام أمر غريب لا أجد لي بدأ من الإفضاء
به اليك

دعيت أنا وإدوار منذ أيام قلائل إلى حفلة أنس قال صاحبها
حين دعانا إليها إن الذي سيقوم بأدوار الغناء والتوقيع فيها صديق
له من مهرة الموسيقيين وحقاقهم، فسألناه عن اسمه فأبى إلا أن
يباغتنا به مباغتة، وقال انه حديث عهد بذلك الفن وإن هذا أول
عهده بالغناء في المجامع العامة، وظل يثنى عليه ثناء عظيماً، ويذهب
في تقريره والاشادة به كل مذهب، فلم يكن لي هم عند ما ذهبت

إلى تلك الحفلة لإلا رؤية ذلك الموسيقي الماهر واستماع أغانيه وألحانه،
 فضلت شاخصة إلى كرسي البيانو وانتظر ذلك الذي سيتقدم من
 بين الحاضرين فيجلس عليه حتى رأيت في نحيلا ساهم الوجه تراءى
 بين أعطافه مخايل العزة والشرف قد مشى إلى ذلك الكرسي حتى
 جلس عليه بلباقة وظرف فتأملتة فإذا هو « استيفن » وما كدت
 أعرفه فقد اختفى من وجهه ذلك الانسان الأشعث الاغبر الخشن
 الاعضاء والملاح، وحل محله انسان آخر ظريف متأنق هادىء
 الحركات حلو الشماثل يكاد يحسبه الناظر اليه للمرة الاولى جميلا،
 وما هو بجميل ولا مستملح، ولكنه جمال نفسه قد فاض على
 جسمه فكساه رونقه وبهاءه

ثم بدأ التوقيع فأنشأت أنامله تلعب بأوتار البيانو، فكأنما
 كانت تلعب بأفئدتنا وقلوبنا، وأخذ يغنى في أثناء توقيعه غناء شجياً
 محزوناً خيل الينا ونحن نسمعه أننا قد انتقلنا من هذا العالم إلى عالم آخر
 من عوالم الأرواح، وأن ما نسمعه ليس صوتاً صاعداً من عالم الأرض
 بل هابطاً من آفاق السماء حتى أتى على النعمة الاخيرة فلم يملك
 السامعون أنفسهم أن هرعوا اليه جميعاً ودار به يهشونه
 ويقرظونه ويرددون في أحاديثهم أنهم ماسمعوا في حياتهم توقيعا
 أفضل من توقيعه ولا ألحانا أبداً من ألحانه وهو يشكرهم نداءهم

عليه واحتفاءهم به ، وابتسم لهم فيما بين ذلك ابتسامة هادئة غريبة
لا يعلم الناظر اليها امتكلفتها أم هي ابتسامته التي لا تنفجر عن غيرها
شفتاه ، وكيفما كان الامر فقد خيل إلى أني رأيت فيها معنى دقيقاً
لأحسب أن أحداً من الناس أدركه سوى ، وهو أنها مصبوغة
بصبغة رقيقة من الحزن العميق

ولقد كادت تحدثني نفسي لكثرة ما نالني من الطرب وخالط
قلبي من الجذل والسرور أن ذهب اليه واهنته كما يفعل سائر الناس
فلم استطع حتى أرى رأي ادوار ، فلم البث ان رأيت يمشي اليه فتبعته
حتى هنا فهنا أنه مثله ، وكنت اتوقع ان أرى على وجهه عند
رؤيتنا حالة من حالات الغضب أو الارتباك ، فلم ار إلا رجفة
خفيفة مرت بشفتيه عند ما نظر إلينا ثم عاد إلى ابتسامه وتطلقه
وانشأ يحدثنا بسكون وهدوء كأنما هو يتم حديثاً كان يبتنا وبينه
من قبل ، فعلمت ان الرجل قد محا من سجل حياته تلك الاعوام التي
شقي فيها ، ومحا معها ذكرى علاقتنا ببؤسه وشقائه ، واصبح لا يرى
بين يديه إلا امرأة قد منحته في عهد من عهود حياتها الماضية
ودها وإخلاصها ، وإلا رجلاً قد صادقته وآخاه وقاسمه بؤسه وشقاه
في أيام طفولته وصباه ، ثم لا يزيد على ذلك شيئاً ، فلم ينقض الليل
حتى ذهب ما كان بينه وبيننا من الوحشة والجفاء ، وذهبنا معه

في الحديث مذاهب مختلفة ، ووعده إدوار ان يزوره في منزله في
عهد قريب ، ثم افرقنا

٧٨

من ماجدولين الى سوزان

لأزال ياسوزان ضيقة الصدر ، كثيرة الهم ، ولا يزال إدوار
قريباً مني بعنايته واهتمامه ، بعيداً عنى بقلبه وعواطفه ، فقد ملأ
فراغ قلبه بشؤون مختلفة لأعرفها ولا آبه لشيء منها ، ولم يترك
فيه للحب الا زاوية صغيرة محدودة لا تتسع ولا تنقبض ، ولا تجدد
العواطف لنفسها فيها مجالا ، فهو يحبني حباً هادئاً فاتراً ربما لا يزيد
عن محبته لخيوله وعجلاته ، وقصوره وبساتينه ، وأحسب لو أنه أراد
ان يزيد على ذلك شيئاً لما استطاع ، لان نفسه ليست تلك النفس
الشعرية المتلاثلة التي تذهب في الحب كل مذهب ، وتطير في سمائه
كل مطار ، ولأنه لا يفهم من الحب أكثر من ذلك المعنى المادي
البسيط الذي يفهمه الحيوان الاعجم ، بل لا يدرك من شؤون
الحياة جميعها غير ما يقع تحت حواسه ومشاعره

والآن استطيع ان اعترف لك يا صديقتي بأنني ماشعرت في
يوم من أيام حياتي معه على حبي إياه وإعجابي به بأن نفسي
خالطت نفسه ، أو لامستها ، أو امتزجت بهاذلك الامتزاج الذي

يُحِيلُ النفسين المختلفتين إلى نفس واحدة ، بل كنت أرى دائماً أنه وإن كان يحبني ويسنهم بي ويبذل لي من ذات نفسه وذات يده كل ما يستطيع أن يبذله زوج لزوجته فهو عاجز عن أن يُشعل في قلبي نار ذلك الحب الشعري الجميل الذي لا تقنع المرأة من الرجل بدونه ، ولا تأنس منه بشيء سواه ونار الحب إن لم يتعهدها متعهدها بالتأريث والتأجيج فترت وانفثت واستحالت جمرتها إلى رماد ، والحب كالطائر لا حياة له إلا في الغدو والرواح ، والتفريد والتنقيز ، فإذا طال سجنه في قفص القلب تضعضع وتهالك ، وأحني رأسه يائساً ، ثم قضى

وأعظم ما أشكو من الهموم في حياتي معه أنني أصبحت أشعر منذ أيام طوال أنني أعيش في عزلة منقطعة عن العالم كله لأنيس لي فيها ولا سمير ، فإذا مر بخاطري فكر من الأفكار ، أو اختلج في نفسي غرض من الأغراض ، أو خفق قلبي خفقة سرور أو حزن ، أو ارتياح أو انقباض ، لا أستطيع أن أفضي إليه بشيء من ذلك مخافة ألا يفهمه أو يفهم منه غير ما أريد فيزدريةً ويزدريني من أجله ، ويوسعني هزءاً وسخرية ، فلا أجد لي بداً من أن أنكتمه في نفسي ، وأطويه بين أضالعي

ألا ترين بعد هذا يا سوزان أنني في أشد الحاجة إليك ، وإلى

بقائك بجانبى ، لتأخذى ييدى فى ظلمات حياتى ، وتحملنى عنى
بعض همومى وأشجائى ، فهل يقدر لى الله أن أراك بين يدي فى
عهد قريب ؟

٧٩

الوحدة النفسية

لقد صدقت ماجدولين فيما قالت ، فقد ملها إدوار بعد عامين
اثنين من زواجه منها وبرم بها وانتهى أمره معها بما ينتهى به كل
زواج تعقده يد الشهوة ، ولقد مل منها أكثر من كل شئ تلك
الوحشة التى كانت سائدة على نفسها ، وذلك السكون الخيم على
عواطفها ومشاعرها ، وذهابها فى تصوراتها وآرائها مذهب الخيال
الشعرى الذى لا يألفه ، ولا يأنس به ، ولا يلتئم مع طبيعة نفسه
ومزاجها ، فلقد كانت نفسه نفساً مادية ضاحكة ، ونفسها نفساً
روحية مكتئبة ، وقد تكلف كل منهما الخروج عن طبعه برهة من
الزمان لغرض طارئ من أغراض الحياة ، فأخرجها عن طبيعته ذلك
اللائئ الساطع الذى بهر عينها عند انتقالها من القرية إلى المدينة
وتلك الضوضاء العظيمة التى أحاطت بأذنيها وحالت بينهما وبين
سماع صوت قلبها ، وأخرجه عن طبعه أنه أحبها وافتن بها وكان
لابد له من أن يقع من نفسها ، وينزل عند رغبتها ، فتجمل لها

في أحاديثه ومنازعه ، وتصوراته وآرائه ، بما يتجمل به كل رجل لكل امرأة عند خطبتها ، حتى اتصال بصلة الزواج فأخذاً يتراجعان شيئاً فشيئاً إلى طبيعتهما وسجيتهما ، ويذهبان في الحياة مذهبهما الذي فطرا عليه ، فتتافرا وتناكرا ، واستوحش كل منهما من صاحبه ، ولقد كان يكون إدوار خير الأزواج لو أنه تزوج امرأة مثل سوزان مادية النفس ، وكانت تكون ماجدولين أسعد الزوجات لو أنها تزوجت رجلاً مثل استيفن شعري الطبيعة ، وما خدعت سوزان ماجدولين في تزيين هذا الزواج لها وإغرائها به ، ولا أرادت بها في ذلك سوءاً ، لأنها لم ترَ لها إلا ما ترى مثله لنفسها ، ولا سلكت بها إلا الطريق التي سلكت مثلها في حياتها

والهفوة التي يهفوها الرجال والنساء جميعاً في مسألة الزواج أنهم يتساءلون عن كل شيء من جمال أو مال ، أو خلق أو ذكاء ، أو علم أو عقل ، أو عفة أو أدب ، ويعقلون النظر في ملاك هذه الأشياء جميعها وزمامها ، وهو الوحدة النفسية بين الزوجين ، فالنفس نفسان ، مادية تقف عند مظاهر الحياة ومرايئها ، وروحية تتغلغل في أعماقها وأطوائها ، وأصحاب النفس الأولى هم أولئك الجامدون المتبلدون الذين يدورون في الحياة حول محور أنفسهم ، ولا يحفلون بشيء فيها إلا بما يتصل بمطامعهم أو بشهواتهم ، والذين اذا شغفوا

بالجمال شغفوا به باعتبار علاقته بأجسامهم لا بنفوسهم ، وإذا أُعجبوا
 بمنظر من المناظر أعجبوا به من حيث قيمته ومنفعته ، لا من حيث
 بهائوه ورونقه ، وإذا وقفوا أمام قصر باذخ جميل شغلهم النظر في
 غلته وثمرته عن الشعور بجماله وعظمته ، وإذا أشرفوا على الطبيعة
 ضاقت صدورهم بمنظر غياضها ورياضها ، وآجامها وأحراشها ،
 واستوحشوا منها وحشة السائر في فلاة جرداء ، أو الهائم في مغارة
 جوفاء ، وإذا صادفوا الناس صادقوهم على المنفعة أو الشهوة ، أو
 عادوهم عادوهم فيهما . يضحكون والعالم باك ، ويعرسون والدنيا
 في مأتم ، ولا يبالون أهلك الناس أم بقوا ، ماداموا باقين ، وسعدوا
 أم شقوا ، ماداموا سعداء مغتبطين ، وأصحاب النفس الثانية
 هم أصحاب الملكات الشعرية الذين صفت قلوبهم ، فأصبحت
 كالمرآى المجلوة فتراءى فيها العالم بما فيه من خير وشر ، فقرحوا
 بخبره ، وحزنوا لشره ، ورقت أفئدتهم ، فشقروا بألم المتألمين ، فتألموا
 معهم ويبكاء الباكين ، فبكوا عليهم ، وخفت أرواحهم ، فطاروا
 بأجنحتهم في آفاق السماء ، وحلقوا في أجوائها ، فأشرفوا على الطبيعة ،
 ورأوها في جميع مظاهرها ومرائها ، فوجدوا في رؤيتها من اللذة
 والغبطة ما زاحم في قلوبهم حب المال والشهوات ، فاعتدلوا في
 مطامعهم ، وترفقوا في مساعيهم ، وازدروا كل لذة في الحياة غير

لذة الحب ، وكل جمال غير جمال الخيال

ولا تلتئم النفس المادية بالنفس الروحية بجمال من الأحوال ،
ولا تأنس بها ، ولا تجد لذة العيش معها ، وليس الذى يفرق بين
الصاحبين أو الزوجين أو العشيرين تفاوت ما بينهما فى الذكاء أو
العلم أو الخلق أو الجمال أو المال ، فكثيراً ما تصادق المختلفون فى
هذه الصفات ، وتخاذلوا وصفت كأس المودة بينهم ، وإنما الذى
يفرق بينهما اختلاف شأن نفسيهما ، وذهاب كل منهما فى منازعه
ومشاركه ورغباته وآماله وتصوراته وآرائه غير مذهب صاحبه ،
وأن يكون أحدهما مادياً ضاحكاً للحياة سعيداً بضحكه ، والآخر
روحياً باكياً عليها سعيداً ببكائه ، وهذا هو الذى كان بين ادوار
وماجدولين

ولم يكن الجمال وحده هو كل مزايا ماجدولين ، بل كان أقلها
شأنًا ، وأدناها قيمة ، ولكن ادوار لم يستطع أن يفهم شيئاً غيره أو
يعنى بأمر سواه ، فها هو إلا أن حصل فى يده واستنفذ متعته به
حتى بدأ الملل يدب فى نفسه ديباً خفياً ، فلم تشعر به ماجدولين
فى مبدأ الأمر ، ثم أخذت تحس شيئاً فشيئاً ، فذعرت وارتاعت ،
وملأ الرعب ما بين جوانحها ، وما هى إلا أيام قلائل حتى أخذت
تنقشع عن عينيها تلك الغيابة السوداء التى كانت تظللها ،

فاستطاعت أن تهبط إلى أعماق قلبها ، وتفتش فيه عن صورة
الرجل الذي تعاشره وترعم أنها تحبه ، فرأت صورة لا تعجبها ولا
ترُوقها ، ولا تخالط نفسها ولا تمازجها ، وعادت إلى ماضيها معه ،
فأخذت تقرأ صفحاته صفحة حتى أتت على آخرها ، فتبين لها
أنها لم تكن تحبه ، أو أنها كانت تحب فيه شيئاً غير نفسه ، وأن
الصلة التي بينها وبينه إنما هي صلة الزوجة بالزوج ، لاصلة القلب
بالقلب ، فعرفت أنها لم تحسن الاختيار لنفسها ، وأن شقاء طويلاً
ينتظرها فيما بقي لها من أيام حياتها

٨٠

من سوزان الى ماجدولين

أراك تتحدثينني في كتبك كثير أعني استيفين ، كأنك قد نسيت
أنه أصبح رجلاً غريباً عنك لاشأن لك به ، وأن ما كان بينكما
قد انقضى وذهب لسبيله ، وأغرب من ذلك أنك تكتبين
عنه بلهجة أفضل من اللهجة التي تكتبين بها عن زوجك ،
وأخاف أن يكون لالتقائه بك في تلك الحلقة التي قصصت على
قصتها صلة بهذا الألم الجديد الذي أصبحت تشعرين به اليوم ،
فما عهدتك قبل الآن باكية ولا شاكية ، ولا ناقة من زوجك
شأناً من شؤونه ، ولا متبرمة بعشرته ، ولا ضيقة الصدر بأطواره

وأخلاقه، ولا طائفة في سماء الخيال ليك ونهارك تفتشين عن
الحب الشعري وتتمسينه تلمس من لا يرى لنفسه عناء عنه، ولا
يعرف معنى للحياة بدونه، نخذي حذرک من نفسك يا ماجدولين،
واعلمي أن ما كان يعد بالألمس هفوة من الهفوات الصغيرة ليصبح
اليوم جنونا مطبقاً لا يماثله جنون، ولا يوحشنيك مني ما أقول لك،
فأنا لا أتهمك ولا أرتاب فيك، وأنت أعلم بذلك، ولكنني أخشى
عليك أن يتلاقى في مكان واحد من قلبك ذكرى ماضيك، وهناك
حاضرک، فيصطربا، فينغص عليك أولهما ثانيهما، فلا الماضي
تذكرين، ولا بالحاضر تسعدين

هذا ما أريد أن أقوله لك، وهذا ما أطلب اليك ان تتعهديه
من نفسك، وتتولى حراسته من قلبك، قبل ان يأتي يوم لا ينفعك
فيه تعهد ولا افتقاد

٨١

من ماجدولين الى سوزان

لا علاقة لاستيفن بهذا الهم الذي أشعر به، وليس بيني
وبينه أكثر مما يكون بين صديقين احتمل أحدهما في سبيل
الآخر في عهد من عهوده الماضية أفصى ما يستطيع احتماله من
المشقة والمؤونة، فعرف له الآخر يده، وشكرها له، وجازاهوداً
بود، ومعروفاً بمعروف

أما هذا الذى تريد أن تذهبى اليك فى كتابك فأقسم لك
أنى لأعرف له أثراً فى نفسى ، ولا أحسب أن له أثراً فى نفسه ،
فقد رأيته فى تلك الليلة التى قصصت عليك قصتها ، ثم رأيته بعد
ذلك مرتين ، فلم أرى نظرات عينيه ، ولا فى ملامح وجهه . ولا فى نعمة
حديثه ، أثراً من ذلك الحب القديم الذى تعرفينه ، وكل ما يستطيع
الناظر اليه أن يلمحه فى وجهه تلك المسحة الرقيقة من الحزن التى
تترأى فى عينيه حين ينظر ، وفى ابتسامته حين يبتسم ، وما هو
بحزين ولا مكتئب ، ولكنها صورة الألم القديم قد رسمها الماضى على
وجهه ثم ذهب فبقيت هى من بعده دليلاً عليه كما تبقى صورة
الجرح بعد التئامه ، فاطمنى ياسوزان ، وليكن رأيك فى اليوم
رأيك بالامس ، ولا يقيم هذا البعد الذى بينى وبينك حجاباً بين
نفسى ونفسك

٨٢

قلب استيفن

نبه ذكر استيفن ، وعظم شأنه ، وأصبح نابغة من نوابغ
الموسيقى ، وانتشر له صيت بعيد فى جوتنخ وما وليها من البلدان ،
ثم امتد صيته إلى كوبلانس ، فزاره فى قريته كثير من المغنين
والممثلين ، واقترحوا عليه تلحين القطع التمثيلية ، وأجزلوا له الاجر
عليها ، فلحنها أفضل تلحين وأبرعه ، ودرت عليه أخلاف الرزق ،
(٢٩ - ماجدواين)

وسال واديه بالذهب سيلا ، وكان أبوه قد مات وورثته تلك الصبابة
من المال التي كانت في يده ، فكان إذا ذهب إلى كوبلانس ليقضى
فيها ليلة أو ليلتين لبعض شؤونه الخاصة نزل في بيته وزاره فيه
أصدقائه وخلانته ، والمعجبون بفضله ، والمعرفون بصنائه وأياديه
ولقد وجد في تلك الخطة التي انتهجها لنفسه في حياته بعض
العزاء عما لقي في ماضيه ، إلا أنه كثيراً ما كان يخلو بنفسه في هدوء
الليل وسكونه فتمر أمام نظره على الرغم منه جميع آلامه وهوميه
الماضية فيذكر الليلة التي خرج فيها من كوبلانس شريداً طريداً
لا يجد مواسياً ولا معيناً ، والليلة التي ذهب فيها إلى عرس سوزان
لرؤية ماجدولين فضربه أحد الزائرين على وجهه سوطاً فأدماه ،
والليلة التي كابد فيها الأهوال العظام في غرفة قريبه ليلة وفاته
حتى أشرف على الجنون ، والليلة التي قضاه طريحاً تحت سلم دار
ماجدولين حتى الصباح وهي خالية بزوجها في غرفة عرسها تعانقه
وتقبله وتقول له « أنت حيأتى التي لا حياة لي بدونها » ويتراءى
له مرة شبح أخيه « أوجين » وهو ساقط في حومة الوغى تحت
سنانك الخليل تدوسه وتحوض في أحشائه ، وأخرى منظر ماجدولين
وهي جالسة مع إدوار على مقعد حديقها تناجيه بالحب ويناجيها ،
إلى ما بقي من أيام بؤسه ، وليالى شقائه ، ثم تتمثل أمام عينيه روضة

آماله وهى مورقة خضراء يتسلسل ماؤها ، ويتفرق هواؤها ،
ثم يراها وقد عصفت بها ريحُ الحوادث فصوّح نبتها ، وذبل
زهرها ، واستحالت الى قفرة جرداء لا يترنج فيها غصن ، ولا
يهتف بها طير ، فيخيل اليه أنه يعيش وحده منقطعاً عن العالم كله
وما فيه ، لأن ما جدولين ليست بجانبه ، وأن ما يتمتع به من مجد ومال
لا قيمة له عنده ، لأنها لا تقاسمه إياه . وان هذه الاحزان التى يضعها
والأصوات التى يغنيها انما هى مأتم يقيمه بنفسه على نفسه وعلى آماله
الذاهبة ، وأمانيه الضائعة ، فتملى نفسه غمًا وحسرة فلا يجد له
سبيلًا سوى أن يتناول قيثارتة فيضمها الى صدره ويثبها هموم قلبه
وآلام فؤاده ويكيك ماشاء الله أن يفعل حتى يجد بعض الراحة فى
نفسه فيأوى الى فراشه وينام نومًا طويلًا ثم يستيقظ بارئًا مستفيقًا
ولم يزل هذا شأنه حتى التقى بما جدولين فى تلك الليلة التى
قصت هى قصتها على سوزان فاغتبط برآها اغتباطًا ممزوجًا
ببعض الألم لذكرها وذكرى ماضيه معها ، إلا أنه تجدد واستمسك
وكأتم نفسه غصتها فلم تشعر بشيء مما دار فى نفسه حتى انصرفت
وماهى إلا أيامٌ قلائل حتى زاره إدوار فى بيته كما وعده
واعتذر اليه عن فعلته التى فعلها معه فقبل عذره قبول من لا يرى
من قبوله بدءًا ، بل زعم له حين جرى بينهما ذكر ذلك الماضى

وشؤونه أن حبه لما جدواين لم يكن إلا خدعة من خدع النفس
ونزغة طائشة من نزغات الشباب ، وأنه قد أصبح الآن لا يشعر
في نفسه بأثر واحد من حبها ، وكان ادوار قد بدأ يمل ماجدولين
ويأرجحها فلم يعد يحفل بأمرها ، ولا يفكر في ماضيها ولا حاضرها ،
وأصبح ولا هم له إلا أن يجد صداقته مع رجل قد أصبح من أصحاب
الشان العظيم ، والمظهر الفخم ، والثروة الطائلة ، فصدقه في زعمه ،
وسكن إليه ، وذهب في مجاملته والتودد له كل مذهب ، ثم رده
استيقظ الزيارة في بيته في اليوم الثاني ورأى ماجدولين وحادثها وتبسط
معه تبسط من لا يحفل بحاضرها ، ولا يعنى بماضيها ، ثم لم يزل يراها بعد
ذلك في منازل بعض أصدقائه ، أو في الاحتفلات العامة ، وحدها ، أو مع
إدوار ، فيحسن ملتقاها ، ويؤثرها بعطفه ورعايته ، إلا أن كان يتجنب
جهده أن يجلس معها مجلساً منفرداً ، أو يتحدث إليها حديثاً خاصاً ،
لأنه كان قد أخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها ، فلا يجب أن
يستثيره في نفسه مستثير ، ولأنه كان لا يزال يمسك في نفسه
بعض العتب عليها في غدرتها التي غدرتها به ، فلا يجب أن ترى ذلك
في نعمة حديثه ، أو لحظات عينيه ، انفة وكبرياء ، وذهاباً بنفسه مذهب
من لا يبالي بمن لم تبال به ، ولم ترع له ذماماً ولا عهداً
وجملة حاله معها أنه كان يجمع لها في قلبه في آن واحد بين

عاطفتين مختلفتين ، عاطفة الرضا ، وعاطفة السخط ، فهو يحبها فلا يستطيع مقاطعتها ، ويحب عليها فلا يريد أن تشعر بحبه إياها

٨٣

قلب ماجدولين

مازال الملل يأخذ من نفس إدوار حتى مل يئته واجتواه ،
وانشأ يطلب لنفسه السعادة خارجة بعدما فقد داخله ، فأخذ يتلهم
بتلك الشؤون التي يعالج بها فقراء القلوب امراض ملهم وسآمتهم ،
فقامر ثم ضارب ثم ولع بالشراب ثم قضى بعض ليليه خارج منزله ،
فاشتد ذلك على ماجدولين ، ونال منها من لا عظميا ، وساء ظنها بالحياة
ومافيا ، فصبح في نظرها كل مظهر من المظاهر المادية التي أحببها
هنية من الزمان واستهامت بها ، فعافت المراقص والمحافل ، وزهدت
المظاهر والمفاخر ، وملت كل شيء حتى ثيابها وزينتها ، وأصبحت
لا تفكر ليلا ونهارها إلا في تلك الكلمة التي قالها لها استيفن
في بعض كتبه الماضية « لاتصدق يا ماجدولين ان في الدنيا سعادة
غير سعادة الحب ، فان صدقتِ فويل لك منك فانك قد حكمت
على قلبك بالموت »

الا أنها ردت نفسها مع الايام على مكروها ، واصطبرت
للحالة التي طرأت عليها صبرا جميلا لا يتخلله تذمر ولا شكوى ،

فقد علمت أن القدر قد جرى في أمرها بما هو كائن ، وإنها قد أصبحت زوجة لرجل قد أقسمت له بين يدي الله يميز المحبة والولاء ، فلا بد لها من الوفاء له ، والاخلاص اليه ، واحتمال كل مكروه في عشرته حتى يقضى الله في أمرها بقضائه

وكان يعزيها عن شقائها بعض العزاء أنها كانت ترى استيفن من حين إلى حين ، وتحضر بعض مجالسه ومجتمعاته فتسمع في حديثه ذلك الأسلوب الشعري البديع ، وتلك التصورات السموية العالية التي طالما سحرتها وملكت عليها قلبها واهواءها ، وترى تلك الشهرة العظيمة التي تنتشر له شيئاً فشيئاً في أقطار البلاد فتمتلئ نفسها إكباراً له وإعظاماً ، ولا يملك قلب المرأة من الرجل مثل الشهرة وامتداد الصيت ، وكان يداخلها شيء من الإعجاب بنفسها كلما ذكرت أنها قد نزلت في عهد من عهود حياتها الماضية منزلة الحب من ذلك القلب الطاهر الشريف ، فتجد في سعادة الماضي وذكرياته بعض العزاء عن شقاء الحاضر

إلا أن أمراً واحداً لم يخطر ببالها ، ولم يدخل في أحاديث نفسها ، وهو أن تعود إلى حبه بعد ما انقضت يدها منه ، أو أن تكون الصلة التي بينها وبينه صلة حب وغرام

من ماجدولين الى سوزان

قد اطلعت منذ أيام قلائل على سر هائل ليتنى لم اطلع عليه ،
وليتنى مت قبل ان اعرف منه حرفاً واحداً

قد أفلس ادوار وباع جميع ما يملك ولا تزال عليه بقية من
الدين لاسبيل له الى ادائها ، وهأنذا أعددتى لبيع جواهرى
وحلاى على استطيع ان استنقذ البيت الذى تسكنه ، ولا ادرى
ما يكون شأننا بعد ذلك ، ولقد فأنحت ليلة أمس فى هذا الشأن
فراوغنى قليلاً ثم اعترف لى بكل شىء وقال انه انما أنى من قبل
المقامرة اولا ، والمضاربة آخرأ ، وان طمعه فى الثروة واستهتاره فيها
هو الذى افقده اياها ، فعاتبته فى ذلك عتاباً لاأظن اننى اثقلت
عليه فيه ولكن أتدرين ياسوزان ماذا قال لى ؟ قال انه لم يخطئ
فى حياته الا فى أمر واحد ، هو انه تزوج من زوجة فقيرة لا تستطيع
ان تمد له يد المعونة فى ساعات شدته ، ولقد صدق فيما قال ، فليس
للرجل الغنى ان يتزوج الا امرأة غنية تلام نفسه نفسها ، وليس
للرأة الفقيرة ان تزوج الا رجلاً فقيراً يشابه عيشه عيشها

اننى لا ابكى ياسوزان على نفسى فقد قضيت أكثر أيام
حياتى فقيرة معدمة لا املك من متاع الدنيا شيئاً ، بل على ذلك

الجنين المسكين الذى يختلج فى أحشائى والذى سأله غداً للمفقر
والمتربة ، والذل والشقاء
لقد أصبحتُ لأسأل الله إلا مودة عاجلة تذهب بى وبه ،
وتريحنى وترىحه من شقاء الحياة وعنائها ، والويل لى وله إن عشت
بعد اليوم ساعة واحدة

٨٥

الغرفة الزرقاء

مرض ادوار على أثر تلك النكبة التى نزلت به مرضة شديدة
كادت تتلف فيها نفسه ، ثم أبلى بعض الابلال فاقترح عليه استيفن
وكان قد لازمه مدة مرضه ، ومداليه يد المعونة فى نكبته ، أن يسافر
معه إلى جوتنج ليتفرج قليلاً من مآبه ، ففعل وسافرت معهما ماجدولين
حتى بلغت بهم العجالة ضاحية القرية ، فاستقبلهم فرتز وزوجته
وأولاده على ضفة النهر فرحين مغتبطين ، وكانوا على موعد منهم ،
فصافح استيفن فرتز وعانقه معانقة الصديق لصديقه ، وقبل جبين
جوزفين ، وضم الأولاد إليه وأنشأ يقبلهم ويدبر لهم خديه فيقبلونه
ويتهفون له ويقولون لقد طال غيابك عنا فى هذه المرة ياسيدى
حتى ظننا أنك قد آثرت الإقامة فى كوبلانس على الإقامة بيننا ،
وقال له أكرمهم وكان فى الثالثة عشرة من عمره هأنذا ألبس الرداء
الجديد الذى أرسلته إلى فشكراً لك ياسيدى ، فسأله هل أصبح

يستطيع نشر شراع الزورق وحده بلا مساعد ولا معين ؟ قال نعم وأستطيع أيضاً أن أطويه وقت اشتداد العاصفة ، قال سارى الآن ذلك أيها الملاح الصغير ، وقال أوسطهم وكان فى التاسعة من عمره لقد بلى حذاءى ياسيدى فهل جئتني بحذاء جديد ؟ قال نعم لقد جئتكم جميعاً بأحذية جميلة ، وقبعات فاخرة ، وفرحوا وتهللت وجوههم ، وأحاطوا بأهمهم يهمسون فى أذنهم بهذا النبأ الجديد ، وتشبثت بردائه الطفلة الصغيرة وقالت له لقد ولدت الشاة التى أهديتها إلى حَمَلًا صغيراً أبيض اللون أسود العينين فتعال معى أركب اياه ، فتبسم وضما اليه وقال لها سأذهب معك يافكتورين عما قليل ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها : انهم يحبوننى كثيراً ، وأنا الآن أعيش بينهم كأنى أعيش فى أسرتى بين أهلى وقومى ، فارتعدت ياما جودولين واصفر وجهها وظلت تقول فى نفسها « لقد أصبح سعيداً بنفسه ، وكان يظن أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بدونى » ثم ركبوا الزورق جميعاً وأخذ الملاح الصغير ينشر الشراع ويصيح باستيفن : ها أنذا ياسيدى أنشر الشراع وحدى بلا مساعد ولا معين ، فيقول له أحسنت يا بنى أحسنت ، حتى عبروا النهر الى الضفة الاخرى ، فاعتمد ادوار على ذراع استيفن ومشوا جميعاً على أقدامهم الى المنزل ، وكان على كئيب منهم ، فتقدم فرتر وكان معه مفتاح الباب ففتحه ، فدخلوا الحديقة ووقع نظر

(٣٠ — ماجدولين)

ماجدولين على حائط السور فرأتهما مكسورة بغلالة بديعة من أزهار
البنفسج تدور بها من جميع جوانبها ، فذكرت ذلك الكتاب الذي
كتبه اليها استيفن منذ خمسة أعوام قبيل زفافها الى ادوار وقال
لها فيه إنه قد كسا سور البيت الذي ابتناه لها في جونتج بأزهار
البنفسج التي تحبها ، ثم التفتت فرأت حوض الماء المقام في وسط
الحديقة ، ورأت حوله ذلك السياج الذي قال لها استيفن في كتابه
إنه قد أقامه من حوله خوفاً على أولادها من السقوط ، ثم لحت
في زاوية من زوايا الحديقة كرسياً طويلاً مؤلفاً من مقعدين
متقابلين ، وأرجوحة صغيرة من أراجيح الأطفال ، فعمجت كل
العجب من احتفاظه بهذه الآثار التي تؤلمه وتذكره بشقائه الماضي ،
ثم قالت في نفسها : ما أحسب أنه تعمد إبقاءها والمحافظة عليها
ولكنه تركها وشأنها فبقيت في مكانها على حالها

وهنا شعرت بتلك الغضاضة التي يشعر بها الذليل في موقف
ذله ومهاتته وظلت تقول في نفسها : انه ماعفا عنها ، ولا غفر لها
سيئها عنده ، ولا أمسك عن عتابها وتأنيبها ، ولا أعطاها من نفسه
هذا الوجه من الرضا ، إلا لانه يحتقرها ويذريها ، ويراها أصغر
في عينيه من أن يأخذها بذنب ، أو يعتد عليها بسيئة ، وإن هذه
النظرة العذبة التي أصبح ينظر بها اليها انما هي نظرة العزيز المترفع
التي يلقيها على البائس الشقي الذي يستحق عطفه ومرحمته ، فأخذ

من نفسها هذا الخاطر مأخذاً شديداً ، وأحزنها وملاً قلبها غصة
وألماً أنها قد فقدت كل ما كان لها في قلبه حتى منزلة الاحترام
وكان استيفن قد أنشأ في طرف من أطراف الحديقة غرفاً
أعدها لمنامه وجلوسه ونزول ضيفانه وترك المنزل جميعه لا يطرقة
ولا يأوى اليه طلباً لراحة نفسه من آلام الذكرى وهمومها ، فأعد
لادوار غرفة منها ذهب به اليها ساعة وصوله ، وكان إدوار لا يزال
يشكو بقية من الألم في جسمه ، فما أخذ مضجعه من فراشه حتى
استغرق في نومه ، وأقبل الليل فعادت أسرة فرتز إلى بيتها ، ولجأ
بستاني الحديقة إلى مخدعه ، وبقى استيفن وحده مع ماجدولين ، وهي
المرّة الأولى التي جلس اليها فيها منفرداً منذ افترقا ، فعادت إلى
ذهنه تلك الصورة القديمة التي كان يتخيلها في ماضيه لسعادته وهنائه ،
وظل يقول في نفسه : هاهو البيت ، وهاهي الحديقة ، وهاهو
النبت والشجر ، والليل والقمر والسماء الصافية ، والاشعة
المتفرقة ، والنسيم العليل ، والسكون السائد ، وهاهو حوض الماء
تسبح فيه الاسماك غادية ورائحة ، وهاهي ماجدولين جالسة
ليس يني وبينها حائل ، ولكنني لا أستطيع أن أمد يدي اليها ،
بل لا أستطيع أن أملاً نظري منها ، لان يني وبينها على شدة
هذا القرب بُعد ما يني وبين ذلك المنجم المتألق في أفق السماء

و ظل مستغرقاً في خياله هذا حتى فاتحته ماجدولين الحديث
وقالت له ما أجمل دارك يا استيفن وما أبدع منظرها ، إنها أجمل مما
كنت أتوقع ، فخيل اليه انها تهزأ به وتستعين بالآلامه فلا تبالي
أن تذكره بها فداخله ما لم يملك نفسه معه وقال لها : إن من
يعيش في قصر جميل تخم كقصرك الذي تعيشين فيه في كوبلانس
لا يعبأ بمنزل صغير كهذا المنزل ، فشعرت أنه يؤنبها ويُعرض لها
بتلك الاساءة التي أسلفتها اليه فيما مضى ، فتألمت في نفسها المأمر وجأ
ببعض الغبطة والارتياح ، لأنها علمت أنه لا يزال يفكر فيها ، ولا
يزال يضمّر في نفسه بقية من ذلك الحب القديم ، وأرادت أن
تتغلغل إلى أعماق نفسه فقالت له : حيثما يجد المرء سعادته في مكان
مهما صغر شأنه فهو أجمل القصور وأنخمها ، فنظر اليها نظرة
منكسرة كاد يقول لها فيها إنه ليس بسعيد ، وإنه أشقى انسان
على وجه الارض ، ثم استردها سريعاً ، فلم تشعر بها ، وظل صامتاً ،
فذهبت معه في الحديث مذاهب أخرى حتى مضت قطعة من
الليل فهضت من مكانها ، ونهض بنهوضها ، وتمشياً قليلاً في أنحاء
الحديقة حتى مرا بسلم الطبقة العليا فقالت له : هل تأذن لي
يا استيفن أن أضعدي هذه الطبقة لاراها ، وهل تفضل بالصعود
معي اليها ، فاضطرب قليلاً ثم قال لها : لك ماشئت ياسيديتي ،

وصعد معها في ذلك السلم الذي لم تطأه قدمه منذ خمس سنين حتى بلغا أعلاه ، فشى إلى الغرفة الأولى وفتح بابها وقال لها : ها هي الغرفة التي كنت أعددتها جلوسى ودراسى ولا حاجة لى بها الآن فقد اتخذت من بين غرف الحديقة بدلا منها ، ثم تركها وفتح باب الغرفة الثانية وقال : وها هي الغرفة التي كنت أعددتها لمقام أليك رحمة الله عليه أيام كنت أظن أنه سيساكننى في هذا المنزل ويعيش معى فيه ، فرأت فراشا جميلا وأثاثا حسنا وأصص زهر وريحان قد يبست وجف ورقها وتناثر في أنحاء الغرفة ، فشعرت بانقباض في نفسها لذكرى أبيها ، واغرورقت عينها بالدموع ، ثم انتقل إلى الغرفة الثالثة ومد يده إلى مفتاحها ثم استردها وقال بصوت خافت متهدج : عفواً يا ماجدولين فأننى لا أستطيع أن أفتح هذه الغرفة لأنها الغرفة التي كانت معدة لأخى أوجين ، وقد آليت على نفسى أن لا أفتح بابها ما حييت ، فأثرت في نفسها منظره ، وأكبرت حزنه وألمه ، وقالت له أحزين أنت حتى اليوم على أوجين يا ستيفن ؟ قال نعم حزناً لا يفارقنى حتى الموت ، ثم مشى الى الغرفة الأخيرة ومد يده الى مفتاحها بهدوء وسكون ففتحها ثم انحرف عنها قليلا وأطرق برأسه ولم يقل شيئاً ، فألقت عليها ماجدولين نظرة ألتمت بجميع ما فيها ، فرأت غرفة جميلة رحبة قد دُهنّت جدرانها باللون الأزرق ،

وَبُسْطٍ فِي أَرْضِهَا بَسَاطُ أَزْرَقٍ ، وَأُقِيمَ فِي أَحَدِ أَرْكَانِهَا سَرِيرٌ مِنْ
النَّحَاسِ الْأَبْيَضِ مَغْطًى بِمَلَاءَةِ حَرِيرِيَّةٍ زُرْقَاءَ ، وَرَأَتْ مِنْضِدَةً جَمِيلَةً
قَدْ صَفَفَتْ عَلَيْهَا أَدَوَاتُ زِينَةِ النِّسَاءِ ، وَخَزَانَةٌ لِلْمَلَابِسِ ، وَمِرَاةٌ
كَبِيرَةٌ وَكَرْسِيٌّ طَوِيلٌ ذَا مَقْعَدَيْنِ ، وَبِضْعَةٌ مَقَاعِدُ أُخْرَى كُلُّهَا
أَزْرَقُ اللَّوْنِ ، وَقَدْ عُلَّتْهَا جَمِيعُهَا طَبَقَةٌ رَقِيقَةٌ مِنَ الْغُبَارِ ، فَعَلِمَتْ أَنَّهَا
أَمَامَ الْغُرْفَةِ الزَّرْقَاءِ الَّتِي حَدَّثَهَا عَنْهَا فِي بَعْضِ رِسَائِلِهِ الْمَاضِيَةِ وَقَالَ لَهَا
إِنَّهُ قَدْ أَعَدَّهَا تَخْدَعًا لِنَوْمِهَا ، وَإِنَّهُ انَّمَا اخْتَارَ لَهَا هَذَا اللَّوْنَ لِأَنَّهُ لَوْنُ
الْبِنْفَسِجِ الَّذِي تَحِبُّهُ ، فَثَارَتْ فِي نَفْسِهَا تِلْكَ الذِّكْرَى الْقَدِيمَةُ ،
وَمَشَتْ مَا بَيْنَ قَعِّ رَأْسِهَا وَأَخْصَ قَدَمِهَا رَعْدَةً شَدِيدَةً كَادَتْ تَتَزَايَلُ
لَهَا أَعْضَاؤُهَا ، وَاشْتَدَّ خَفَوقُ قَلْبِهَا وَاضْطِرَابُهُ ، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيْهِ فَإِذَا
هُوَ مَطْرُقٌ صَامِتٌ ، وَإِذَا دُمُوعُهُ تَتَحَدَّرُ عَلَى خَدَيْهِ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ،
فَهَا لَهَا مَنْظَرُهُ ، وَازْدَحَمَتِ الدَّمُوعُ فِي عَيْنَيْهَا تَتَبَادَرُ إِلَى السَّقُوطِ ،
فَأَخَذَتْ يَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهَا وَقَالَتْ لَهُ مَا بَكَ يَا اسْتَيْفَن ؟ وَكَأَنَّمَا قَدْ
رَاعَهُ أَنْ يَفْضَحَ الدَّمْعُ سِرَّهُ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُهُ مِنْذُ عَهْدِ طَوِيلٍ فَاجْتَذَبَ
يَدَهُ مِنْ يَدَيْهَا بِرَفْقٍ وَقَالَ لَهَا : لَقَدْ هَاجَنِي ذِكْرُ أَخِي أَوْجِينَ ،
وَأَشَارَ إِلَيْهَا بِالْزُّوْلِ ، فَزَلَا ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانِهِمَا الْأَوَّلِ مِنَ الْحَدِيقَةِ ،
فَقَالَتْ لَهُ : رَفَعَهُ عَلَيْكَ قَلِيلًا يَا صَدِيقِي فَلَيْسَ فِيمَا قَضَى اللَّهُ حِيلَةَ ، وَلَا
لِفَائِتِ مُرَدٍّ ، وَلَقَدْ مَاتَ أَخُوكَ مَيِّتَةً كَرِيمَةً لَمْ يَتِمَّهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ ، فَلْيَكُنْ

صبرك عليه كريماً كميته ، فرفع رأسه اليها وقال لها اننى أستطيع
أن أنسى كل عهد من عهود حياتى الماضية ولا أستطيع أن أنسى
تلك الأيام التى أحببته فيها وأحببني ، وأخلصت له فيها وأخلص لي ،
ولقد جمعت بيني وبينه المصائب مذ كنا طفلين صغيرين ، وألفت
ما بين قلوبنا الكسيرين حتى أصبحا قلباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ،
ويتألم بألم واحد ، ولا تزال حاضرة أمام عيني حتى الساعة تلك
الأيام التى قضيناها معاً فى مدرسة جونتج بعيدتين عن أبونا
ورحمتهما وعطفهما ، لأن أماناً كانت قد ذهبت الى قبرها ، وأبانا
كان يقسو علينا ولا يحفل بنا ، وقد بؤس عيشنا بؤساً يعي
به الصغير ، ويطير له لب الكبير ، وبلغنا فى الشقاء المبالغ التى
لا يبلغها الا اليتامى المنقطعون عن الاهل والرحم ، أو أبناء
السبيل المشردون فى آفاق البسلاد ، وكنا نرتدى أرث الثياب ،
ونأكل أتفه الطعام ، ولا نحتذى إلا الأحذية المرقعة ، ولا نلبس
إلا القلائس المحرقة ، ولا نجد مانستعين به على اصلاح شأن
ملابسنا وأجسامنا ، فكنا نلاقى بسبب ذلك من معامينا أشد
العقاب وأقساه ، فنحتمل الألم بصبر وجلد ، ولا نستطيع أن نعتذر
اليهم عذراً سديداً نقيم به وجهنا ، لأننا ان فعلنا فقد عققنا أبانا
وتركنا للالسة سبيلاً اليه ، وهذا ما لا نحب ان يكون ، وكان

طلبة المدرسة في شأننا قسمين ، هازيء لا يزال يسخر بنا، وراحم لا يزال يتوجع لنا ، ودمعة الراحم كابتسامة الساحر ، كلاهما يؤلم النفس ويملؤها غصّة وأسى ، فكنا نضيق بالحالين ، وتألّم في الموقفين ، وكثيراً ما كان يأمرنا معلمونا كلما زارهم زائر كريم بالانزواء في الركن المظلم من أركان قاعة الدرس حتى لا ينجسوا بنا أمامه فإذا انصرف عدنا الى مقاعدنا كما كنا ، فكنا نجد في نفوسنا من المضض والألم ما لا يعلم سبيله الا الله ، وكان الطلبة يخرجون جميعاً في أيام الآحاد مع المعلمين للتنزه في الأحراش والغابات أو على ضفة النهر أو في سفح الجبل في أزياء جميلة ، وشارات حسنة ، ماعدانا ، فقد كان معلمنا يتطلب علينا العمل في ذلك اليوم حتى يأمر بسجننا في بيت الدجاج تبرما بنا ، واستثقالا لزيننا وهيئتنا ، فإذا خلا بنا المكان اختلف شأننا اختلافاً عظيماً ، فأظل أبكى وأتعب ، ويظل أوجين يلعب ويمرح ، لانه كان على صغر سنه أوسع مني صدرأ ، وأكثر احتمالاً ، وكان لا يعرف سبيلاً لتعزيتي وتسرية هموم نفسي غير هذا السبيل ، فلا يزال يغنى ويصيح ، ويقلد أصوات الحيوان ، ويطارد الدجاج والاوز ويفتن في مجونه ولهوه ، حتى تهدأ نفسي ، ويحف مدمعي ، ولا أرى لى بدءاً من المضى معه في شأنه ، وكنت أرحمه وأحنو عليه حنو الأم على

رضيعها ، فلا أستطيع أن أراه باكياً أو شاكياً أو مستوحشاً
أو متألماً ، وكان يخيل إلى أننى لو رأيت دمعة واحدة تجرى على
خده لقتلت نفسى حزناً وكدأً ، وكثيراً ما كنت أتناوض ساعة
الغداء أو أظهار بالشبع إن رأيتُ الطعام قليلاً بين أيدينا حتى
يستطيع أن يأخذ حظه منه ، فلا أرى على وجهه صفرة الجوع ،
وطالما ضمنتُ فى الليالى الباردة غطائى الى غطاءه وأسبلته عليه
من حيث لا يشعر رحمة به وحنواً عليه ، حتى إذا أصبح الصباح
ورأى نائماً بجانبه بغير غطاء ضمنى الى صدره وقبلنى ، وقال إنك
تقتل نفسك يا ستيفن من أجلى

ولم يزل هذا شأننا حتى وفد علينا إدوار وكان منكوباً بمثل
نكبتنا فتقاسمنا نحن الثلاثة هذا الشقاء وتعاونوا عليه برهة من
الزمان حتى فرقت بيننا الأيام

وهنا اختنق صوته بالبكاء فلم يستطع المضى فى حديثه وأطرق
إطرافاً طويلاً ثم رفع رأسه فاذا عيناه حمراوان من البكاء فألقى على
ماجدولين نظرة طويلة دامعة وقال لها : أتدرين يا ماجدولين ماذا
صنعتُ بهذا الاخ الذى كنت أحبه أكثر من كل إنسان فى العالم
وكان يحبنى أكثر مما أحبه ؟ قالت لا اعلم انك صنعت به شيئاً ،
قال إننى قد قتلته ، فذعرت ماجدولين واصفر وجهها وقالت إننى
(٣١ — ماجدولين)

لأفهم ما تقول ، قال قد كتبَ إلى من ميدان القتال أن سرجه
بال ممزق يوشك أن يخذله في الميدان وأنه في حاجة إلى عشرين
فرنكا ليلتاع بها سرجاً جديداً وكنت قادراً عليها فضننت بها
عليه فانقطع به سرجه اثناء المعركة فداسته حوافر الخيل فأت ،
فاستعبرت ماجدولين باكية وقالت وأأسفاه عليه وعلى شبابه الغض
وغصنه الباسق النضير ، فخدق استيفن في وجهها تحديقاً شديداً وقال
لها وهل تدرين لم صننتُ عليه بهذا المال الذي سألتني ؟ قالت لا ،
قال لأنني كنت لأملك سواه ، وكنت بين أن أرسله إليه ليلتاع
به السرج الذي يريده ، أو أنفقه في السفر إلى كوبلانس لأراك ،
فأثرت رؤيتك على حياتي ، فنكست ماجدولين رأسها ، واحمر
وجهها حياءً وخجلاً ، وظل جسمها يرتعد ارتعاداً شديداً ، ثم عاد إلى
حديثه يقول : وهل تعلمين ماذا تم لي بعد أن سافرت إليك هذه
السفرة ؟ فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً ، فقال ذهبت
إليك في ملعب الأوبرا فلم أجذك ، فانتظرتك طويلاً فلم تأت ،
فقلقت عليك قلقاً عظيماً ، وذهبت إلى بيت سوزان لأقف على
أمرك ، فرايت هناك وليلة حافلة فسألت عنها فعلمت أنه عرس
صديقتك ، فأيتُ أن أذهب دون أن أراك ولو على البعد لحظة
واحدة ثم أنصرفُ أشأني ، وكان لا بد لي من أن أحتال لذلك احتيالا ،

فاختلطت بالخدم كأننى واحد منهم وكانت ثيابي أشبه بثيابهم حتى
تمكنت من الدخول الى فناء القصر ووصلت إلى باب قاعة الرقص
فنظرت من زجاجها فرأيتك ترقصين مع ادوار تلك الرقصة التي
كنت تفتحين بها حياتك الجديدة معه، وبينما أنا كذلك اذدفع الباب
دفعاً شديداً وخرج منه أحد الزائرين فأمرني أمراً لم أحسن القيام به
فصرخى على وجهى سو طاً لا يزال أثره باقياً على خدى حتى الساعة
وهنا وضع يده على خده كأنما قد وقع السوط عليه في هذه
اللحظة وانفجر باكياً بصوت عال وتركها مكانها ومشى في الطريق
الموصل الى مخدعه ، فلحقت به عند باب المخدع وتشبثت برداءه
ومدت يدها اليه ضارعة وقالت له : ألا تستطيع أن تعفو عني
يا استيفن ؟ فحذب رداءه منها ، وألقى عليها نظرة شزرءاءة ، وقال
لها اذهبي أيتها السيدة الى مخدع زوجك فانه مريض وربما كان
في حاجة اليك ، ثم دخل مخدعه وأقفل بابه ، فلبثت في موقفها ساعة
باهتة مذهولة ثم انصرفت الى مخدع زوجها

في هذه اللحظة علمت أنه لا يزال يحبها ، ويستهم بها ، وأنها
تحبه حباً يستعبد لها ، ويملك عليها كل عاطفة من عواطف قلبها ، وأن
قد حيل بينها وبينه الى الأبد ، فقضت في مضجعها ليلة ليلاء ما يكاد
يغرب لها نجم ، ولا يطلع لها فجر ، وما كان ليله بأقصر من ليلها

من ماجدولين الى سوزان

لم يبق لي بد من أن أعترف لك بكل شيء
قد أصبحت أحب استيفن حباً لم أضمر له مثله فيما مضى من
أيام حياتي ، لانه حب بلا أمل ولا رجاء
لا بل أعتقد أنني ماسلوته يوماً من الايام ولا نسيته ، وأنني
كنت أخدع نفسي وأكذبها حينما ظننت انني استطيع ان احيا
بدونه ، أو أسكن إلى عشرة انسان سواه

إنه لا يزال يحبني ويستهم بي ، ولا يزال يذكر ذلك الماضي
كأنه لا يزال حاضراً بين يديه ، وقد كنت أجهل ذلك منه ، ولا
أرى له أثراً في وجهه ، حتى جلست اليه منذ ليال مجلساً منفرداً
فجرى بيني وبينه حديث ثارت فيه عواطف نفسه ثورة شديدة
فبكى وتألّم ، وغضب واحتدم ، فعلمت انه لم ينس شيئاً ، وأنه انما كان
يكتنئى لواعج نفسه وآلامها ، ويطوى اخفاء ضلوعه على مهجة
تتحرق لوعة وأسى ، فرثيت له وبكيت لبكائه ، وأكبرت فيه تلك
العاطفة الشريفة عاطفة الولاء والاخلاص لامرأة قد غدرت به
أقبح غدر ، وخانته أقطع خيانة ، وملاّت عليه فضاء حياته بؤساً وشقاء
انه لم يفكر في الزواج حتى الساعة ، ولم يفتح باب الطبقة

العليا من منزله التي كان أعدها لسكنانا إلا مرة واحدة منذ ليال ،
وكان ذلك من أجلى ، ولا تزال غرفة العرس باقية على عهدهما كما
هى ، ولقد رأيتها فرأيت الغبار منتشرأ فوق سريرها ومقاعد
وأستارها ، فشعرت عند النظر إليها بما يشعر به المائل أمام جدث
بال قد ضم حبيبأ إليه ، وطواه بين ترابه وأحجاره

لقد خسرتُ ياسوزان كل شئ ، ولم يبق فى يدى من جميع
أمانى وآمالى أمل واحد ، فقد ضاعت الثروة التي بعثتُ سعادتى
بها ، وتنغص على الزواج التي وضعت فيه جميع آمالى ، وخرج
من يدى ذلك الرجل الذي أحببته أكثر من كل انسان فى العالم
والذى لا أستطيع أن أحب انسانأ سواه ، ولا أعلم ماذا بقى لى
فى ضمير الدهر بعد ذلك من مخاوف وأهوال

إننى أشعر بخوف شديد ترتعد له مفاصلى ، وأظن أن ساعة
العقاب قد دنت ، ولقد أذنبتُ ذنبأ عظيما ، فلا بد أن يكون
عقابي عظيما

من ماجدولين الى سوزان

قد حلت النكبة الكبرى ، فقد تركنى إدوار وسافر إلى
جهة لا أعرفها سوى ما يقول بعض الناس من أنه ركب البحر
من هامبورج إلى أميركا ، ولا أعلم أصدقا ما يقولون أم كذبا
وكان استيقن أحسن الله اليه قد أصلح له بعض شأنه بعد نزول
تلك النكبة به ، وبذل له من المعونة مالا يبذله أخ لأخيه ، ولا جيم
لحميمه ، ولكنه لم يثُل من عثرته هذه حتى عاد إلى سيرته الاولى
واندفع في المقامرة اندفاع الجنون ، فهاهى إلا أيام قلائل حتى استدان
نيفاً ومائتي ألف فرنك ، ولم يبق له بد من السقوط ، فبعت جميع
جواهرى وحلاى على أستنقذه من سقطته فلم أصنع شيئاً ، ثم
استيقظت صباح يوم من الايام فذهبت الى مخدعه فلم أجده ،
فسألت عنه الخدم فأخبرنى أحدهم أنه لحه خارجا فى الغلس من
باب القصر ويده حقيبة سفره ، ولا يعلم أين ذهب ، ثم علمت بعد
ذلك أنه باع القصر الى أكبر غرمائه وأخذ بقية ثمنه وهرب
وترك سائر الغرماء وشأنهم دون أن يوفيهم ديونهم ، فعرفت أنه
وقد فعل هذه الفعلة التى لا يقدم عليها رجل شريف غير عائد
من بعدها أبداً ، ولم أر بداً من أن أقوم عنه بوفاء بقية

ديونه ضناً بكرامته وابقاء على شرفه فبعت في سبيل ذلك البيت
الذى ورثته عن أبي في ولفاخ والمزرعة التى بجانبه ، وقد سألت
عنه في كل مكان ، وسافرت للتفتيش عنه في كل جهة أعلم ان له
شأناً فيه أو صلة بها ، فلم أقف له على أثر ، ولا يعلم إلا الله كم ذرفت
من الدموع وكبدت من الآلام مذحلت تلك النكبة بي حتى اليوم ،
ولقد أرسل الى بالامس مالك القصر الجديد يُنذرنى بمغادرته بعد
شهر واحد ، ويلح فى ذلك إلحاحاً شديداً ، ولا أدري ماذا أصنع ولا
أين أذهب ، فليس لى قريب آوى اليه ، ولا حميم أرجو معونته ،
ولا أملك ما أستعين به على قضاء ما قدر لى أن أقضيه فى هذا
العالم من أيام حياتى ، وقد انقطع استيفن عن زيارة كوبلانس
فأصبحت لأراه ، ولا أسمع به ، ولا أعلم سبب انقطاعه ، ولقد
حدثتنى نفسى كثيراً بالانتحار فخال بينى وبين ذلك اننى إن قتلت
نفسى قتلت معى هذا الجنين المسكين الذى لا ذنب له ، وكثيراً
على الام أن تمد يدها لقتل ولدها ، فتعالى الى ياسوزان أو ائذنى
لى ان آتى اليك ، لابل لا بد من مجيئك الى ، لأننى لا أستطيع أن
أحتمل مشقة هذا السفر البعيد وأنا فى الشهر الاخير من حملى
إنى أنتظر كتاباً منك بعد أيام قلائل ، فلم يبق لى فى العالم
من اعتمد عليه أو أرجو مودته سواك

٨٨

من ماجدولين الى سوزان

كنت أنتظر أن يأتيني منك كتاب بالأمس فلم يأتني ،
فليت شعري ماذا حدث ؟ أمريضة أنت ؟ أم شغلك غي شأن
عظيم لا يسمح لك بمراسلتي ؟ اكتبني إلى على كل حال فقد بلغت
في الشدة منهاها ، وانقطع غي الناس جميعاً ، فلا أرى أحداً من
صواحي ولا من أصدقاء زوجي

الحياة مظلمة في عيني ، ولقد بكيت كثيراً حتى جفت مدامعي ،
وفكرة الانتحار تعاودني اليوم أكثر من ذي قبل ، فانظري في أمري
ياسوزان ، واكتبني إلى أنك قادمة أو ائذني لي بالسفر اليك ، فإن
لم يأتني منك كتاب غداً فلا أعلم ماذا يكون شأني بعد غد

٨٩

من فردريك الى ماجدولين

أكتب اليك كتابي هذا وسوزان في أشد حالات مرضها ،
وقد أمرني الطبيب أن أجنبها كل ما يؤثر في نفسها من سرور
أو حزن ، وقد جنبتها كل شيء حتى الاطلاع على الرسائل التي ترد
عليها من صواحيها ، وقد سهوت بالأمس ففضضت كتابك الأخير
الذي أرسلته اليها عفواً فألمت بطرف من الشدة التي تكابدينها

فأسفت لذلك كثيراً ، وهممت أن أطلعها على الرسالة أو أكتب اليك على غير علم منها بالحضور اليها ، ولكنني أشقت عليها أن يقتلها الحزن لمصائبك ، أو الفرح برويتك ، فرجائي اليك أن تنتظري بحضورك بضعة أسابيع حتى أحتال للامر أو تهدأ عن سوزان علتها ، والسلام عليك من صديقك الذي يرثي لك ، ويتألم لألمك

٩٠

الجزء

قرأت ماجدولين ذلك الكتاب فرابها أمره ، ووقع في نفسها أن سوزان ليست بمريضة ولا عاجزة عن قراءة رسائلها كما يقول زوجها ، وأنها إنما تريد مدافعتها والتخلص منها ، فهاها الامر وتعاظمتها وظلت ساعة بين الشك واليقين حتى دخلت عليها فتاة من صواحبها وصواحب سوزان كانت تختلف اليها من حين إلى حين فسألته ماجدولين متى كان آخر عهدتها برسائل سوزان؟ فقالت قد جاءني منها كتاب بالامس تهنئي فيه بعيد ميلادي وتترح على أن أسافر اليها لأقضي عندها في « برلين » فصل الربيع فكتبت اليها أشكرها تهنئتها ، وأستعفيها من السفر ، فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً حتى انصرفت الفتاة فقالت

(٣٢ — ماجدولين)

بينها وبين نفسها : لا عتب عليها في ما فعلت ، إنما هي الإرادة الإلهية
تأبى إلا أن تجازيني غدرًا بغدر ، وكفرانًا بكفران

٩١

الدموع الأخيرة

استيقظ سكان قرية ولفاخ في صباح أحد الأيام فاذا بهم
تروى تلك الفتاة التي فارقهم بالأمس وهي أنصر الفتيات وجهًا ،
وأسمدهن حالًا ، قد عادت إليهم صفراء متضعضة شاحبة اللون ،
بالية الثوب ، تمشي مشية الذليل المهين ، وتقتلع قدميها في مسيرها
اقتلاعًا ، فعجبوا لامرها ورثوا لها ، ولم تزل سائرة في طريقها حتى
مرت أمام ذلك البيت الذي قضت فيه أيام طفولتها وصباها ،
وسعدت فيه بالحلب الشريف الطاهر أياما طوالا حتى فارقت
ففارقتها هناء الحياة ورغدها ، خفق قلبها خفقة الألم والحزن ، ووقفت
امامه ساعة تقلب نظرها في جنباته وانحائه ، فرأت السكون مخيمًا ،
والوحشة سائدة ، فعلمت انه لا يزال مهجورًا ، وكان باب الحديقة
مفتوحًا فدخلتها نفسها بدخولها فدخلتها ، وخطت فيها بضع
خطوات ، فلمحت البستاني وزوجته جالسين إلى أصل شجرة من
الأشجار العظام يطبخان طعامهما ، فشت إليهما حتى صارت على كعب
منهما ، فأنكرها إذ رأياها ، ثم عرفاها ، فالتفتضتا من مكانهما اتفاضا ،

ومشيا اليها خفيهاها ، ونظر الرجل اليها نظرة واجمة مكتئبة وقال لها : ما الذى طرأ عليك ياسيدتى ؟ فأفضت اليه بمجمل قصتها ، ثم قالت له أريد أن أستأجر الغرفة العليا من المنزل لأقضى فيها شهراً أو شهرين ، وربما لأحتاج اليها أكثر من ذلك ، فاستأذن لى صاحب البيت فى أمرها ، فاستعبر الرجل باكياً وظل يعجب لتقلبات الأيام ، وتبدل صورها وألوانها ، ويندب ذلك الزمن الذى قضاه سعيداً فى خدمتها وخدمة أيبها ، وما هى إلا ساعة حتى أعد لها الغرفة التى ارادتها ، فصعدت اليها فوجدتها باقية على عهدتها أيام كان استيفن يسكنها ، وذكرت ذلك اليوم الذى صعدت فيه اليها بعد سفره وأصلحت من شأنها وبللت تربتها بدموعها حزناً على فراقه ، وظلت تقول فى نفسها : قد كنت أبكى قبل اليوم فراقه ، أما اليوم فقد أصبح ذلك الفراق قطيعة دأمة لا واصل لها ، فن لى بدموع تعيننى عليها ، وخلت بنفسها تتذكر أيامها وعهودها ، وتناجى همومها وأشجانها ، وتذرف آخر ما لى لها الدهر فى أجفانها من دموع ، ومن هو أولى بالبكاء والهم منها وقد ضربها الدهر بجميع ضرباته ، وتذكر لها كل وجه من وجوه الحياة ، فهجرها زوجها ، وخانتها صديقتها ، وتقم عليها الرجل الذى تحبه ، وفقدت الثروة التى بذلت فى سبيلها سعادتها ، وأصبحت لا تستطيع ان تطلب الراحة من

طريق الموت، لأنها لا تستطيع أن تقتل ولدها، ولا أن تجدها في الحياة، لأنها لا تملك ما تستعين به على عيشها، وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فلم يحضرها غير زوجة البستاني وعجوز من جاراتها القديمات فولدت طفلة جميلة لم تبسم عند رؤيتها إلا لحظة واحدة، ثم أخذت تبكيها بكاءً ثائلاً وحيداً ساعة موته، وما كادت تنهض من نفاسها حتى جاءها الخبر بأن إدوار قد انتحر شتقاً في فندق من فنادق « شيكاغو » كان ينزل فيه منذ سافر إلى أميركا على أثر ليلة قضاها في المقامرة وخسر فيها جميع ما كان بيده من المال، فسقطت عند سماع الخبر مغمياً عليها وهي تقول « واَيْتَمَ ولداه »

ثم استفاقت بعد حين فاذا هي تمثال صامت جامد، لا تنطق ولا تبكي، ولا تشكو ولا تتألم، ولا تضم طفلتها إلى صدرها إلا إذا أزعجها بكأؤها، ولا تطلب الطعام في غداة ولا عشي، ولا تتناول منه حين يقدم إليها إلا المضغعة أو المضغتين، ترفع يدها عنه، وتمر بها الساعات الطوال وهي ذاهبة ببصرها في السماء لا يعلم إلا الله أين تذهب، ولا أين تتغلغل نفسها في ظلمات هذا الوجود، فاذا ثابت إليها نفسها سألت البستاني هل أتاها كتاب، أو سأل عنها أحد، فيجيبها أن لا، فتعود إلى صمتها وذوولها

أصبح استيفن بعد انتفاض جرح قلبه عليه في تلك الليلة التي
 حدث فيها ماجدولين نائراً محتاجاً ، لا يهدأ ولا يستريح ، ولا يسكن
 إلى نوم ولا يقظة ، ولا يهنأ باجتماع ولا خلوة ، فبدا له أن يسافر
 إلى بعض مقاطعات الشمال ليروح عن نفسها همومها وآلامها ،
 فسافر سفرة طويلة زار فيها كثيراً من المدن واجتمع بكثير من
 علماء الموسيقى والمغنين وكتاب الروايات الغنائية الذين سمعوا
 به ولم يروه ، فاحتفلوا به احتفالاً عظيماً ، وأجلوا مودته وعشرته ،
 ونظم في تلك السفرة بعض القطع الشعرية الجميلة ولحنها ، ولحن
 كثيراً من أغاني الروايات التمثيلية التي لا تزال خالدة حتى اليوم ،
 فازداد صيته انتشاراً ، وبلغ من العظمة أوجها الأعلى ، وأجمع الذين
 سمعوا غنائه أو توقعه أن سماء ألمانيا لم تطلع فيها منذ مات
 « يتهوفن » شمس مثل شمس ، ولا أشرق فيها نجم أسطع من نجمه ،
 وظل في سياحته هذه بضعة أشهر حتى ورد إليه في أحد الأيام
 كتاب من أحد أصدقائه في كوبلانس يخبره فيه خبر إدوار
 ويقص عليه قصة سفره وانتحاره فحزن عليه وعلى مصيره
 حزناً شديداً ، وبكاه بكاء الوفي الكريم الذي لا يأنى أن ينسى في
 موقف الموت كل شأن من شؤون الحياة ، ولم يذكر له في تلك

الساعة من ماضيه إلا شيئاً واحداً فقط ، وهو أنه كانه صديقه
ورفيق طفولته وصباه ، وأنيس وحدته في أيام بؤسه وشقائه ، لا يزيد
على ذلك شيئاً ، ورأى أن لا بد له من العودة ليرى ما حل بما جدولين
بعد نزول تلك النكبة بها ، وليمدَّ إليها يدَ معونته في بأسائها التي
صارت إليها ، فسافر إلى كوبلانس فقضى فيها ليلة ، ثم ذهب إلى
جوتنج وظل يتسقط أخبارها حتى عرف عنها كل شيء ، وعلم أنها
تعيش مع طفلتها عيش البؤس والشقاء في الغرفة العليا التي كان
يسكنها من بيتها الأول ، فنسى في تلك الساعة مؤجده عليها ،
واستحال غضبه ونقمته إلى رحمة وشفقة ، فركب عجلته في الصباح
وسافر إلى ولفاخ حتى بلغها ضحوة النهار ، فأخذ طريقه إلى بيت
الشيخ مولر حتى بلغه ، فسأل البستاني عنها فقص عليه مجمل قصتها ،
ووصف له حياتها الغريبة التي تحياها منذ عادت إلى القرية ، وذكر له
صمتها وسكونها ، وذهولها واستغراقها ، واستبداد ألهمها استبداداً
يكاد يقتلها ، ويأتى على حياتها ، فقال له استأذن لى عليها فاني أحب
أن أراها ، قال إنها تقضى أكثر أوقاتها جالسة على ذلك المقعد
الذي كنتم تجلسان عليه معا في أيامكم الماضية ، وقد تركتها الساعة
هناك فاذهب إليها إذا شئت ، فمشى إليها حتى رآها جالسة على الهيئة
التي وصفها الرجل ، فلم تشعر به حتى صار أمامها ، فانتفضت اذ رآته

انتفاضة تزايلت لها أعضاؤها وتساقطت فيها نفسها ، فلم تستطع
 النهوض من مكانها ، وأرتج عليها فلم تنطق بحرف واحد ، فجلس بجانبها
 وقلبه يذب حسرة وأسى ، وأخذ يعزيها عن نكبتها ، ويتوجع
 لما حل بها ، ويعظها بالصبر على مصابها ، فثابت إليها نفسها شيئاً
 فشيئاً ، ونظرت إليه نظرة منكسرة وقالت له : قد كنت أحتمل
 هذه النكبات كلها بصبر وجلد لو أنك عفوت عني يا استيفن
 فأطرق ملياً ثم رفع رأسه إليها وقال لها : أما العفو فاني لا أستطيعه
 لأنني لا أستطيع أن أنسى ، فاصفر وجهها اصفراراً شديداً ،
 وشعرت أن روحها تتسرب من بين جنبيها قطرة قطرة ، ونظرت
 إليه بعينين يترقق في إنسانيهما الدمع وقالت له : ألا يذكرك
 يا استيفن هذا المكان الذي نجلس فيه بشيء من ماضينا ؟ قال
 لا يذكركني إلا بشيء واحد ، وهو أنني شهدت فيه ذلك المشهد
 الذي فجعني في جميع أمانى وآمالى ، وقتل قلبي قتلة لم يحى من بعدها
 حتى اليوم ، قالت إنك تقسو على كثيراً يا استيفن ولو شئت
 لرحمتني وأشفقت على

فنظر إليها نظرة شديدة وقد تمثلت أمام عينيه جميع آلامه
 الماضية دفعة واحدة وقال لها : ذلك شأن المرأة في كل زمان وفي
 كل مكان ، تزعم أنها ضعيفة واهنة ، وأن الرجل قوى مقتدر ، فهي

تسأله عن كل شيء ، ولا تسأل نفسها عن شيء ، ألم تكونى قاسية على يوم تركتنى فى هذا المكان وحدى منذ خمسة أعوام أقاسى أعظم ما قاسى امرؤ فى حياته من الهموم والآلام ، وأخذت بيد خطيبك على مشهد منى ومرأى وذهبت به إلى غرفتك دون أن تلتفتى إلى التفاته واحدة ل ترى ما حل بى من بعدك وهل أنا باق على قيد الحياة أم ذهبت النكبة بما بقى من رمقى ؟ ألم تكونى قاسية على أيام أرسلت اليك تلك الرسائل التى ضرعت اليك فيها ضراعة لآتحمليها نفس من نفوس البشر فأغفلتها وأهملتيا ولم تعبئى بدموعى الغزار التى سكبتها فيها ، ولم تكتبى إلى إلا كلمة واحدة بعد حين قطعت بها آخر خيط كان فى يدى من خيوط الرجاء ؟

إننى لأزال أذكر حتى الساعة أنك سألتنى فى تلك الرسالة أن أتناسى ذلك الماضى ، وأن تحل الصداقة بيننا محل الحب ، فهأنذا قد جئت اليك باسم تلك الصداقة التى تواقنا عليها منذ ذلك العهد أتفقدك وأتعهد شأنك وأهبيء لك حياة هنيئة تحيينها مع طفلتك فى أى مكان تشائين آمنة غدرات الدهر ونكباته مامد الله فى أجلى ، فاستعبرت باكية ومدت يدها اليه ضارعة وقالت : أهذا كل ما بقى لى فى قلبك يا ستيفن ؟ فهاجت وجدده مدامعها ، وانبعثت من مكانها فى لحظة واحدة جميع عواطف قلبه المختلفة ، وظلت

تداول نفسه واحدة بعد أخرى ، فذكر حبه إياها ، وحاجته إليها ،
وأنه لا يستطيع أن يعيش سعيداً في الحياة بدونها ، ثم ذكر خيانتها
وغدرها ، وقسوتها عليه ، وزرايتها به وبألامه ودموعه ، فحث عاطفة
الغضب من نفسه عاطفة الحب ، ولكنه مالبت أن رأى دموعها
المنهمرة على خديها ، ومنظر بؤسها وشقاؤها ، وبديها الممدودتين
بالضراعة إليه ، حتى عاد إلى عطفه وإشفاقه ، وحدثه نفسه أن يأخذها
بين ذراعيه ، ويضمها إلى صدره ، ويقول لها قد نسيت كل شيء
ياما جدولين ، فتعالى إلى فاني لا أستطيع أن أعيش سعيداً في الحياة
بدونك ، ثم مرت بخاطره مرور البرق تلك الساعة التي وقف
فيها على باب غرفتها ليلة عرسها وسمعها تلقى بنفسها بين ذراعي
زوجها وتقبله وتستقبل قبلاته فثارت في نفسه عاطفة العزة والألفة
التي لم تفارقه في يوم واحد من أيام حياته وقال في نفسه : إنني
لا أمد يدي إلى فضلات الرجال ، ولا ألبس أكفان الموتى

وكذلك ظل يتقلب ساعة بين أيدي هذه العواطف المختلفة
وهو صامت مذهول ، وماجدولين ناظرة إلى شفتيه نظر المنهم إلى
شفتي قاضييه ، تنتظر تلك الكلمة التي تفصل في أمرها ، فترفعها إلى
سما السعادة التي لاسماء فوقها ، أو تهوى بها في مهواة الشقاء التي
لا قرار لها ، ثم مدت يدها إلى يده فأخذتها برفق وضمها إلى صدرها
(٣٣ — ماجدولين)

وأنشأت قبلها ، وتبلاها بدموعها ، فتناسى في تلك الساعة كل شيء
وحنا عليها وأهوى بقمه إلى فيها ، حتى إذا لم يبق بين تلامس
شفتيهما إلا ممر الهواء بينهما إذ سمعتها تقول له وهي ترتعد بين
يديه « أنت حياتي التي لأحياة لي بدونها » وهي بعينها الكلمة
التي سمعها منها منذ خمسة أعوام وهي تقولها لزوجها ليلة زفافها
في غرفة عرسها ، فارتنت في أذنه حتى وثب على قدميه وثبة الهاج
المختبل ، وانترع يده من يدها ، ودفعا عنه دفعا شديداً ، فسقطت
تحت المقعد ، وقال لها بصوت شديد قارع : لم يبق لك في قلبي
شيء أيتها السيدة منذ ذلك اليوم الذي وضع السكاهن فيه يده
على رأسك ورأس زوجك وبارككما ودقت على أثر ذلك أجراس
الكنيسة مؤذنة بانقضاء كل شيء

ثم تركها مكانها ومشى خافض الطرف ، مطأطأ الرأس ،
حتى وصل الى باب الحديقة فرأى البستاني واقفاً في مكانه فأخرج
من جيبه كتاباً مختوماً وقال له أعط هذا لماجدولين ، ثم ركب
عجلته وذهب في سبيله

فشى البستاني إليها فرأها ساقطة تحت المقعد تعالج سكرة
كسكرة الموت ، فزال بها حتى رجعت إليها نفسها ، فأعطاه الكتاب
فأخذته من يده صامتة ، وصعدت الى غرفتها ، وقد لبس وجهها

ذلك اللون الذى يَغشى وجوهَ المنذرين بالموت ، فقضت ليلتها ساهرة
بجانب مصباحها ، تكتب مرة ، وتذرف دموعها أخرى ، وتضم
طفلها الى صدرها فيما بين ذلك ، حتى انصدع عمود الصباح

٩٣

الكارثة

قال فرتر لزوجته والشمس تشرف على الدنيا من وراء خدرها ،
والكون يمسح عن عينيه سنة الكرى أما أنا فاني باق هنا لأننى
أريد أن أصطاد لاستيفن نوعاً من السمك قال لى صباح الأمس
إنه يجب أن يكون على مائدته اليوم ، فاذهبى أنت اليه ، وانتظريه
حتى يستيقظ ، ولا تأخذى معك من الأ ولاد غير طفلك الرضيع ،
وأغلب ظنى أنه لا يستيقظ من نومه إلا متأخراً ، فقد عاد أمس
من تلك السفرة التى سافر بها الى ولفاخ حزينا مكتئباً كثير الهم
والشجن ، فسألته عن شأنه فلم يخبرنى بشيء ، فجلست اليه أحدثه
أحاديث مختلفة رجوت ان أسرى بها عن نفسه ، فلم يصغ الى ، حتى
انتصف الليل ، فأذنى بالذهاب الى منزلى ، فتركته وهو يعالج النوم
فلا يجد سبيلا اليه . قالت مسكين هذا الرجل ، ما أحسب ان
أحد أشقى فى هذه الحياة شقاءه ، أو لاق فيها مالا قاه ، والناس يحسبونه
سعيداً مغتبطاً ، ويحسدونه على نعمته وهنائه ، قال نعم لقد فتك

ذلك الغرام القديم بنفسه فتكة لأحسب أنه بارىء منها أبد الدهر ،
فوارحمته له ، ووالأسف عليه ، اذهبي اليه يا جوزفين وانتظري يقظته ،
واحذري أن يزعجه بكاء طفلك ، وربما لحقت بك بعد قليل ، فذهبت
حاملةً طفلها على يدها حتى دنت من باب الحديقة فرت على مقربة
منها مرور البرق امرأة مقنعة في أخلاق رثة مشعثة ، تسرع في مشيتها
وتتعثر في ذيلها ، فعجبت لامرئها ولكنها لم تحفل بها ، ودخلت الحديقة
فراعاها ان رأت بين يديها في دهليز الباب سبطاً صغيراً كأن
فيه شيئاً يضطرب ، فدنت منه فرأت طفلاً رضيعاً ملففاً بثيابه
يتمتع ثدياً صناعية موضوعة بجانبه ، فذكرت تلك المرأة التي رأتها
منذ لحظة تسرع في مشيتها كأنها المذعورة ، وقالت في نفسها إنه
طفلاً مامن ذلك بد قد أثمت فيه وحاولت التخلص من عارده فألقته
هنا ، وهتفت بالبستاني وكان يعمل في ناحية أخرى من الحديقة
فلباها ، فسأله عن السبط ، فدهش اذ رآه وقال انه لم يره إلا الساعة ،
فلم تر أن تصنع شيئاً دون ان ترى رأي استيفن ، فذهبت الى مخدعه
وأشرفت عليه فرأته مستيقظاً في فراشه ، فدعاها حين رآها ، فدخلت
اليه وقالت له : قد كنت أظن أنك لا تستيقظ اليوم الا ضحوة
النهار قال إني لم أنم حتى الساعة ، فقصت عليه قصة السبط
وأخبرته خبر المرأة المقنعة التي رأتها ، ووصفت له حالتها في اضطرابها

و تخبّلها، فداخله ريب عظيم، ونفض غطاءه عنه نقضاً، وخرج مسرعاً في مبادله حتى بلغ مكان السفط فرآه ورأى الطفل في مضجعه منه، ورأى بجانبه هنة بيضاء فتأملها فاذا كتاب مختوم، فأخذه وقرأ في عنوانه «من ماجدولين الى استيفن» ففضه بسرعة وأمر نظره عليه إمراراً فلهج بين سطوره كلمة (الموت) فصرخ في وجه جوزفين: أين ذهبت تلك المرأة التي حدثتني عنها؟ قالت ذهبت في هذا الطريق، وأشارت الى طريق النهر، فصرخ صرخة عظيمة وقال إنها ماجدولين، وإنها قد ذهبت الى الموت، وألقى الكتاب من يده، وعدا عدواً شديداً حتى أشرف على النهر، فرأى خلقاً كثيراً مجتمعين على ضفته، وكلهم يشير الى الماء بأصبعه، فنظر حيث يشيرون فرأى الغريقة تضطرب في أيدي الأمواج، وتمديداتها ناحية الضفة كالمتغيثة، وكانت الزوبعة نائرة، والريح تعصف من كل جانب ورأى صديقه فرترت تحت زورقه اليها لا تقاها، فأخذ يهتف ويقول: ادركها يافرتز، أتقذها يا صديق، إنها ماجدولين، ثم نضا ثوبه عنه وهم بالقاء نفسه في الماء فأشفق عليه الناس أن يصيبه مكروه، فاعترضوا سبيله، فدفعهم عنه دفعا شديداً، واقتحم النهر وظل يسبح وراء الزورق، والموج يدنونه مرة، وينأى به أخرى حتى بلغه بعد لآي، فتشبث به، وكان الزورق قد دنا من مكان الغريقة

والغريقة تطفو وترسب ، ويتموجّ شعرها على سطح الماء مرة بعد أخرى

في هذه الساعة ، والقلوب خافقة ، والنفوس ذاهلة ، والناس يهتفون بالدعاء مرة ، ويصرخون صرخات الفزع أخرى ، ثارت موجة هائلة حول مكان الغريقة كالطود الشامخ ، ولبثت لحظة تبعج وتصطب ، فصاح الناس بصوت واحد رحمتك اللهم وإحسانك ، ثم انحسرت ، فاذا سطح الماء أملس منبسط ، وذا الغريقة لا عين ولا أثر

وما رأى استيفن هذا المنظر حتى جن جنونه ، وألقى بنفسه في الماء ، وغاص حيث غاصت ، فاندفع فرث ورائه ، وهبط مهبطة ، وما زالا يرسبان مرة ، ويطفوان أخرى ، ويصارعان في هبوطهما وصعودهما جبابرة الأمواج صراعاً شديداً ، ثم انفرج الماء عنهما ، فاذا هما صاعدان يحملان الغريقة فوق أيديهما ، ولا يعلمان أحيّة هي أم ميتة ، وما زالا يسبحان بها حتى بلغا الضفة فطرحاها ، وأكبّ الناس عليها يتسمعون ضربات قلبها ، ويتلمسون أنفاسها ، واستيفن واقف ناحية يشخص ببصره إليها ، وينتظر قضاء الله فيها ، ثم انتبه فاذا القوم جاثون من حولها ، وقد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وأخذوا يهمهمون بصلواتهم ، فعلم أن الأمر قد انقضى ، فسكن

للحادث سكوناً عميقاً لا تتخلله زفرة ولا أنة ، وجثا بجانب الجائنين
يصلي بصلاتهم ، ويدعو بدعائهم ، فأبكى منظره الناس جميعاً ، وهالهم
من سكونه وجوده فوق ما كان يهولهم من جزعه وبكائه ، ثم
أخذوا ينصرفون واحداً بعد آخر حتى إذا لم يبق منهم أحد نهض
استيقن من مكانه ومشى إلى الجثة فاحتملها على يده وسار بها إلى
المنزل وفرز يتبعه صامتاً فصعد بها إلى الطبقة العليا ودخل إلى تلك
الغرفة الزرقاء فأضعفها على ذلك السرير الذي كان بالامس سرير
عرسها ، فأصبح اليوم لحدها الأخير

وجثا على درجات السرير ^{جثي} العابد على درجات الهيكل ،
وظل على حاله تلك بضعة ساعات ، لا يطرף ولا يتحرك ، حتى حلت
ساعة الدفن ، فنهض من مكانه وأكب على الجثة وكشف الغطاء عن
وجهها ، وتناول من فيها تلك القبلة التي كانت ^{تحرمها} عليه الحياة ،
حتى أحلها له الموت ، ثم سقط مغشياً عليه

٩٤

من ماجدولين الى استيفن

ماذا أصنع بالمال من بعدك يا استيفن ، بل ماذا أصنع بالحياة
جميعها بعد ما فقدتك ، وانقطعت أسباب دنياي من أسباب دنياك

كنت أرجو أن أعيش لك وأن أقدم اليك في مستقبل
حياتك هناء أفضل من الهناء الذي كنت ترجوه في ماضيك ،
لا كفر بذلك عن سيئتي التي أسلفها اليك ، فحلت بيني وبين ذلك ،
لأنك كنت واجداً على ، وكنت ترى الأبد لك من الانتقام
لنفسك ، فقضيت بذلك على وعلى نفسك في آن واحد ، لاني
أعلم أنك تحبني ، وأنت لا تستطيع أن تهناً بالحياة من بعدى
كنت أشعر أن بين جنبي ثروة من الحب تملأ فضاء حياتك
هناء ورغداً ، وكنت أرى أن في استطاعتي أن أمنحك في كل ساعة
من ساعات حياتك من السعادة مالا تستطيع امرأة في العالم أن
تمنحه رجلاً في الكثير من الاعوام ، ولم أكن أرجو على ذلك
أجراً سوى أن أراك سعيداً بين يدي ، وأن أعيش بجانبك عيش
النبته الضعيفة بجانب الدوحة العظيمة ينوء عليها ظلها ، ويتفرق
عليها نسيمها

لَمْ تَعَفْ عَنِّي يَا اسْتَيْفَن ، ووالله ما أحبيت أحداً في الحياة
غيرك ، ولا سكنت نفسي إلى عشرة إنسان سواك ، ولم يستطع
الرجل الذي نقيمت مني زواجي منه ، وحاسبتني عليه حساباً شديداً ،
أن ينتقص ذرة واحدة من ذلك الحب الذي أضمرته لك في قلبي
مذ عرفتكَ ، فلو أنك أغضيت عن هفوتي ، وأذنت لحلمك

أن يسع جهلى ، لو جدت بين يديك فتاة عذراء بقلبها وعواطفها ،
لم تمسها يد ، ولا عبث بفؤادها عابث ، لا فرق بينها وبين تلك
الفتاة القروية الساذجة التى أحبتها فى ولفاخ حبا جما ، وعاهدتها
على المحبة والولاء

كانت الكأس مترعة بين أيدينا ، وكان منظرها جميلا رائقا
تأخذه العين ، ويهفو له القلب ، وكان جديراً بنا أن نتساقها قطرة
قطرة حتى نأتى على القطرة الأخيرة منها ، ثم نموت معاسميين
بنشوتها ، كما عشنا سعيدين بتساقفها ، ولكنك كنت شقياسي الحظ ،
فدفعتها عنك بقدمك دفعا شديداً فكسرتها ، وأرقت مافها ،
فأصبحنا لا نجد لذة الحياة إذا عشنا ، ولا نهنا بضجة الموت إذا متنا
لَمْ تَعَفْ عَنِّي يَا سَتِيفَن ، وقد عاقبنى الدهر بذنبك عقابا
أليما ، وأخذ لك منى فوق ما تستطيع أن تأخذ لنفسك بنفسك ،
فسلبنى الثروة التى فتنتنى عنك ، والزوج الذى مالأته على الغدر
بك ، والهناء الذى زعمت أنى أجده فى جوار غير جوارك ، وأحال
تلك الشرارة من الحب التى كانت تلمع فى قلبى فتضى ظلمته إلى
نار آكلة تحرقه ، وتضطرم فى أنحائه ، وتتغلغل فى أعماقه وأطوانه ،
ولم يترك فى موضعا واحداً يسع عقوبتك وانتقامك

أتدري يا ستيفن من هى تلك المرأة التى جلست إليها

بالأُمس تقرر عها وتؤنّبها ، وتعد عليها ذنوبها وآثامها ، وتتلذذ بمنظر
ذلها وضراعتها

إنها لم تكن إلا شبحاً من الأشباح الضئيلة المتهاففة ، قد ذهب
الدهر بجميع قواها ، وضعضع جميع حواسها ومشاعرها ، ولم يترك
لها من آثار الحياة إلا عينا تنظر ولا ترى ، وأذناً تسمع ولا تسمع ،
ونفساً ذاهلة عن كل شيء حتى عن نفسها ، وروحاً تسرب من بين
جنبها شيئاً فشيئاً ذاهبة في سبيلها

تلك هي المرأة التي قسوت عليها ، ولم ترحم يؤسها وضعفها ،
فددت إليها يدك القوية القادرة وطعننها وهي جريحة مثخنة تلك
الطعنة النجلاء التي نَفَذَتْ قلبها ، وقضت عليها القضاء الأخير
قد غفرت لك كل شيء يا استيفن ، لأنني أحبك ، ولأنني
أعلم أنك ما قسوت على هذه القسوة كلها إلا لأنك تحبني ،
فامنحني عفوك ومغفرتك ، وأنزلي من نفسك المنزلة التي كنت
أنزلها من قبل ، والتي أبذل اليوم حياتي في سبيلها ، فإن كنت لا بد
أخذاً الموتى بذنوبهم فلا تأخذ بذنبي تلك الطفلة اليتيمة المسكينة
التي لا سند لها ولا عضد ، فهي وإن كانت ابنة المرأة التي خانتك ،
فهي ابنة المرأة التي أحبتك ، وإنني أعيدها بكرمك وفضلك إن
تذوق طعم الشقاء على عهدك ، أو أن تحل بها كارثة من كوارث
الدهر بين سمعك وبصرك

أطعمها وتصدق عليها ، فلظالما أحسنت إلى أبويها من قبلها ،
 واجعل لها من صدرك الرحيم ملجأً تجدف فيه حنان الأم ، ورعاية الأب ،
 ولا تكلمها إلى نفسها تصارع أهوال الحياة وآلامها فتصرعها ،
 وتولّ بنفسك أمرها في الساعة التي تجتاز فيها تلك العقبة الكبرى
 من عقبات الحياة حتى لا تسقط سقطة تشقى بها أبد الدهر ،
 واذكر لها دائماً أن أمها كانت تحبها حباً جمّاً ، وأنها ما آثرت الموت
 على الحياة إلا لأنها عجزت عن أن تعيش بجانبها ، ولأنها كانت
 شقية مرزأة فأشفقت عليها أن يطيش إليها سهم من سهام شقاها
 الوداع يا ستيفن ، الوداع يا أحب الناس إلى ، اننى أفارق
 هذه الحياة وأنت آخر من أفكر فيه ، وكل ما آسف عليه ،
 فاذكرنى ولا تنسنى ، وتعهّد بالزيارة قبرى من حين إلى حين ، إن
 كان مقدراً لى أن يكون لى قبر على ظهر الأرض ، واحتفظ
 بالوديعة التى أودعتك إياها فهى تذكارى الدائم المقيم عندك ،
 وليهون عليك فقدى أن روحى قد امتزجت بروحك امتزاجاً
 لا يغيره فناء ولا بلى ، فلئن فرقت بيننا الاقدار فى هذه الدار
 فسنتقى فى الدار الاخرى لقاءً لا ينغصه علينا موت ولا فراق
 الوداع يا ستيفن ، وآخر كلمة أقولها لك فى آخر ساعة من
 ساعات حياتى « اننى أحبك ، واننى أموت من أجلك »

استطاع استيفن أن يستفيق من غشيته في أصيل اليوم الثاني ، ففتح عينيه ودار بهما حوله فرأى فرتز وزوجته وأولاده جلوساً تحت قدميه يبكونه ويتوجعون له ، فظل شاخصاً يبصره هنيهة ثم التفت الى فرتز وألقى عليه نظرة طويلة وقال له هل دفتنموها ؟ فأطرق فرتز واجماً وقال بصوت خافت : نعم ياسيدي منذ الأمس ، قال وأين طفلها ؟ قال قد كفلتها جوزفين وهي تتولى ارضاعها مع طفلها ، قال وأين ذلك الكتاب ؟ قال هاهوذا ياسيدي ، وأعطاه إياه ، فأمره بالانصراف إلى منزله ، فانصرف هو وأسرته ، فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يقرأ الكتاب ونفسه تطاير لوعة وأسى ، حتى فرغ منه ، فبكى ماشاء الله أن يفعل ، ثم أخذته كظامة شديدة فذهل عن نفسه وظل مستغرقاً في ذهوله بضع ساعات حتى انتصف الليل فثار من مكانه بغتة وكأنما طاف بعقله طائف من الجنون وخرج الى الحديقة فشى في انحاءها يتسمع فلم يشمر بحركة ورأى البستاني نائماً في غرفته ورأى فأسه على بابها فتناولها وفتح باب الحديقة بهدوء وخرج ، فلما استقبل الفضاء

أخذ سَمَتَهُ إلى المقبرة حتى بلغها ، وكان الجو مكفهراً ، والريح عاصفة ،
والسحب تحجب وجه القمر ولا تنحصر عنه إلا حيناً بعد حين ، ثم
لا تلبث أن تعود إلى تراكها وتكاثفها ، وكان يحيط بالمقبرة من
جهاها الثلاث سور متهدم كثير الشفرات والفجوات ، ويمتد مع
جهاها الرابعة نهرٌ جوتنج وقد قامت على ضفته أشجار عالية غيباء
تعصف الريح بفروعها وأوراقها عصفاً شديداً فيتألف من حفيفها
وخرير ماء النهر الجارى بجانبها صوتٌ غليظٌ أجش يملأ القلوب
روعة ورهبة ، فلم يزل استيفن سائراً في طريقه حتى لاح له
رءوس تلك الأشجار ، وسمع حفيف أوراقها ، وخرير المياه المتدفقة
من تحتها ، فخيل إليه أنها أشباح سوداء من الجن تتقدم نحوه في
جوف الليل راقصة مترنحة ، وتدمدم بأصواتها المخيفة المريعة ،
فشت في جسمه رعدة الخوف إلا أنها لم تمنعه من المضي في
وجهه ، فاستمر في سبيله حتى دخل المقبرة ، وكان القمر يظهر حيناً
فيرشده إلى الطريق ، ثم لا يلبث أن يتوارى في غمار السحب
فيقف عن المسير ، فإذا تراءى له رأى على ضوئه نواويس الموتى
وقد جفت فوق تربتها تلك الأشجار القصيرة التي أغفل غارسوها
أمرها بعد أن بلى في قلوبهم حزنهم على موتهم ، ولم يزل يتصفح
أوجه القبور حتى رأى بين يديه قبراً حديثاً لا تزال تربته مخضلة

فأكبَّ عليه يتصفح جوانبه فقرأ على أحدها على شعاع ضعيف
بعثه إليه القمر في تلك الساعة اسم ماجدولين ، فجثا على ركبتيه وهمهم
بصلاة قصيرة ، ثم نهض قائماً على قدميه وتناول الفأس التي أتى بها معه
وضرب بها الأرض ضربة شديدة ، فلم يسمع لضربته صوتاً لشدة
عصف الرياح وزيفها في تلك اللحظة ، ثم أخذ يحفر حتى ضرب ضربة
أخرى رنت رنيناً شديداً ملاً أرجاء المقبرة ، فاقشعر بدنه ، وبرد دمه
في عروقه ، وسقط على ركبتيه ، وسقطت الفأس من يده ، لأن
الضربة كانت قد أصابت التابوت الذي يحوى الجثة ، فخيل إليه أنها
أصابت جحمة الميتة ، وكان القمر قد برز من وراء غمامته في تلك
الساعة وأضاء المقبرة كلها ، فتمثل له أن القبور قد تفتحت جميعها ،
وأن الموتى قد أخرجوا رءوسهم منها ، وأخذوا ينظرون إليه بعيون
ملتهبة متوقدة ، فطار من رأسه ما بقى فيه من الصواب ، وترك الفأس
مكانها ، وركض ركضاً شديداً وهو يتخيل أن الموتى يتأثرون به ويركضون
وراءه ، حتى وصل إلى المنزل متطرحاً من الكلال ، وهو يصيح
« ما كفاني أن قتلتها حتى مثلت بها » وسمع البستاني صيحته فاستيقظ
وذهب إليه فرآه على تلك الحالة ، فقال له ما بك يا سيدي ؟ فهذا قليل عند
مارآه ، ونهض من مكانه وقال له اتبعني ، فتبعه الرجل صامتاً لا يعلم
أين يريد ، حتى بلغ المقبرة ، وكان القمر لا يزال مشرقاً في جنباتها فشى

الى ذلك القبر فانحنى عليه ، فرأى أثر الفأس فى التابوت ولم ير شيئاً مما كان تخيله ، فسكن وهدأ ، وعلم أنه إنما كان فى ثورة من ثورات الجنون ، فأمر الرجل أن يعيد التراب الى ما كان عليه فأعاده ، ثم أمره أن يأخذ فأسه ويعود الى المنزل ففعل ، وجثاهو بجانب المقبرة يلثم ترابه وثرابه ، ويلصق خديه بصفاحه وأحجاره ، ويبكى بكاء شديداً حتى اشتفت نفسه ، ثم انصرف لسبيله وهو يقول : قد كنت أرجو أن أدفن بجانبك يا ماجدولين فلم أوفق الى ذلك وأحسب ان ذلك منى غير بعيد

وأصبح منذ ذلك اليوم خائر النفس ، منقبض الصدر ، كئيهاً مستوحشاً ، ينظر الى الحياة وما فيها نظر الغريب النازل بدار لم يطرقها من قبل ، ولم يأنس بالمقام فيها ، فهو يعد عدته للرحيل عنها ، ثم مازال يكسج به الأمر حتى أصبح يستوحش من الناس ، ويتبرم بمرآهم ، ويستنكر سماع أصواتهم ، فانقطع عن الاختلاف الى من كان يختلف اليه من أصدقائه ومعارفه ، وأبى أن يقابل أحداً من زائريه ، وأمسى لا يفارق خياله فى نومه ويقظته وذهابه وجيئته منظر ماجدولين وهى تغرق فى النهر ، وغدائرُها الذهبية الصفراء طافية على وجه الماء ، ويدها تتحرك كأن حركات الاستغاثة فلا تجد مغنياً ولا معيناً ، فكان يجد فى نفسه لتلك الذكري الملمحاً

يقيمه ويقعده ، ويذهب براحته وسكونه ، فيصرخ كلما رأى له ذلك الخيال : نعم أنا الذي قتلتها ، وانتزعت حياتها من بين جنبها ، وفرت بينها وبين فلذة كبدها ، فويل لي ما أشقاني ، وما أسوأ حظي ، لقد كتب لي أن أقتل بيدي جميع الذين يحبونني على ظهر الأرض ، وأن أبقى من بعدهم شقياً معذباً ابكيهم واندبهم ، لا يستطيع أن انسام ، ولا يُقيض لي أن ألحق بهم

ولقد استيقظ صباح يوم من الأيام ضيق الصدر ، كثير الضجر ، نخرج من المنزل هائماً على وجهه ، ومشى في طريق ممهدة بين المزارع لا يدري أين يذهب ، ولا أي غاية يريد ، واستمر به المسير بضع ساعات فاذا هو أمام قرية ولفاخ ، فهاجت في نفسه تلك الذكرى الماضية ، ومشى إلى بيت الشيخ مولر ، فراحه وادهشه أنه لم ير أثراً لذلك البيت ، ولا لتلك الحديقة ، فلا غرف ولا قيعان ، ولا سقوف ولا جدران ، ولا أشجار ولا أغراس ، بل رأى انقاضاً مبعثرة ، وجذوعاً متناثرة ، واحجاراً ذاهبة ههنا وههنا ، فعلم أن مالك البيت الجديد قد هدمه ، وانتزع أشجار حديقته وأغراسها ، فاحزنه المنظر وآلمه ، ووقف أمامه مطرقاً خاشعاً وقوف العابد أمام محرابه ، وللبلى والدروس جلال في النفس فوق جلال الجدة والعمران ، وظل على ذلك ساعة ، ثم أخذ يدور بعينيه في تلك

العرصات الخالية يتلمس أثراً من آثار تلك المعالم التي قضى فيها أيام سعادته الاولى كما يتلمس السارى في ظلمة الليل نجمة القطب في أطباق السحب فلم يجد شيئاً ، فهتف صارخاً : ماذا صنع الدهر بي وبها : لقد أتككنيها وأتككني كل شئ بعد هاتى آثارها ، وظل يناجى تلك الاطلال الدوارس ، ويستنطق نؤيها وأحجارها ويسائلها عن أهلها وساكنيها ، فلا يجيبه غير الصدى المتردد ، حتى عى بموقفه ، فأنصرف ولقلبه وجبات كأنها شقائق برق في السماء لوامع

٩٦

ينتهون

انقطعت أخبار استيفن عن كوبلانس وأنديتها ومجامعها ، وكان غرة جبينها المتلائة ، وشمس جمالها الساطعة ، فتساءل عنه أصدقاؤه ومعارفه ، وصنائع أياديه وفواضله ، والمعجبون بذكائه ونموغه ، حتى عرفوا قصته ، وما كانوا يعرفون شيئاً منها قبل اليوم فهاهم الأمر وتعاضمهم . وأشفقوا أن تختطف يد الدهر من أيديهم تلك الحياة النضرة الزاهرة التي يتمتعوا بها إلا قليلاً من الايام ، فشئ بعضهم بذلك إلى بعض ، واجتمع منهم جمع عظيم ضم بين حاشيته كثير آمن كبار الموسيقيين ، ونوابغ المشايخ ، ورجال الشعر (٣٥ — ماجدولين)

والأدب فأجمعوا رأيهم على زيارته في قريته، وألا يزالوا به حتى يهجر عزلته ويعود إلى حياته الأولى بينهم، فكتبوا إليه أنهم وافدون لزيارته غداً، ثم ركبوا في أصيل اليوم الثاني عجلاتهم، واستصحب كثير منهم نساءهم وفتياتهم، وذهبوا إلى القرية فاستقبلهم استيفن على باب داره باسمًا متطلقاً كأنه لا يضر بين جنبيه لوعة ولا أسى، وكان قلبه لا يذوب بين أضالعه ذوب السبيكة في بوتقتها، فطمعوا فيه إذ راوه، وخيل إليهم أنه قد برى مما به أوكاد، وأن هذه الصفرة الرقيقة التي لا تكاد تلبس وجهه إنما هي أثر من آثار ذلك الماضي سيذهب مع الأيام، وكان قد أعد لهم في الحديقة مائدة عظيمة للعشاء، فجلسوا إليها وكانوا نيفاً وثلاثين رجلاً وامرأة، وجلس هو بينهم يحدّثهم ويظهرهم بملحه ونوادره، وتجنب في أحاديثه معهم كلما يتعلق بكارثته، فلم يجرؤ أحد منهم أن يفتح فيها حتى فرغوا من الطعام فتفرقوا في أنحاء الحديقة زمراً زمراً يرتاضون ويسمرون، حتى مضت قطعة من الليل، فاقترح أحدهم أن يؤتى بالبيانو إلى فضاء الحديقة ليوقع عليه ما يشاء منهم، فأُتي به، فجلس إليه الموسيقى «فردريك» ووقع عليه لحناً من ألحان الموسيقى العظيمة يتهوفن، فطرب له السامعون طرباً عظيماً، وقال أحدهم: لقد كان يتهوفن الرسول الإلهى الذى بعثه الله إلى البشر ليخاطبهم

بلغته ، فهو الرجل الذي استطاع وحده من دون الموسيقيين جميعاً أن ينطق بلسان الطبيعة ، ويردد أنغامها وأهازيجها ، وأن يكون في غنائه هادئاً كالماء ، وصافياً كالسما ، وعميقاً كالبحر ، وصادحاً كالطير ، وخافقاً كالنجم ، فقال الموسيقي « مورات » نعم ولكنه كان سيء الحظ ، عاثر الجد ، فقد قضى حياته فقيراً معدماً يسعى إلى السكاف في العيش فلا يجده ، وخاملاً مغمرراً ، يطلب الشهرة من طريق الفن فلا يظفر بها ، حتى مات شريداً طريداً في وطن غير وطنه ، وبين قوم وأسرة غير قومه وأسرته فقال الشاعر « سيدروف » من منكم يحفظ تاريخ حياته الأخيرة فيقصه علينا ؟ فقال استيفن أنا أقصه عليكم ، لأنني أعلم الناس به ، فقد كان استاذي « هومل » رحمة الله عليه صديقه الذي عاشه في آخر أيام حياته حتى مات وتولى دفنه بيده ، وكان كثيراً ما يقص على ذلك التاريخ وهو يبكي بكاء شديداً ، فانا أرويكم كما كان يحدثني به ، ثم أقبل عليهم وأنشأ يقول

لقد قسا الدهر على يتهوفن قسوة عظمى لم يقسها على أحد من قبله من رجال الفنون والآداب ، فقد وضع للعالم تلك الموسيقي السموية العالية التي حاكي بها الطبيعة في نغماتها ورناتها ، وصور فيها أدق عواطف القلوب وخوالجها ، فلم يحفل بها الناس كثيراً ، ولم

يأبوهالها ، وكانوا قد ألفوا قبل ذلك تلك الموسيقى الصناعية المتكلفة
التي كان يتألق الموسيقيون الماضون في تنسيقها وتديجها تألق
النحات في صنع الدمية الجميلة التي لا روح فيها ، واقتنوا بها افتتاحاً
عظيماً ، فلم يستطيعوا أن يفهموا غيرها ، أو همشوا الشيء سواها ، ولم
يكن مصابه يجهل الناس إياه واحتقارهم له بأقل من مصابه بحسد
حساده من أبناء حرفته ، واضطغانهم عليه ، بل لم يكن له مصاب
غير هؤلاء ، فهم الذين وقفوا في وجهه ، واعترضوا سبيله ،
واستقبلوه حين وقف عليهم بتلك القيثارة الجميلة الرنانة بابتسامات
الهمز والسخرية ، وذهبوا كل مذهب في النيل منه ، والولع به ،
والغض من شأنه ، وما كانوا يجهلون فضله ومقداره ، وقيمة
ما استحدثه في الفن من بدائع المبتكرات وغرائبها ، ولكنهم
عجزوا عن الصعود معه إلى ذروته التي صعد إليها فلم يكن لهم بد
من أن يثيروا حول كوكبه الساطع المتلألئ في سماء الموسيقى هذه
الفيرة السوداء من المثالب والمطاعن ، فلا يرى الناس أشعته ، ولا
يشعرون بمكانها ، حتى أن « هايدن » نفسه وكان أكثرهم اعتدالاً
وأدناهم إلى العدل والانصاف لم يستطع أن يسمح لنفسه بأن يقول
عنه في تقريره أكثر من أنه « عازف ماهر » فكان مثله في ذلك
مثل من يقول عن شاعر مثل شاعرنا « جيتيه » أنه « يحسن الاملاء »

ولم يزل هذا شأنهم معه حتى نغصوا عليه حياته ، وذهبوا
براحة نفسه وسكونها ، وملاً وأقلبه وساوس وأوهاماً ، فساء ظنه
بنفسه ، وأصبح يرتاب معهم كما يرتابون في اقتداره ونبوغه ، ولولا
أن صديقه « هو مل » كان مرآته الصادقة التي يرى فيها نفسه
من حين إلى حين لنفض يده من الموسيقى نفخ البائس القانط ،
ولحرمت الأمة الألمانية هذه القيثاره البديعة الساحرة التي لم
يخلق الله لها شبيهاً في العالم مذ خلقت الدنيا حتى اليوم ، فويل
للأشرار الخبيثاء ، ماذا كانوا يريدون أن يصنعوا : وماذا كان يكون
شأن الموسيقى في العالم لو تم لهم ما أرادوا !

ولم تستطع يتنهوفن ان يصبر طويلاً على هذه المظلمة
الفادحة التي نالته ، وضاق ذرعه بتلك النظرات المؤلمة التي أصبح
الناس ينظرون بها اليه كلما مشى في طريق ، أو ظهر في مجتمع ، فلم
يطق المقام بينهم ، ولا العيش فيهم ، فظل يتنقل في أنحاء البلاد
غداً ورواحاً ، لا يهبط بلدة حتى يطير به الضجر إلى غيرها ، ولا
تطلع عليه الشمس في مكان حتى تغرب عنه في مكان آخر ، وكان
له في مبدأ أمره ثروة صالحة يعود بها على نفسه وذوى قرياه ،
ولكنه كان من أصحاب الملكات الشعرية ، والشعر والحزم
لا يجتمعان في رأس واحد ، فلم يزل به إسرافه وتخرفه حتى أضاعها ،

فأصبح لا يملك أداة من أدوات الرزق غير قيثارته ، وقيثارته
سلعة كاسدة في سوق الفنون لا يبتاعها منه أحد فزهد الجامع
والمحافل ، وعاف المدائن والقرى ، وفرب نفسه إلى الغابات والاحراش
وقلل الجبال وضفاف الانهار ، وهنالك في خلواته ومعتزلاته
حيث لا يسمع صوتاً غير صوت الطبيعة ، ولا يرى وجهاً غير
وجه الله ، أخذ يبت قيثارته آلامه وأحزانه ، ويسكب مدامعه
الغزيرة بين مثانيها ومثالثها ، ويضع وهو جائع طاو صفر اليد
والاحشاء تلك الموسيقى العظيمة التي يعيش الموسيقيون اليوم
ببركتها عيش السعداء ، وينعمون في ظلالها بنعمة العيش
الرغيد

وكثيراً ما كان يستمر به السير حتى يصل الى جزر الدانوب
فيهم الى ضفاف ذلك النهر أياماً طوالاً لا يفتش إلا العشب ، ولا
يلتحف غير الظل ، ولا يطعم إلا ما يقذف به اليه النهر من أحيائه
حتى يعتز به صديقه « هو مل » فيعود به الى العمران

ولم يقنع الدهر منه بذلك حتى رماه في آخر أيامه بالصمم ، فلم
يأسف لهذه النكبة كثيراً ، بل قال في نفسه : إني أحمد الله على
ذلك فقد كفاني نصف شرور الناس فلعلة يكفيني نصفها الآخر
فلا أرى وجوههم ولا أسمع أصواتهم ، ولقد صدق فيما قال ، فقد

أخذ الناس يسمونه بعد نزول تلك الكارثة به بالموسيقى المجنون ،
فلم يسمع شيئاً مما يقولون

وأصبح منذ ذلك اليوم هادئاً ساكناً لا يشكو ولا يتضجر
بل لا يشعر ولا يتألم ، وذهب إلى غابة قريبة من مدينة « بادن »
فعاش فيها وحيداً منفرداً لا يسمع إلا صوت قلبه ، ولا يصنى
إلا لتلك النفثات الداخلية التي يتردد بدون انقطاع في أعماق نفسه ،
ولا يرى أحداً من الناس غير صديقه « هومل » من حين إلى
حين فإذا جاءه طرح عليه ما وضعه من الألحان فيحمله عنه إلى
الناس من حيث لا يشعر ، وهو باق في مكانه لا يفارقه

وكان الناس قد أصبحوا يألفون أنغامه بعض الشيء
ويصفون إليها ، لا لأن حساده قد هدأوا عنه ، أو انقطعوا عن
مناوئته والغض منه ، بل لأن للطبيعة سلطاناً فوق سلطان الضغائن
والاحقاد ، ولأن السحب المتلبدة في آفاق السماء لا تستطيع أن
تطفىء نور الشمس ، بل تحجب ضياءها عن العيون لحظة من الزمان ،
ثم لا تلبث أن تنقشع عنها ، فإذا هي ملء العيون والانظار

ولم يقض في عزلة هذه زمناً طويلاً حتى ورد عليه كتاب
من ابن أخت له في فينا كان قد تنبأه في صغره وأحبه حباً كثيراً
يقول له فيه اننى متهم بتهمة عظيمة لا سبيل لى الى الخلاص منها

إلا بحضورك ، فسافر اليه دون أن يقابل صديقه « هو مل » ولم يكن معه من المال ما يقوم بنفقات سفره ، فكان يمشى على قدميه حيناً ، ويركب عجلات النقل أحياناً ، حتى نال منه الجهد ، وأصبح عاجزاً عن المسير ، وكان الطريق الى فينا لا يزال بعيداً فمر ذات ليلة ببيت صغير منفرد في ظاهر إحدى القرى فوقف ببابه وأخذ يقرعه قرعاً خفيفاً ، فخرج اليه صاحب وسأله ما شأنه ، فقال له إننى شيخ أصم غريب عن هذه الديار ، وقد أظلمنى الليل وعجزت عن المسير فلا أستطيع المضى في سبيلى ، فأذن لى بمضجع أوى اليه بقية ليلتى ، وإن شئت فأمر لى بكسرة خبز أسدبها رمق ، فأشفق عليه الرجل وأوى له وأحله من بيته أكرم محل وأسماه ، وكان للرجل ابنتان فى سن الشباب فقامتا بين يديه تخدمانه حتى رجعت اليه نفسه ، فدعوه الى المائدة فأكل معهم ، ثم مشى الى مصطلى فى أحد أركان القاعة فجلس اليه يصطلى ويحفف ثيابه ، وكان صاحب البيت من المولعين بالموسيقى والمغرمين بتوقيعها ليلهم ونهارهم ، فافرج من الطعام حتى جلس أمام البيانوا وأخذ يقلب دفتر الموسيقى الذى بين يديه حتى وقع على ما يريد منه ، فأشار الى ابنتيه أن تأخذا قيثارتيهما ففعلتا ، وأخذوا يعزفون جميعاً بنغمة واحدة ، فاعتبط يتهوفن بمنظرهم ، وان لم يسمع من غنائهم شيئاً ، وكل

ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك اللحن الذي يوقعونه سلطاناً عظيماً على نفوسهم ، فقد رآهم متأثرين عند توقعه تأثراً شديداً ، ورأى صاحبة البيت وخادماتها قد تركتا ما كانتا تشتغلان به من شؤون البيت وأعماله ووقفتا للاستماع ، وقد سكنت أطرافهما ، وتهلل وجهاهما ، وذهبتا يبصرهما في السماء كأنما تتبعان أثر تلك النغمات في طريقها الى الملأ الأعلى ، حتى انتهت القطعة ، فاعمرورقت عينا الفتاة الصغرى بالدموع ، وألقت الكبرى بنفسها بين ذراعي أمها ، وبكت بكاء شديداً ، فنهض يتهوفن من مكانه ومشى اليهم وقال لهم : أننى لم أستطع أن أسمع شيئاً من ألحانكم أيها الأصدقاء ، ولكننى استطعت أن أفهم أنها ألحان جميلة مؤثرة فتأثرت معكم ، وطربت لطربكم . ولقد كنت قبل أن تحل بي هذه النكبة التى ترونها أحب الموسيقى حباً شديداً ، ولا يلذلى فى الحياة شئ مثل استماعها ، فهل تأذنون لى أن أنظر فى دفتر الموسيقى لأقرأ تلك القطعة التى كنتم توقعونها ؟ فأومأوا اليه بالإيجاب ، فأكب على الصحيفة فما وقع نظره على القطعة ورأى اسم صاحبها فى رأسها حتى اصفر لونه ، وارتعدت يده ، ورفض جبينه عرقاً ، ثم أخذ يبكي بكاء شديداً فاتتبه القوم اليه ، ونهضوا من مكانهم مدعورين ، وأحاطوا به يسألونه ما خطبه ، فأشار بأصبعه الى عنوان

القطعة فلم يفهموا ما يريد ، فقال لهم : إنها قطعتى أيها الأصدقاء ،
وأنا الموسيقي يتهوثن ، فدهشوا جميعاً ، وظلوا ينظرون اليه باهتين
مذهولين ، ثم رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وجثوا بين يديه خاضعين
متخشعين ، وتناولوا يده وأخذوا يقبلونها واحداً بعد آخر ، فكانت
هذه الساعة هي الساعة الوحيدة التي ذاق فيها لذة الاحترام في حياته ،
وكانت هي بعينها الساعة التي رفرف على رأسه فيها طائر الموت ، فقد
شعر في تلك اللحظة بوخزة مؤلمة في جنبه ، فتساقط في مكانه ، فتلقوه
على أيديهم ، واحتملوه إلى سريره ، وسهروا بجانبه الليل كله يعللونه
ويستشفون له ، فيستفيق مرة ، ويستغرق في غشيته أخرى ،
حتى الصباح

وكان صديقه هو مل قد عرف أمر سفره فتبعه في الطريق التي
سلكها ، وظل يسأل عنه في كل مكان حتى عرف القرية التي وصل
إليها ، والبيت الذي نزل ، فصعد إليه فرآه في سكرته التي يعالجها ،
جلس بجانبه يبكيه ويتوجع له ، حتى انتبه له يتهوثن بعد حين ، فابتسم
له إذ رآه وقال له : هل جئتني بقيثارتى يا هو مل ؟ قال نعم ياسيدى
وهاهى ذى ، فتناولها منه ، وتناهض متكئاً على إحدى يديه حتى
تمكن من الجلوس ، وأنشأ يوقع على مسمع من القوم لحنه المبحزن
المشهور « رب لم أشقيتنى وما أشقيتُ أحداً من عبادك » فـ

أتمه حتى ارتعدت يدها، وجمحت عيناه، وسال العرق من جبينه متحدراً، فسقط على وسادته وقد غشيته غشية الموت، ثم فتح عينيه بعد لحظة فرأى صديقه هومل بجانبه فأمسك بيده ونظر إليه نظرة طويلة وقال « ألم أكن في حياتي عظيماً يا هومل » قال بلى وأكبر من عظيم، فتهلل وجهه بالبشر وأسبل عينيه وهو يقول « الآن أموت سعيداً » ثم قضى

وفي اليوم الثانى حمل ذلك الرجل العظيم الى مقبرة تلك القرية الفقيرة فدفن فيها، ولم يشيع جنازته غير صديقه هومل وأفراد تلك الأسرة التى مات بينها، وكان هذا كل لحظة من الحياة

٩٧

لحن الموت

ماوصل استيفن فى حديثه إلى هذا الحد حتى اصفر لونه، وتغضن جبينه، وأطرق برأسه إلى الأرض، فانتبه اليه القوم فاذا هو واضع يده على قلبه، واذا دموعه تنحدر على خديه متتابعة، فقال له أحدهم مابك يا استيفن؟ فرفع رأسه بعد هنيهة وقال: إنما أبكى على هذا الرجل المسكين الذى عاش فى حياته شقيماً، ومات مسكيناً، ولم يبتسم له الدهر فى يوم من أيام حياته ابتسامة واحدة يكافئه بها على يده التى أسداها إلى هذا المجتمع، كأنما قد كتب

للعاملين على وجه الارض جميعاً أن يعيشوا فيها عيش الاشجار العظيمة
في الصحارى المحرقة ، تظلل الناس بوارف ظلها ، وهى تصطبلى حر
الهجرة وأوارها ، ولو أن القدر أنصفهم ووفاهم أجورهم لما سعد
أحدٌ في الحياة سعادتهم ، ولا هنى فيها هناءهم
فصمت القوم جميعاً ، وقد شعروا أنه إنما يحدث عن نفسه ،
ويرسل في حديثه بعض الزفرات التى تعتاج في صدره

وإنهم لسكذلك إذ نهض من مكانه بغتة ومشى بقدم هادئة
مطمئنة حتى وصل الى كرسى البيانو فجلس عليه ، ثم التفت إلى القوم
وقال لهم : هل تأذنون لى أيها الأصدقاء وقد قصصت عليكم تاريخ
حياة يتهوثن أن أسمعنكم لحنه الأخير الذى وقع في آخر ساعات
حياته ؟ فهللت وجوههم فرحاً ، وقد ظنوا أنه إنما يريد أن يسرى
عن نفوسهم تلك الكتابة التى غشيتها منذ الساعة ، فقالوا جميعاً نعم
فبدأ يوقع ذلك اللحن « رب لم أشقيتنى وما أشقيتُ أحداً
من عبادك » ويغنيه بصوت ضعيف خافت ، ثم أخذت عواطفه
تشتعل شيئاً فشيئاً ، فعلا صوته ، وأنشأت نغماته تنتشر في أجواز
الفضاء ، فسمع القوم تلك الموسيقى السموية العالية التى لم يخلق الله
لها مثيلاً ، والى هى غاية ما أنتجه العقل البشرى ، فأطرقوا برؤوسهم
إجلالاً لهذه العظمة المشرفة عليها من سمائها ، وخيل اليهم أنهم

لا يرون بينهم مغنياً يوقع على أوناره، بل ثاكلاً متفجعاً يذرف
مدامعه، ويصعد زفراته، حتى إن الموسيقى «مورات» همس
في أذن أحد الجالسين بجانبه قائلاً «إن الرجل لا يغنى بل يموت،
وإنى أشم من أنفاسه رائحة الكبد المحترقة» وكان كلما استمر
في غذائه اشتد تأثيره، والتهبت عواطفه، وتلون صوته بلون الانين
المحزن، حتى فنى عن نفسه وعمما حوله، واستولت عليه حالة غريبة
من الذهول والاستغراق

وما أتى على النعمة الأخيرة، وكانت أعلى النعمات وأطولها
وأذهبها في أجواز الفضاء، حتى نهض القوم جميعاً على أقدامهم
وأخذوا يصفقون تصفيقاً شديداً ويهتفون «ليحيى استيفن»
وإنهم ليصفقون هذا التصفيق الشديد ويدعون له الحياة
الطويلة، ويتدافعون إلى مكانه لتهنئته وتمجيده، إذ ابهم ينظرون إليه
فيرونه مائلاً برأسه على ظهر كرسيه، وقد اقشعر وجهه، وتغيرت
سحته، وأمسك بكفه على أحشائه، فطارت ألبابهم، وطاشت
عقولهم، ومرت بخواطرهم جميعاً مرور البرق تلك الصورة التي
مات عليها يتهوفن في قصته التي قصها عليهم منذ الساعة، فشاءوا
وانقبضت نفوسهم، وأحاط به جماعة منهم فاحتملوه إلى سرير،
وحضر الطبيب ففحصه ثم نظر إليهم نظرة اليأس، فأطرقوا واهمين

مكتئبين واحتاطوا بسريره ينتظرون قضاء الله فيه ، ففتح عينيه بعد ساعة ودار بها حوله ونطق باسم « فرتر » وكان حاضر ألقابه ، فنظر اليه طويلاً ثم نطق باسم « ماجدولين الصغيرة » فما لبث أن جاءه بها ، فضمها الى صدره وقبلها قبله امتزجت فيها عاطفة الرحمة بعاطفة الذكرى ، وظل ينظر بعينيه إلى السماء مرة وإلى فرتر أخرى ، كأنما يوصيه بالطفلة ويستشهد الله على ذلك ثم التفت الى القوم وقال بصوت ضعيف منهافت « أشهدكم أيها الاصدقاء أن جميع ما تملك يدي قسمة بين هذين » وأشار الى فرتر والطفلة ثم عاد الى ذهوله واستغراقه وأخذ يجود بنفسه وظل على ذلك ساعة ثم فتح عينيه مرة أخرى فرأى القوم يبكون من حوله ويتفجعون له ، فرت بشفتيه ابتسامة خفيفة ، كأنما اغتبط بمنظر تلك العظمة التي تجلت له في دموع هؤلاء العطاء ، وأخذ يقلب عينيه فيهم ، فتقدم نحوه الموسيقى فردريك وكان أعظم القوم شأنًا وأكبر سنًا ، وقال له : هل توصى بشيء يا مولاي ؟ فحاول النطق فلم يستطعه ، فظل يعالجه حيناً حتى استقاده ، فأنشأ يقول أوصيك يا فردريك أن تجمع ألحاني جميعها في كتاب واحد ، وأوصيك يا سيدروف أن تكتب تاريخ حياتي كما يعلمه فرتر ثم تنشره في الناس ، وأوصيك يا فرتر أن تدفني مع ماجدولين في

قبرها وأن تتولى شأن هذه الطفلة الصغيرة وتحميها مما تحمي منه
أهلك وولدك حتى اذا يفتت زوجها من الزوج الذي تختاره
لنفسها وأوصيك جميعاً ألا تحزنوا على موتى ، فاني وان قضيت
حياتي شقياً فها أنتم ألاء ترون الآن أنني أموت بينكم سعيداً، وكان
هذا آخر ما نطق به ، ثم أسلم روحه

وكذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب
جسمه ولكنه أحيى نفسه وسجلها في سجل النفوس الخالدات

٩٨

النهاية

أما أسرة فرتر فقد سعد حالها ، وأصبحت في نعمة واسعة من
العيش لا ينقصها عليها إلا ذكرى ذلك المحسن الكريم ، وأما
ماجدولين الصغيرة فقد تولى فرتر شأنها ورباها مع ولده «برنار»
الذي رضعت معه في صغره تربية قرويه ساذجة بعيدة عن مفسد
المدنية وآفاتهما حتى شباً فتجأ بها حياً شريفاً طاهراً فأنتهى بهما
الامر الى الزواج فعاشا أسعد عيشة وأهنأها ، وأما المنزل فقد
اشترته جمعية الموسيقى الملوكية في برلين وحفظته تذكراً
لاستيفن ، ولا يزال يحيى التويزم من أيراً يرفيره القبايش ويشاهدون

فيه آثار ذلك التاريخ الذي دونه الشاعر « سيدروف » و برون
حديقته ، وأزهار البنفسج المنتشرة في أنحائها ، والحوض المقام
في وسطها ، والسياح الدائر من حوله ، والمقعد الذي جلس عليه
استيفن وماجدولين ليلة عاتبها وغاضبها والغرفة الزرقاء التي
كانت غرفة عرس ماجدولين أولاً ، ولحدها أخيراً ، ومكتبة
استيفن ، وقيثارته ، والبيانو الذي وقع عليه في ساعته الأخيرة
لحن الموت

فاذا فرغوا من زيارة المنزل ذهبوا إلى المقبرة فزاروا ذلك
القبر الذي دفن فيه هذان الشقيان البائسان ، فيبذل تربته
بالدمع منهم من نكب في حياته بمثل نكبتهما ، أو عاش فيها
شقيقاً كمشهما

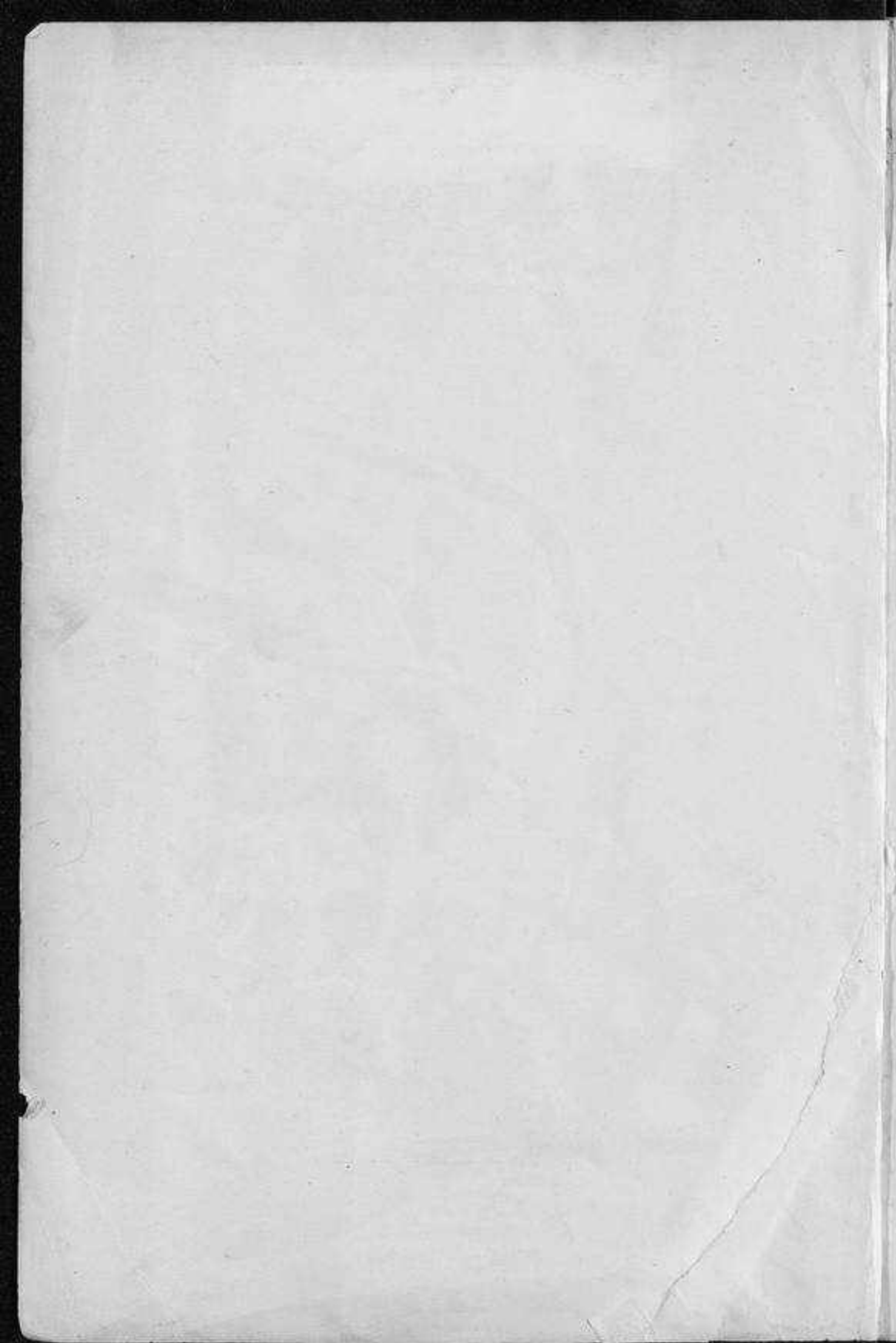


FIRST WARD BRANCH

مكتبة العرب



BRANCH OF THE ARAB LIBRARY
PUBLIC LIBRARY



Date Due

DISCARD

Arabic

892.7

Carr, Alphonse

Magdoulin

cop. 1

DISCARD

